دلائل التوحيد

للشيخ محمد جمال الدين القاسمي

صححه وضبطه جماعة من العلماء
باشراف الناشر

دار الكتب العلمية
بيروت — لبنان

الطبعة الاولى
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م
بيروت - لبنان

يطلب من : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب ٩٤٢٤-١١ - تلكس : NASHER 41245 Le

ترجمة

السيد جمال الدين القاسمي

بقلم شقيقه الأستاذ قاسم خير الدين القاسمي رحمه الله

تلد الولادات كل يوم أولاداً ، وتطوي الأرض أناساً لا يحصي عددهم غير خالقهم ، ولكن من يؤثرون الأثر النافع ، فيندثرون في حياتهم وبعد مماتهم أقل من القليل ، وأقل منهم في أهل هذا الشرق التعس وفي أهل الاسلام خاصة ، وذلك لأن العلم الاسلامي بعد أن هبت أعاصير الاختلافات في القرون الوسطى ، وحاربت حكومات تلك الأيام رجالات المعقولات وأحرار الافكار ، ضعف مستوى العقول لأنها لم يطلق لها العنان ، وتقاصرت الهمم لأنها لم تجد منشطاً ، فقل جداً النابغون النابهون .

ولكن إرادة المولى سبحانه قضت بأن لا تحرم هذه الأمة من أعلام يصدعون بالحق ، فيجددون لها أمر دينها ، ويستطيبون الأذى في إنارة العقول والرجوع بالشرع إلى الحد الذي رسمه الشارع وأصحابه والتابعون والأئمة الهادون والمهديون ، ومن هؤلاء المجددين نابغة دمشق فقيدنا العزيز السيد جمال الدين القاسمي الذي يعرفه قراء هذه المجلة بما نشره في سنيها الماضية من آثار علمه وأدبه ، فقد قضى حياة طيبة ، ولم يعقه عن الاشتغال ما لقيه من تثبيط المثبطين في أول أمره ، وتنغيص الحاسدين في أواسط عمره ممن لا يخلو منهم مصر ولا عصر ، خصوصاً في بلاد يستمد فيها كل شيء من ولاة أمرها .

نشأ السيد القاسمي من بيت فضل وفضيلة ، وكان والده وجده من المعروفين بالأدب ومكارم الأخلاق ، وهذا من النوادر في عصر لا يكبر

رجله في العيون إلا على مقدار عدهم في صفوف أهل الرسم ، وفي دور قلّ أن ينجب فيه ولد لنجيب ، فصم أو تصامم منذ أوائل سن التحصيل عن كل ما يقف حجر عثرة في سبيل الطالب ، فكان منذ وعى على نفسه يعمل على تهذيبها ولا يكاد يمضي عليه يوم لم يستفد منه فائدة ، ولم يقيد شاردة فظهرت عليه مخايل النبوغ ، ولمّا يبلغ العشرين ، فما بالك به وقد نيف على الأربعين وقارب أن يتم العقد الخمسين .

جماع الاسباب التي نجح بها فقيدنا طهارة نفسه من المطامع الأشعبية ، وشغفه بالعلم للذته ونفعه في إنارة القلوب واعتقاد أنه منج في الدنيا والآخرة ، فهو لم يجعل الدين سلماً إلى الدنيا ، وجسراً مؤقتاً يجتاز عليه لحيازة مظهر خلاب ، والتصدر في المجالس بفاخر الهندام وبراق الثياب بل فرغ قلبه ووقته للعمل النافع ، فبورك له بساعات عمره القصير ويالِلأسف . ولو عددنا ما كتبه من مصنفاته وقسناه بالنسبة لهذا العصر الذي أضحت فيه بضاعة العلم مزجاة بائرة لما قل عن اللحاق بالمكثرين من التأليف في المتأخرين أمثال السيوطي وابن السبكي وأضرابهما مع ملاحظة ما بين العصور والبيئات من الفوارق .

تذرع الفقيد بعامة ذرائع النفع لهذه الأمة ، فكان إماماً في تآليفه الوفيرة . إماماً في دروسه الكثيرة . إماماً في محرابه ومنبره ومصلاه . رأساً في مضاء العزيمة . رأساً في العفة ، وهذه الصفة هي السر الأعظم الذي دار عليه محور نبوغه ، لأنه لو صانع طمعاً في حطام الدنيا . لما خرج عن صفوف أهل محيطه ، ولكان عالماً وسطاً يشتغل بالتافهات ويعيش في تقية ويموت كذلك .

كان أجزل الله ثوابه إذا لقيه المماحك في أحد المجامع عرضاً أو غشيه في درسه أو بيته ناقداً أو ناقماً علمه من حيث لا يشعر وهداه إلى المحبة بكيِّس القول ، فإذا أيقن أنه من المكابرين المهمومين أعرض عنه ، وقال سلاماً ، ولذلك لم يلق ما لقيه أشداء العلماء والفلاسفة في العصور الماضية من الارهاق والاعنات أمثال ابن حزم الاندلسي ، والشهاب السهروردي ، لأنه كان يتلطف في المناظرة واقناع المخالف ، فإذا رأى

المناقش بمعزل عن الفهم سكت عنه . نعم كان مثـــال اللطف في بث الفكر ، فلم يصلك به – كما قيل – معارضه صلك الجندل وينشقه متلقنه انتشاق الخردل .

قام الاستاذ في دور زهد الناس فيه في العلوم الدينية إلا قليلاً ، فأعاد اليها في هذه الديار بنور عقله شيئاً من بهائها السابق، ولقد كان يجتمع به الموافق والمخالف فما كانا يصدران عنه إلا معجبين بعقله مقرين بفضله معترفين بقصور كثير حتى من المشاهير عن ادراك شأوه . يخلب الألباب ويستميل العقول ، فكأنه خلق من معدن اللطف ورقة الشمائل . لم تجد الغلظة سبيلاً إلى قلبه ولا الفظاظة أثراً في كلامه وقلمه ، ولا عجب إذا كثر في آخر أمره أنصاره ، وعشقته النفوس فأكبرت الخطب فيه . جاء في الأثر لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهى عنه رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهي عنه حليماًفيما يأمر به حليماً فيما ينهي عنه .

دخل عبد اللطيف البغدادي فيلسوف الاسلام على القاضي الفاضل فقال : رأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه في إخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه . وهذا التعريف يصدق من أكثر وجوهه على الشيخ القاسمي ، فإنه كان نحيل الجسم كبير الروح ولو تهيأ لجمال الدين مثل صلاح الدين لسرت أفكاره أكثر مما سرت ، وراقت أسفاره أكثر مما وفق اليه ، ولكن إذا عظم المطلوب قل المساعد ، وقديماً زكا غرس العلم في الشرق في ظل الملوك والأمراء ، واليوم يزكو في الغرب في حمى الجامعات والمجامع والجمعيات . والعلم مذ كان محتاج إلى العلم .

برز الفقيه الراحل وأي تبريز في علوم الشرع وما اليها ، ولم يفته النظر في علوم المدنية ، فألمّ بأكثرها الماماً كافياً لتكون عوناً على فهم أسرار الشريعة . أما وقد جمع الفضيلتين فلا تجد لكلامه مسحة من الجمود المعهود لكثيرين ممن يقتصرون على كتب العلم ودروس المعلمين ، ويعدون ما عداهما لغواً فهو عالم ديني كامل ، ولكنه كان يقرأ العلوم المدنية ،

ويطالع صحفها ومجلاتها وكتبها الحديثة ، كما يطالعها المنقطعون إلى هذه العلوم وزيادة ، ولا ينكر شيئاً يقال له علم أو فن ،ولذلك لم يمجه العصريون ولا غيرهم .

وأكبر دليل على ذلك ما شهدناه يوم مشهده الأخير من اجماع من كانوا خصومه أمس على اعظام الخطب فيه والاقرار له بفضائل كانوا في حياته يغمطونه إياها ، ولكن لمعاصرة حرمان .

رأيت رجالاً كثيرين من أهل الاسلام وغيرهم وفي مصر والشام خاصة ، فلم أرَ همة تفوق همة صديقي الراحل ولا نفساً طويلاً على العمل ودؤوباً عليه أكثر منه ولا غراماً بالاستفادة ولا حباً بالعلم للعلم ، فقد قضى عن ٤٩ عاماً وخلف ما خلف من عشرات من مصنفاته الدينية العصرية النافعة منها تفسيره الذي لم يطبع [١] ومنها مقالاته الممتعة وأبحاثه المستوفاة ، وأثر في عقول كثير من الطلبة تخرجوا به وأخذوا أحكام الحلال والحرام عنـــه ، دع دروس وعظه للعامة وحلقات خاصته ومع كل هذا كان حتى الرمق الأخير أشبه بطالب يريد أن يجوز الامتحان لنيل الشهادة العالية .

وكلما كان يوغل في طلب المزيد من العلم والتحقيق تراه آسفاً على عدم اشباع أبحاثه حقها أحياناً من النظر البليغ .

رزق الصديق العلامة صفات إذا جمع بعضها لغيره عد قريع دهره ووحيد عصره ، فقد كان طلق اللسان . طلق المحيا . وافر المادة . وافر العقل . سريع الخاطر . سريع الكتابة . جميل العهد جميل الود . وكان بلا جدال جمال الدين والدنيا ما اجتمع به أحد إلا تمنى لو طال بحديثه استمتاعه ليزيد في الأخذ عنه والتشبع بفضائله والاغتراف من بحر علمه . وبينا كنت ترى الاستاذ على قدم السلف الصالح عالماً كبيراً بين الفقهاء والأصوليين والمحدثين والمفسرين ، إذا هو من الافراد المختصين بالأدب وما يتعلق به ، وبينا تراه يؤلف ويطبع إذا بك تراه يواظب على التدريس

(١) طبع لاحقاً بالقاهرة وبيروت .

لطلبته ووعظ المستمعين في دروسه وخطبه ، ومع كل هذه الأعمال التي قد يكون منها انقباض في صدر العامل تراه يهش ويبش كل ساعة ، ويفسح من وقته شطراً ليغشى مجلسه أوفياؤه وأخلاؤه وطلاب الفوائد منه .

فهو علاّمة بين العلماء ، منور ممدن بين المنورين بنور المدنية الصحيحة ذهب مثال الرجل الصالح عفيف الطعمة ، لم يسف إلى ما يسف اليه بعض من يتذوقون قليلا من المعارف ، وما أنكر إلا المناكر ، ولا أمر إلا بالمعروف ، ومن ضيق ذات يده كان يتصدق في السر ولا يخلو ساعة من عبادة وذكر ، ففقده جلل على دمشق ، بل على الشام ، بل على أهل الاسلام ، وشهرته التي نالها في العالم الاسلامي في هذه السن من الكهولة هي مما استحقه أو أقل مما يستحقه ، لأنه حقيقة العالم العامل الذي يحبب الدين حتى لمن لم يتدين حياته ، فاللهم عوض المسلمين عن هذه الدرة اليتيمة التي أصيبوا بها ، وارحمه عداد حسناته وارزقنا الصبر عليه وجميع أسرته ومريديه وأحبابه الذين فجعوا به .

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب :

الحمد لله الذي بطن عن الأبصار وظهر للبصائر [١] ، وبيّن برهان الاستبصار [٢] أن الخلق إلى فطرته صائر [٣] . أظهر بالدليل لأولي الألباب ، في كل صوب من الأصواب : إنه مسبب الاسباب ، ومرسل الرسل ومنزل الكتاب ، لا تحصر الاهوام ؛ ولا تصوره الافهام ، بل هو الباطن فما لنظرة الحس إلى حضرة القدس سبيل ، وهو الظاهر فعليه للعقل في كل شيء آية ودليل . شهدت بوحدانيته شواهد الاعتبار [٤] عياناً ، فأنّى تطرف الناظر [٥] تعرف برهاناً . فبعداً للذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا عليها صماً وعمياناً ، وطوبى للذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .

أحمده على نعمه التي أسبغها باطنه وظاهره . واستنصر به اليه [٦]

(١) جمع بصيرة . وهي الفطنة وقوة القلب المدركة اهـ. قاموس وشرحه .

(٢) أي في جوده . يقال : استبصر الطريق استبان ووضح . والتبصر في الشيء التأمل والتعرف اهـ . قاموس .

(٣) أي راجع اليها . فالفطرة أي فطرة المرء على معرفته خالقه واعتراف قلبه به هي المرجع في باب الاستدلال على الحق تعالى ، كما سيفصل في الدليل الأول الآتي .

(٤) وهي آيات الأنفس والآفاق . والاعتبار التأمل في الشيء ليستدل به على غيره .

(٥) يقال طرف بصره إذالحظ وحرك جفنه في النظر وأوثر المزيد ليدل على زيادة المعنى وليجانس تعرف .

(٦) أي إلى رضائه والدعوة اليه ، فإلى : بمعنى اللام مثلها في آية « والأمر اليك » كما في مغني اللبيب .

وما خذل من كان الله ناصره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أوضح البرهان سبيلها ، وصحح العيان دليلها ، ومهد العلم اليقيني مقيلها (١) شهادة من عرف الحق فاتبعه واستمع القول فاتبع أحسن ما استمعه . وصدع بالحق فزلزل صرح الشيطان وصدعه ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وإمام المرسلين . أرسله منار الحق على شفا (٢) فشفاه . وشرار (٣) الشرك قد طفا (٤) فأطفاه . وحزب الطاغوت قد عفا (٥) فعفاه . ففتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً . وشرح له صدراً . ورفع له ذكراً . وقربه زلفاً . صلى الله عليه وعلى آله ذوي المناقب المؤثلة (٦) . وأصحابه نجوم الهدى في الخطوب المعضلة (٧) . ما انبرت الأقلام لحل المهام (٨) فنسخت الحقائق ونسخت الأوهام (٩) .

أما بعد ؛ فإن علم اقامة الحجج والبراهين ، لتأييد مباني أصول الدين . ورد شبه الملحدين . علم رفيع مناره . عظيم مقداره . تجب العناية به على العلماء ، ودراسته على أذكياء النبهاء ، لتصير دلائل الأصول ملكة راسخة للعقول .

---

(١) أي مستقرها ، فهي في مقام مكين لا تزلزله الأهواء ، ولا تزعزعه عواصف الشبه والتمهيد ترشيح للاستعارة .

(٢) الشفا حرف كل شيء ويضرب به المثل في القرب من الهلكة ، وقوله : فشفاه أي أبرأه من هلكته .

(٣) بفتح الشين كسحاب ، وقد خطىء صاحب القاموس في ضبطها بالكسر ، وهو كما في المصباح ما تطاير من النار والواحدة شرارة .

(٤) أي علا .

(٥) أي زاد أو غطى : ويقال : عفا عليه في كذا أي زاد وعفت الأرض : غطاها النبات. وعفا شعر البعير : كثر وطال . وقوله : فعفاه بالتشديد والتخفيف أي محاه ودرس أثره.

(٦) أي المؤصلة فلها مجد قديم .

(٧) بكسر الضاد أي الشديدة الصعبة . والخطوب جمع خطب وهو الأمر العظيم .

(٨) كأنه جمع مهمة مصدر ميمي بمعنى الهم في القاموس همه الأمر هماً ومهمة حزنه وأقلقه إلا أن المستعمل هو المهمات وهي كما في شرح القاموس الشدائد المحرقة من الأمور .

(٩) فيه الجناس التام لا رادة نقل من نسخ الأولى ، وأزال من نسخ الثانية وهو ظاهر .

وقد كان لهذا العلم أيام كانت بضاعة العلوم رائجة . وبحور الفنون بسفن المحصلين مائجة . مقام مكين وركن ركين . وعضب قاضب . وشهاب ثاقب . لأنه عماد الفرض المحتم . والأمر الواجب تقديمه على كل مقدم . وهو معرفة واجب الوجود لذاته . وباعث الرسل لاقامة الحجة على الخلق بمحكم آياته . وجلي أن قوام هذه المعرفة ببراهينها . وتحرير قوانينها . ليتميز صحيح الاعتقاد مـن فاسده . ويتبين طريق الحق لقاصده . وقـد منّ الله علينا بجمع نموذج [1] من ذلك في هذا الكتاب . انتقيناه من درر الحكماء المحققين ومما اشتقه الفكر من غرر ذوي الألباب . قسمناه إلى مطالب فريدة . يتفرع عنها مباحث عديدة . يرجع حاصلها إلى دلائل وجود المعبود . والرد على الماديين أهل الجحود . ودحر شبههم بالحجج البازغة . والبراهين الدامغة . ثم بيان آيات خاتم النبيين . وكريم أخلاقه التي فضل بها العالمين . ولم آل جهداً في تجويد أسلوبه . وتجديد ترتيبه . فإن الاسلوب المختّرع . والنمط المفترع [2] أقرب للافادة وأجذب للاستفادة ، وما برح علماء الكلام لهم في هذه الحلبة [3] محمود المقام ، إلا أن لكل دور من الأدوار طوراً يبلغه ، ولكل عصر قوي من حقائقه يقذف بها على الباطل فيدمغه . واعداد ما يستطاع من البرهان . لمن ينازل الحق في هذا الرهان من أهم المهمات وآكد الواجبات . والمجاهد لإبانة الحق بيراعه ولسانه أعظم درجة من المجاهد بسيفه وسنانه . وإني أبرأ اليه تعالى من القول والحول ، وأستغفره مما طغى به القول : وأسأله أن يجعلنا من أصحاب صراطه السوي وممن يدعون إلى الخير الدنيوي والأخروي . آمين .

---

(١) النموذج بفتح النون مثال الشيء . ويقال : أنموذج بضم الهمزة .

(٢) أي المبتدأ يقال افترعوا الحديث ابتدأوه . نقله شارح القاموس عن شمر أحد أئمة اللغة اه.

(٣) الحلبة الدفعة من الخيل في الرهان ، وخيل تجتمع للسباق من كل أوب كناية عن الاجتهاد وبذل غاية الوسع في ذلك اه .

تمهيدات

التمهيد الأول

في سر معرفة التوحيد وما يتقاضاه الايمان من الايقان :

سر علم التوحيد وروحه هو تحقيق الايمان بالله تعالى . أي جزم القلب بوجوده سبحانه ، وما يتبعه من صفاته الجليلة . ونعوته الجميلة ، جزماً بالغاً النهاية ومتجاوزاً من الحدود الغاية ، بحيث لا يصاحبه ريب ولا يشوبه شك . وإنما يتم ذلك بالوقوف على ما يقوي الفطرة من قواطع الدلائل ومسالح البراهين ، والبرهان سلاح الايمان يتقى به غرة الشيطان . ومن لا عدة له يوشك أن يصرع إذا قامت الهيجاء ، ويدهش لمباغتة الأعداء . والحوار في هذا الفن يكاد أن يكون لازماً من لوازمه ، وخاصة من خواصه .

قال ولي الدين فيه : هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات . ولذا يبدو لقارئه حوار مع الفرق وتجالد مع النِحَل ؛ وقراع للاهواء ونزال للالداء، وقد أفضى التوسع ببعض المصنفين فيه إلى سبر معظم الفرق حكاية لمذهبهم، ورداً على أدلتهم مفرقة في أبواب ، ومجموعة في باب كما فعل العضد في مواقفه . وببعضهم إلى وضع التأليف كله لمقارعة ذوي الأهواء ، كما فعل الامام ابن حزم في الفصل ، فقد نهض بقوى الادلة ، وكرّ بالنقض والابطال على الفرق المضلة . ولم يدع فرقة إلا نازلها ولا نحلة إلا صارعها . ولم تزل هذه سنّة الراسخين في كل عصر وهدى ورثة الأنبياء في كل قطر . حفظاً لصحيح العقيدة من أن تعبث بها الأهواء ،

أو تنفث فيها سموم الأعداء . ولا يخلو عصر ما من مجادل عن هوى وضلالة سيما إذا قلّت العناية بالعلم وامتد رواق الجهالة .

التمهيد الثاني

في تمثيل انمحاء الباطل لظهور آية الحق :

قد ينتزع السوفسطائي من مادة خياله أمشاجاً يؤلفها ، وعناصر يركبها ، ليدهش الغر بجداله ويذعر الجبان بختاله ، وقد يخلو له جوّ المراء فيصفر ويحلّق ويطير حيث شاء الهوى ويحملق . حتى إذا طلع موكب الحق بسطوته . وفيلق البرهان بعدته . نسف التل المركوم . واجتث البرج الموهوم وانقذف على الباطل فأزهقه ، وعلى التمويه فأرهقه ، وأنار بضيائه السبيل ، ومحا ظلمات الأباطيل ، وعمر من القلوب مواتها ، وأحيا من العقول أمواتها ، وللحق قوة جذب لا يتمكن من يراه إلا وينجذب طبعاً اليه . قدرة باهرة لا يدركها أحد إلا ويخضع طوعاً أو كرهاً لديه ﴿ ولله يَسْجُدُ مَنْ في السّموات والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالهُم بالغُدُوِّ والآصالِ ﴾ [1] والحقيقة متى وجدت طريقاً جرت فيها بقوة الصاعقة وسرعة البرق ، فلا يقف في وجهها شيء من الأشياء وطاردت بضيائها الظلماء وقذفت بتيارها الغثاء وحقت لها الكلمة العلياء: ﴿ فأمّا الزّبدُ فيَذْهبُ جُفاء وأمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فيَمْكُثُ في الأرْضِ كذلكَ يَضْربُ اللهُ الأمْثالَ ﴾ [2] .

التمهيد الثالث

في أن النظر قانون الاستدلال :

قال جمال الدين الخوارزمي : النظر قانون الاستدلال في الأمور ، وحاكم العدل وقاضي الصدق ، وبرهان الشريعة ، ومحك الحق والباطل ،

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ١٥ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

وبريد المعرفة ، وسلطان الحقيقة ، وترجمان الايمان ، وحجة الأنبياء ومحجة الأولياء ، والسيف القاطع على الأعداء ﴿ شَجَرَة طيِّبة أصْلُها ثَابِتٌ وفَرْعُها في السَّماء ﴾ [1] فالنظر رأس السعادة عند أهلَ الدنيا والدين . فأساس التدبير وصحة الاعتقاد وخلاصة التوحيد في ناصية النظر ، كما أن أساس الكفر والشرك في جانب التقليد والنظر هو الفكر في حال المنظور فيه لمعرفة حكمه ، أو فكر القلب في شاهد يدل على غائب.

فإن قيل ؛ ما الحجة على صحة النظر وأنه مؤد إلى العلم ؟ .

فيقال ؛ إن في العالم حقاً وباطلاً . والناس صنفان : أهل الحق وأهل الباطل ، ولا يتصور معرفة الحق من الباطل إلا بالنظر . والانسان خلق كامل الرأي ، عظيم الفكر درّاكاً للمعاني ، وأوتي الادراك وهو العقل ، فإذا استعمله على وجهه وقع عنده العلم بالمنظور فيه ، كما يقع العلم بالمدركات عند الادراك ، فعند فتح الاجفان يبصر الأشياء ، وعند الاستماع والاصغاء يسمع ، وعند استعمال اللسان يتكلم ، فعند النظر يعلم . ولو كان فاسداً لم يتضمن العلم لأن الفاسد لا يحكم له بقضية صحيحة.

والدليل على أن النظر يوصل إلى العلم — وهو طريق الحقائق — فزع العقلاء اليه إذا التبس عليهم حكم شيء من الغائبات كما يفزعون إلى البصر والسمع في تعريف ما يخفى من أحوال المرئيات والمسموعات فالنظر دليل العلم .

ولما رأينا عقلاء العالم وجهابذة المعاني مهما نزلت بهم نازلة أو حدث لهم حادث من المشكلات المهمات فزعوا إلى النظر ، وتفكروا وتدبروا ليعرفوا وجه الصواب من الخطأ والحق من الباطل . عرفنا بضرورة العقل أن النظر طريق العلم .

فنحن معشر المسلمين نعرف الحق من الباطل بالنظر ، ونعرف الكفر من الايمان بالنظر ، ونعرف الله ورسوله بالنظر ، ونعرف أن التقليد بلا برهان باطل ، ولا معصوم إلا رسول الله ﷺ كل ذلك بالنظر .

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية : ٢٤ .

وبالجملة ؛ فالناس من عهد آدم عليه السلام إلى منقرض العالم إذا نزلت بهم نازلة يرجعون إلى النظر والفكر ، سواء كان في أمر الدين أو الدنيا ويقول بعضهم لبعض : انظروا وتفكروا ، ولا يقولون اسمعوا وتفكروا ، فلولا أنه طريق واضح ومنهج لائح لما فزعوا اليه .

التمهيد الرابع

في مرتبة العقل في مدارك الحقائق :

اتفق الحكماء على أن الانسان إنما يدرك حقائق الأمور بطريقين :

أحدهما ، ما يدركه بالحواس الخمس ، ويشاركه في ادراكها البهائم والحيوانات كلها .

والآخر ، ما يدركه بالعقل [1] ، وهو ما يختص به الانسان ويتميز به عن البهائم ويفضل عليها ، فمن ارتاض بما يفتح عيون عقله وأدمن النظر إلى المعقولات حتى ألفها تبين له شرف المعقولات ، وفضلها على المحسوسات ، وظهر له ظهوراً بيّناً أن المحسوس عند العقل بمنزلة الشيء المموه عند الشيء المحقق ، فأفضى به العقل إلى ما أفضى بغيره من أهل الحكمة ، ووقف به حيث وقفوا ، ولذا كان تعويل القرآن الكريم في الدعوة إلى الاعتراف بوجود الله ووحدته ، إنما هو على تنبيه العقل كما يأتي ، وهذه الدعوة التي جاءها آخر كتاب أُنزل على خاتم نبي أُرسل صلوات الله وسلامه عليه دعوة غير معتادة للناس قبله ، لأنها من أواخر الفلسفة وهي التي مات بحسرتها الحكماء — كما سنفصله — فليس يتحققها العامة ولا من نزل عن رتبة الخواص ، لأنهم إنما يعرفون الحس، فكل ما لا يحصل لهم من هذا الوجه لم يلتفتوا اليه ، وظنوه باطلاً لأنهم لا يرونها إذ كانت العين التي تبصر بها هذه الأشياء ليست موجودة ،

(١) في حواشي الاشارات . أن العقل قوة للنفس تدرك بها المجردات والذهن قوة للنفس مهيأة نحو الاكتساب ، والفكر حركة للنفس إلى المبادىء لترجع منها إلى المطالب ، والنظر هو تحديق العقل نحو المعقول . اه .

وبينهم وبين الحقائق حجب كثيفة من الحواس والحقائق يعدونها أوهاماً ، وأرباب البصائر يرحمونهم كما يرحمون العميان ، ولذلك كانت الأنبياء عليهم السلام تحتملهم وتصبر على تفنيدهم ، وتضرب لهم الأمثال ليسكنوا إلى ممثلها .

وقد برهن علماء الحكمة على أن مدركات العقل أشرف من مدركات الحس وأن الادراكات العقلية أقوى من الادراكات الحسية من عدة أوجه.

منها ؛ أن مدركات الحس ليست إلا كيفيات مخصوصة كالألوان والطعوم والروائح والحرارة والبرودة وأمثالها ، ومدركات العقل هو ذات الباريء تعالى وصفاته والجواهر العقلية والمعارف النظرية وغيرها ، ومن البين أن لا نسبة لأحدهما في الشرف إلى الآخر .

ومنها ؛ إن الادراك العقلي واصل إلى كنه الشيء حتى تميز بين الماهية وأجزائها وأعراضها ، ثم تميز بين الجنس والفصل وجنس الجنس وجنس الفصل بالغة ما بلغت ، وتميز بين الخارج اللازم والمفارق وبين اللازم بوسط وبغير وسط ، وأما الادراك الحسي ، فلا يصل إلا إلى الظاهر المحسوس ، فيكون الادراك العقلي أقوى .

ومنها ؛ أن الادراكات العقلية غير متناهية بخلاف الادراكات الحسية ، ومن هذا — أعني ثبوت أن الادراك العقلي أقوى من الادراك الحسي وإن مدركات العقل أشرف من مدركات الحس — يعلم ثبوت أن اللذة العقلية أكمل من اللذة الحسية ، وتتمة المسألة معروفة في مطولات الحكمة .

التمهيد الخامس

في أن العقل أمّ العلم وأن العلم الناشيء عنه ضروري وكسبي وأنواع كل منهما :

قال الامام الماوردي : الالة ما أوصلت إلى العلم بالمدلول عليه ، والدليل معلوم بالعقل . والمدلول عليه معلوم بالدليل ، فيكون العقل موصلا

إلى الدليل وليس بدليل لأن العقل أصل كل معلوم من دليل ومدلول عليه. ولذلك سمي (أم العلم) ، فصار العقل مستدلاً وإن لم يكن دليلا ، والعلم الحادث عنه ما يتميز به الحق من الباطل والصحيح من الفاسد والممكن من الممتنع ، وهو على ضربين علم اضطرار وعلم اكتساب ، فأما علم الاضطرار فهو ما أدرك ببداهة العقول ، وهو نوعان : حسن ظاهر وخبر متواتر. وعلم الحس متأخر عن العقل وعلم الخبر متقدم عليه ، ولا يفتقر علم الاضطرار إلى نظر واستدلال ، لادراكه ببديهة العقل ويشترك فيه الخاصة والعامة ، ولا يتوجه اليه جحد ولا تحسن المطالبة فيه بدليل لأنه غاية لتناهي النظر .

وأما علم الاكتساب ، فطريقه النظر والاستدلال لأنه غير مدرك ببديهة العقل ، فصح أن يتوجه اليه الاعتّراض فيه بطلب الدليل عليه ، فلذلك لم يتوصل اليه إلا بالنظر والاستدلال وهو على ضربين :

أحدهما ؛ ما كان من قضايا العقول . والثاني ما كان من أحكام السمع .

فأما قضايا العقول فضربان :

أحدهما ما علم استدلالاً بضرورة العقل ، والثاني ما علم استدلالاً بدليل العقل .

فأما المعلوم بضرورة العقل ، فهو ما لا يجوز أن يكون على خلاف ما هو به كالتوحيد ، فيوجب العلم الضروري وإن كان عن استدلال للوصول إليه بضرورة العقل . وأما المعلوم بدليل العقل ، فهو ما يجوز أن يكون على خلاف ما هو به كدعوى النبوة ، فيوجب علم الاستدلال ولا يوجب علم الاضطرار ، لحدوثه عن دليل العقل لا عن ضرورته ، فإذا ثبت أن كلا الضربين مدرك بقضية العقل فيما علم بضرورته من التوحيد أو بدليله من النبوة صار بعد العلم به واجباً . وهل وجب بما صار معلوماً به من قضية العقل أو بالسمع قولان .

التمهيد السادس

في وجوب العناية بالحجج الدامغة لازهاق شبه الفرق الزائغة :

إن أهم ما يهتم به الآن هو بذل غاية الوسع لدحر شُبَه المعطلة [1] ، وقد استبان لكل خبير أنهـا لا تحمل على مسألة نظرية أو بحث فرعي ، ولا تكتفي بهصر أغصان الشجرة ، بل تجد في جد دعائمها الراسخة التي يعتمد عليها كل نظام أدبي ومدني ، وقد أصبحت تخدع بزخارفها بعض الأحداث وحلوم بعض الحمقى ، لذلك مست الحاجة إلى التشمير عن ساعد الجد للفتك بغواياتها المضلة خوف سريان وبائها ، وذلك بتوسيع نطاق مباحث الأدلة التوحيدية والبراهين الأصولية الأولية بما تتناوله الأيدي على طبقاتها وما أبعد ذوي الاستعداد من أهل الذكر عن جدد الصواب إن انقطعوا إلى تفنيد الأهواء القديمة التي مضى أهلها وذهبوا مع أمس الدابر ، وإلى مناقشتهم في برازخهم وقد واراهم التراب ، وانقرضوا في الغابرين ، ولم يتأهبوا لما يجد من فنون إلحاد المعطلين . نعم ، لا مناص عن منازلة كل الغوايات وتفريق الأسهم اليها ، وارسال شهب الحق لرجم شياطينها دحـراً لباطلها وهتكاً لاستارها . إلا أن الأجدر بالعناية هو الأهم فالأهم ، لذا كان الباعث على تأليف هذا الكتاب حمية توقدت في الفؤاد ؛ انتصاراً للحق من أن تغشاه ظلمات ذوي الالحاد قياماً بالمستطاع من واجبات الدفاع ﴿ لِيُنْفِقْ ذو سعة مِنْ سَعَتِه ومَنْ قُدِرَ عليْه رزْقه فَلْيُنْفِقْ ممّا آتاهُ الله لا يُكَلِّفُ الله نفْساً إلاّ ما آتاها ﴾ [2] . قال الامام الغزالي في منهاج العابدين :

فإن قلت ؛ فهل يفترض عليّ أن أتعلم من علم التوحيد ما انقض به ملل الكفر وألزمهم حجة الاسلام ، وانقض به جميع البدع والزمهم حجة السنّة ؟ .

فاعلم أن هذا فرض على الكفاية وإنما يتعين عليك ما تصحح به

(١) وهم الماديون ويسمون دهريين وطبيعيين .
(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٧ .

اعتقادك في أصول الدين لا غير ، وكذلك لا يتعين عليك معرفة فروع علم التوحيد ودقائقه والاتيان على جميع مسائله . نعم إن وردت عليك شبهة في أصول الدين تخاف أن تقدح في اعتقادك ، فيتعين عليك حل تلك الشبهة بما أمكن من الكلام المقنع ، وإياك والمماراة والمجادلة ، فإنه داء محض لا دواء له ، فاحترز منه جهدك ، فإن من ارتداه لا يفلح أبداً إلا أن يتغمده الله تعالى برحمته ولطفه .

ثم اعلم أنه إذا كان في كل قطر داع من دعاة أهل السنة يحل الشبه ويرد على أهل البدع ، ويستقل بهذا العلم ، ويصفي قلوب أهل الحق عن وسواس المبتدعة ، فقد سقط الفرض عمن سواه اه .

وقال الامام النووي في الروضة في مسافة بعد المصرين اللذين يجب أن يكون في كل منهما شخص عالم بتفاصيل الدلائل أربعة أقوال :

الأول ؛ مسافة شهر ، والثاني ؛ اختلاف المطالع كالعراق وخراسان، والثالث ؛ اختلاف الاقليم . والرابع ، مسافة القصر . وبهذا قطع الغزالي وصاحب التهذيب وادعى إمام الحرمين الاتفاق عليه ، والأصح الثاني .

وقال العلامة الدواني : ذكر الفقهاء أنه لا بد أن يكون في كل حد من مسافة القصر شخص يعلم تفصيل الدلائل بحيث يتمكن من ازالة الشبهة والزام المعاندين وارشاد المسترشدين ، ويسمى المنصوب للذب والمنع ، ويحرم على الامام اخلاء مسافة القصر عن مثل هذا الشخص ، كما يحرم عليه اخلاء مسافة العدوى (١) عن العالم بظواهر الشرع والاحكام التي يحتاج اليها العامة .

وقال الامام الاصفهاني في الذريعة ، حق من هو بصدد تعلم علم من العلوم ألاّ يصغي إلى الاختلافات المشككة والشبه الملبسة ما لم يتهذب في قوانين ما هو بصدده لئلا تتولد له شبهة تصرفه عن التوجه فيه ، ولأجل ذلك كره للعامة أن يجالسوا أهل الأهواء والبدع لئلا يغووهم ، فالعامي

(١) هي التي يمكن للمبكر اليها الرجوع إلى بيته ليلا .

إذا خلا بأهل البدع فكالشاة إذا خلت بالسبع . فأما الحكيم فلا بأس بمجالسته إياهم ، فإنه جار مجرى سلطان ذي أجناد وعدة وعتاد لا يخاف عليه العدو حيثما توجه ، ولهذا جوز له الاستماع إلى الشبه ، بل أوجب عليه أن يتتبع بقدر جهده كلامهم ، ويسمع شبههم ليجاهدهم ويدافعهم . فالعالم أفضل المجاهدين الذابين عن الدين ، والجهاد جهادان : جهاد بالبنان وجهاد بالبيان .

ولما تقدم سمى الله تعالى الحجة سلطاناً في غير موضع من كتابه العزيز كقوله — حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام — ﴿ إنِّي آتيكُم بِسُلْطانٍ مُبينٍ ﴾ (١) اه . ومن الآيات في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وجَاهِدْهُم به جِهاداً كبيراً ﴾ (٢) . وكم عهد في السلف من امام آثر الاشتغال بعلم الكلام ، واحتمل للتفرغ له مرارة الأيام .

قال الجاحظ ؛ فكان الفقر والقلة مع إحكام الأصول آثر عندهم من الغنى والكثرة مع احكام الفروع ، فتركوا مساند المناصب مع معرفتهم بأن آلتهم أتم ، وآدابهم أكمل . وألسنتهم أحد ، ونظرهم أثبت ، وحفظهم أحضر ، فلو لم يكن لهم من الفضل إلا أنهم قد رأوا أدبار الدنيا عن علمهم واقبالها إلى غيره لكفى ، فإن من اغتفر الخمول ضناً بالدين ، وآثر الآجلة على العاجلة دل ذلك على رجاحة عقله ، وقلة حرصه ، وسعة صدره ، وشدة زهده ، وفرط سماحته ، وأصالة رأيه ، ومتى سخت نفس امرىء عن هذا الخطب الجليل والأمر الجزيل نزل من الله تعالى بغاية منازل الدين اه .

التمهيد السابع

في تحقيق البحث في أن معرفة الله ضرورية أم نظرية :

اعلم أن للمتكلمين في ذلك مذهبين معروفين ، وقد حاول كثير الجمع بينهما ، فقال بعضهم : إن المسألة ضرورية في الحقيقة لا تحتاج إلى النظر

(١) سورة الدخان ، الآية : ١٩ .
(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٥٢ .

وإنما تحتاج إلى اصلاحها ، وإلى مذكر يوقظ من سنة الغفلة عنها ، كتذكر الموت الذي تقع الغفلة عنه ، وهو ضروري حتى قال تعالى في مخاطبة العقلاء : ﴿ إنّك ميّتٌ وإنّهُم مَيّتُونَ ﴾ (١) . وقال : ﴿ ثمّ إنّكُم بعْدَ ذلك لَمَيّتُونَ ﴾ (٢) . فإقامة الأنبياء ورثتهم الحجج لذلك ، ولإصلاح فطرة من عرضت لهم الشبه فيها وفي بعض صفاته تعالى .

وقال الحكيم أبو حيان : التحقيق أنها ضرورة من ناحية العقل ، واستدلال من ناحية الحس ، وذلك أنه لما كان كل مطلوب من العلم إما أن يطلب بالعقـل في المعقول أو بالحس في المحسوس ، وهذا هو الشاهد والغائب ساغ أن يظن مرة أن معرفة الله اكتساب واستدلال ، لأن الحس يتصفح ويستقرىء بمؤازرة العقل ومظاهرته وتحصيله ، وأن يظن تارة أخرى أنها ضرورة ، ضرورة أن العقل السليم من الآفة البريء من العاهة يحث على الاعتراف بالله تقدس اسمه ، ويحظر على صاحبه جحده وانكاره والتشكك فيه ، لكن ضرورة لائقة بالعقل ، لأن ضرورة العقل ليست كضرورة الحس ، فإن ضرورة الحس فيها جذب واختيار وحمل وإكراه ، فأما ضرورة العقل فهي لطيفة جداً ، لأنه يعظ ويلاطف وينصح ويخوف ، فعلى هذا ، فإن الله تعالى وتقدس معروف عند العقل بالاضطرار لا ريب عنده في وجوده ، ومستدل عليه عند الحس ، فمن استدل ترقى من الجزئيات ، ومن ادعى الاضطرار انحدر من الكليات(٣) ، وكلا الطريقين قد وضح بهذا الاعتبار ، وكفى مؤونة الخبط والاكثار اهـ. ويأتي إن شاء الله الزيادة على ذلك في برهان الفطرة فارتقب .

(١) سورة الزمر ، الآية : ٣٠ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ١٥ .

(٣) هذا نظير قول الفارابي في فصوص الحكم في الفص ١٤ لك أن تلحظ عالم الخلق فترى فيه إمارات الصنعة ولك أن تعرض عنه وتلحظ عالم الوجود المحض ، وتعلم أنه لا بد من وجود الذات وتعلم كيف ينبغي أن يكون عليه الموجود بالذات ، فان اعتبرت عالم الخلق فأنت صاعد ، وإن اعتبرت عالم الوجود المحض فأنت نازل .

بيان مطالب الكتاب

المطلب الاول

في الأدلة الواضحة على وجوده تعالى :

اعلم أن البراهين في هذا المقام تفوق الحصر ، وتفوق السبر ، كما قيل أن لله طرائق (أي للاستدلال عليه) بعدد أنفاس الخلائق .

وفي كلِّ شيء لهُ آيـــةٌ تدلُّ على أنّه واحدُ

وللمتقدمين والمتأخرين في تسديدها وتأييدها مسالك مأثورة ، ومناهج مشهورة ، وقد اقتطفت من نفسائها التليدة ، واستنبطت من عيونها الجديدة ما بلغ خمساً وعشرين دليلا . وذلك من فضل الله علينا إذ هدانا لما هو أوضح سبيلا ، وأقوم قيلا ، وكلما ترقى العلم فتح لمعرفة الحق بدليله أبواب ، وتنوعت لرواد الحقيقة السبل وتسهلت الاسباب .

الدليل الأول

برهان الفطرة :

إنما جعلنا الفطرة برهاناً مع أنها ضرورية — كما تقدم — والضروري قسيم النظري الاستدلالي ، لأنا نعني بالبرهان هنا كل قاطع محتج به ، والضروري وإن لم يبرهن عليه فإنه يبرهن به ويشار اليه .

دليل الفطرة يؤثره كثير على غيره من الأدلة ، ويجعله أولاها ، وأولاها لا لأن الجبلة لها السبق طبعاً فتقدم وضعاً ، لأن ذلك من لطائف

نكت المؤلفين في ترصيف التصنيف ، وهذا المقام مقام حقائق لا خيالات الظرائف والرقائق ، بل لأن الشعور بوجود الله تعالى والاذعان بخالق قادر فوق المادة محيط من وراء الطبيعة أمر غرزي في الانسان مفطور عليه لا تغيره ريب المرتابين ، ولا تزلزله شكوك المشككين ، لأنه عقد في المرء طبع عليه جنانه ، وتأثره لسانه وبيانه ، ومن أثره ما يرى من انطلاق الألسنة في الكوارث ، وما تندفع اليه في الحوادث من اللجوء اليه والتضرع في دفع ما يمسها عليه انطلاقاً وتضرعاً لا يرده راد ، ولا يصده صادّ ، ولو قيد لسان المضطر أو إيف لنطق جنانه ، وأفصحت أشائره وأركانه ، ووجد حرارة تدفعه إلى بارئه ، وتضطره إلى الاستكانة لمنشئه . حالة لا تزعزع رواسيها عواصف الشبهات ، ولا تميل رواسخها رياح التمويهات لا جرم أن هذا الشعور لا صنع فيه للبشر ، ولا كسب فيه بتقليد ولا نظر ، فهو لازم من لوازم الانسانية ، وصفة من صفاتها الذاتية . اشتبك بها اشتباك اللحم بالعظم ، وسرى في قواها سريان الدم في الجسم : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) (٢) .

---

(١) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

(٢) من المعلومات الأولية أن كل من يجد عنده علماً ضرورياً ، فهو مضطر إلى هذا العلم الذي يلزمه لزوماً لا يمكنه دفعه عن نفسه ، وإنه ليس من حيلة لدفعه حتى يقرر نقيضه ونفيه ، لان محاولة من يحاول نفيه نظرية ، ودفع الضروريات بالنظريات غير ممكن ، لأن النظريات غايتها أن يحتج عليها بمقدمات ضرورية ، فالضروريات أصل النظريات ، فلو قدح في الضروريات بالنظريات لكان ذلك قدحاً في أصل النظريات فتبطل الضروريات والنظريات إذ كان قدح الفرع في أصله يقتضي فساده في نفسه ، وإذا فسد في نفسه بطل قدحه فيكون قدحه باطلا على تقدير صحته وعلى تقدير فساده ، فإن صحته مستلزمة لصحة أصله ، فاذا صح كان أصله صحيحاً ، وفساده لا يستلزم فساد أصله إذ قد يكون الفساد منه ، ولو قدح في أصله ، للزم فساده ، وإذا كان فاسداً لم يقبل قدحه فلا يقبل قدحه بحال . هذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة في مسألة الفطرى بعلوه تعالى ومناقشة من يدفعه وهو يجري في بحثنا هنا أيضاً بلى أولى .

قال الامام القزويني في سراج العقول : الدليل على أن معرفة الله واجبة كونها من الأمور التي تصل العقول اليها ، فإن الانسان إذا دهاه أمر وضاقت به المسالك ، فلا بد أن يستند إلى إله يتأله له ، ويتضرع نحوه، ويلجأ اليه في كشف بلواه ، ويسمو قلبه صعوداً إلى السماء ، ويشخص ناظره اليها من حيث كونها قبلة لدعاء الخلائق أجمعين (١) ، فيستغيث بخالقه وبارئه طبعاً وجبلة ، لا تكلفاً وحيلة ، ومثل ذلك قد يوجد في الأطفال والوحوش والبهائم أيضاً ، فإنها ظاهرة الخوف والرجاء .رافعة رؤوسها إلى السماء عند فقدان الكلأ والماء (٢) ، واحساسها بالهلاك والفناء ، هذا كله مركوز في جبلة الحيوانات فضلا عن الانسان العاقل ، وهي الفطرة المذكورة في القرآن والحديث ، ولكن أكثر الناس قد ذهلوا عن ذلك في حالة السرّاء ، وإنما يردون اليه في الضرّاء . قال تعالى : ﴿ وإذا مسّكُم الضُّرّ في البَحْرِ ضَلّ مَنْ تدْعُون إلاّ إيّاه ﴾ (٣) . وأيضاً ؛ فإن عامة الناس في جميع أقطار الأرض دعت أنفسهم إلى الاعتراف بأن لهم خالقاً من غير معلم ، ولا إثبات حجة عندهم ، ولا اصطلاح وقع بين كافتهم من أهل البوادي ، وأقاصي الهند والصين ، وأهل الجزائر الذين لم يبلغهم داع إلى الاسلام ولا إلى الشرك ، فإنهم استغنوا بشهادة أنفسهم على الأعم الأغلب بالخالق جلّ جلاله ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قالَتْ لَهُم رسُلُهم أفي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السّموات والأرْضِ ﴾ (٤) . وهذا كله قريب من

(١) هذه الحيثية من اختراع الخلف المؤولة ، وإلا فالتحقيق إن سر ذلك هو الاعتقاد بأن الله تعالى فوق العالم ، لأنه العلي الأعلى ، وإن كان أحدهم لا يلفظ بلفظ الجهة . لكنهم يعتقدون بقلوبهم ويقولون بألسنتهم ربهم فوق ، فطرة فطروا عليها وجبلوا عليها . قال أبو جعفر الهمداني : ما قال عارف قط ياالله إلا وقبل ان ينطق لسانه يجد في قلبه معنى يطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرةفأنى يمكن دفع هذه الضرورة بحيلة ، وقد أوسع المقال في إثبات العلو ابن رشد رحمه الله في مناهج الأدلة .

(٢) هذا يعلمه من يستقرىء أحوال الحيوانات ويتتبع عجائبها ، وفي علم طبائع الحيوان عجائب وغرائب بحث عنها النقابة في هذا الفن من المتقدمين والمتأخرين . وانظر إلى ما كتب في النمل من مدارك مدهشة مما يؤيد ما هنا والمسألة معروفة في ذلك العلم .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٦٧ .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية : ١٠ .

الضروريات ، ولذلك قال بعضهم : المعرفة ضرورية ، فالناس كلهم يشيرون إلى الصانع جل وعلا [1] ، وإن اختلفت طرائقهم ومللهم ، ولا يجهلون سوى كنه الذات ، ولذلك لم يأت الأنبياء والرسل ليعلموا بوجود الصانع ، وإنما أتوا ليدعوا إلى التوحيد . قال تعالى : ﴿ فاعْلم أنّه لا إلَـه إلاّ الله ﴾ [2] ، وقال سبحانه : ﴿ ولْيَعْلمُوا إنما هُو إله واحدٌ ﴾ [3] . والخلق إنما أشركوا بعد الاعتراف بالموجود تعالى لما اعتقدوه من الشركاء لله تعالى ، أو لنفي واجب من صفاته ، أو لإثبات مستحيل منها ، أو لانكارهم النبوات .

ثم قال القزويني : فإن قيل فلأي شيء سلك أهل الأصول طريق الاستدلال على هذا ؟ فالجواب إنما سلكوا ذلك قطعاً للاطماع التي تشرئب إلى ذلك ، وإلا فهم يعلمون أن ما شهدت به الفطرة أقرب إلى الخلق وأسرع تعقلاً ، لأن الممكن الخارج والحادث الدالّ على محدث موقوفان على النظر الصحيح ، وتلك داعية ضرورية من الناظر . قال تعالى : ﴿ أمْ مَنْ يُجيبُ المضطَرّ إذا دَعَاهُ ﴾ [4] ، ﴿ أمْ مَنْ يبْدأ الخلْق ثمّ يُعيده ﴾ [5] ، ﴿ أمْ مَنْ جَعَلَ الأرْضَ قراراً ﴾ [6] إلى غيرها من الآيات التي كلها استفهامات تقرير كأنه تعالى يقرر عباده على شيء

---

(١) اطلاق الصانع عليه تعالى شائع عند المتكلمين ، أما على مذهب من جوز اطلاق كل وصف اشعر بمدح.أو من جوز اشتقاق الاسامي من الأفعال المنسوبة اليه تعالى فيالقرآن كقوله (صنع الله الذي اتقن كل شيء) أو من جوز ارادة الوصف دون التسمية ، وفي أواخر المقصد الأسنى للامام الغزالي تجويد لهذه المسألة فانظره .

وبعد كتابة هذا نبهني بعض أفاضل الاخوان إلى ما ذكره السيوطي في شرح النقاية من أنه ورد اطلاقه عليه تعالى في حديث صحيح ، وهو ما رواه الحاكم وصححه البيهقي من حديث حذيفة مرفوعاً . إن الله صانع كل صانع وصنعته اهـ والأشبه انه من الصحيح لغيره لا من الصحيح لذاته لعدم تخريجه في الصحيحين والسنن .

(٢) سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، الآية : ١٩ .

(٣) سورة ابراهيم ، الآية : ٥٢ .

(٤) سورة النمل ، الآية : ٦٢ .

(٥) سورة النمل ، الآية : ٦٤ .

(٦) سورة النمل ، الآية : ٦١ .

فطرهم عليه . ومثله قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ (١) وقوله : ﴿ أَفِي اللهِ شَكٌّ ﴾ (٢) . ولهذا ورد في الحديث مرفوعاً : إن الله تعالى خلق العباد على معرفته ، فاجتالهم (حولهم) الشيطان عنها . فما بعثت الرسل إلا للتذكير بتوحيد الفطرة وتطهيره عن تسويلات الشيطان ، بالاستدلالات النظرية والدلائل العقلية ، وبها توجهت التكاليف على العقلاء اهـ . (٣) .

وقال الامام الراغب الاصفهاني في الذريعة : من أشرف ثمرة العقل معرفة الله تعالى ، وحسن طاعته والكف عن معصيته ، فمعرفة الله العامية مركوزة في النفس، وهي معرفة كل أحد أنه مفعول ، وأن له فاعلاً فعله ، ونقله من الاحوال المختلفة ، وهي المشار اليها بقوله تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (٤) وبقوله : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ﴾ (٥) ، وبقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (٦) الآية (٧) ، فهذا القدر من المعرفة

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ١٠ .

(٣) قال الأستاذالامام الشيخ محمد عبده ني تفسير سورة عبس في قوله تعالى (كلا إنها تذكرة) ما مثاله . ثم أراد أن يبين أن الهداية التي يسوقهاالله إلى البشر على ألسن الرسلليست ما يحتال لتقريره في النفوس وإيجاده في القلوب،وإنما هي تذكرة تنبيه الغافل إلى ما غرز الله في فطرته من الخير ، وأودعه غريزته من وجدان معرفة الخالق في الخلقة : فمن صد عنها فانما هو معاند مقاوم لما يدعوه اليه سره ، وتنزع به إليه فما عليك إلا أن تبلغ ما عرفت عن ربك لتذكر به الناسي وتنبه الغافل .

ثم قال: ثم أراد أن يزيد بياناً ويوضح له أن معرفة الله وتوحيده ليسا من العقائد التي يلزم أن تنشأ في القلوب ، بل هما مركوزتان في الجبلة ولا تحتاجان إلا إلى التذكير ، فإذا ذكرت النفس ذكرت،ولا يمنعها عن الاعتراف والاقرار إلا منازعة الهوى،فإذا خالفتسلطانه لم يكن بينها وبين الاقرار إلا أن تشاءه. فقال: (قتل الانسان ما أكفره اهـ).

(٤) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ١٣٨ .

(٦) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .

(٧) الآية من باب التمثيل . قال الزمخشري ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ـ

في نفس كل واحد ، ويتنبه الغافل إذا نبه عليه ، فيعرفه كما يعرف أن من هو مساو لغيره فذلك الغير مساوٍ له ، ومن هذا الوجه قال تعالى : ﴿ ولَئِنْ سألتَهم مَنْ خلَقَ السّمواتِ والأرْضَ ليَقولنّ اللهُ ﴾ [1] وقال في مخاطبة المؤمنين والكافرين . ﴿ ثمّ إذا مسّكُم الضُّرُّ فإليْه تَجْأرونَ ﴾ [2] . وقال بعده : ﴿ ثمّ إذا كشَفَ الضرّ عنْكُم إذا فريقٌ مِنْكُم بربهم يُشْركونَ ﴾ [3] . وأما معرفة الله المكتسبة ، فمعرفة توحيده وصفاته ، وما يجب أن يثبت له من الصفات ، وما يجب أن ينفى عنه . وهذه المعرفة هي التي دعا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام اليها وحثوا عليها ، ولهذا قال لهم ، قولوا لا إله إلا الله ، ولم يدع أحد إلى معرفة الله تعالى ، بل دعا إلى توحيده ، وهذه المعرفة – أعني المكتسبة – على ثلاثة أضرب :

ضرب لا يكاد يدركه إلا نبي وصديق وشهيد ومن داناهم ، وذلك معرفته بالنور الالهي من حيث لا يعتريه شك بوجه ، كما قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنُونَ الّذينَ آمَنُوا بالله ورسُوله ثمّ لم يرْتابُوا ﴾ [4] .

وضرب يدرك بغلبة الظن – أعني الظن الذي يفسره أهل اللغة باليقين – كما قال تعالى : ﴿ الّذينَ يَظُنُّونَ أنّهُم مُلاقُوا ربهم وأنّهُم إليْه راجِعُون ﴾ [5] .

وضرب يدرك بخيالات ومثل وتقليدات وإياه عنى بقوله : ﴿ ومَا يُؤمنُ أكثرَهُم بالله إلاّ وهُمْ مُشْركون ﴾ [6] .

ـــ ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربكم ، وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك . وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام وفي كلام العرب اه .

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٥ .
(٢) سورة النحل ، الآية : ٥٣ .
(٣) سورة النحل ، الآية : ٥٤ .
(٤) سورة الحجرات ، الآية : ١٥ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٤٦ .
(٦) سورة يوسف ، الآية : ١٠٦ .

فالأول ؛ يجري مجرى إدراك الشيء من قريب ، ولهذا قال الله تعالى في وصفهم : ﴿ إنَّ في ذلك لذكْرى لمنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أو الْقى السَّمْعَ وهُوَ شهيدٌ ﴾ (١) .

والثاني ؛ يجري مجرى إدراك الشيء من بعيد ، وقد تعتريه شبهة ولكن تزول بأدنى تأمل ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ اتَّقَوا إذا مَسَّهُم طَائِفٌ منَ الشَّيْطانِ تذكَّروا فإذا هُم مُبصرونَ ﴾ (٢) .

والثالث ؛ يجري مجرى من يرى الشيء من وراء ستر فلا ينفك من شبهات كما أخبر تعالى عمن هذه حالته بقوله : ﴿ إنْ نَظُنُّ إلا ظَنّاً وما نحْنُ بمُسْتَيْقِنين ﴾ (٣) .

ولأجل صعوبة معرفة الله تعالى على الحقيقة حتى يتخلص الانسان من آفات الشرك قال تعالى : ﴿ومَا يُؤمنَ أكثرهم بالله إلاَّ وهُم مشركون﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أنْ أعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً له ديني فاعْبُدوا ما شِئْتُم منْ دونه ﴾ (٥) . وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قالَ لا إله إلاَّ الله مخلصاً دخلَ الجنَّة » (٦) . وغاية معرفة الانسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة ، ويعرف أثر الصنعة فيها ، وأنها محدثة ، وأن محدثها ليس إياها ولا مثلا لها ، بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى ، ولا يصح

---

(١) سورة ق ، الآية : ٣٧ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠١ .

(٣) سورة الجاثية ، الآية : ٣٢ .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ١٠٦ .

(٥) سورة الزمر ، الآية : ١٥ .

(٦) قال ابن حزم في الفصل ص «٣٥٠» ج٣ : وأما الأخبار التي فيها من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، فقد جاءت أحاديث أخر بزيادة على هذا الخبر لا يجوز ترك تلك الزيادة ، وهي قوله عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله واني رسول الله ويؤمنوا بما أرسلت به » . فهذا هو الذي لا إيمان لأحد بدونه . وذكر في ص ١٩١ أن الايمان عقد وقول وعمل عند الجمهور من أهل السنة وأصحاب الآثار ، فانظره .

بقاؤها وارتفاعه ، وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . بل لهذا قال عليه الصلاة والسلام : « تَفَكَّروا في آلاء الله ولا تَتَفَكَّروا في ذات الله » .

ولما كانت معرفة العالم كله تصعب على الانسان الواحد لقصور أفهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التي يعرفها منهم جعل تعالى لكل انسان من نفسه وبدنه عالماً صغيراً أوجد فيه مثال ما هو موجود في العالم الكبير [1] ، ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها في الحضر والسفر والليل والنهار ، فإن نشط وتفرغ للتوسط في العلم نظر في الكتاب الكبير الذي هو العالم ، فيطلع منه على الملكوت ليغزر علمه ، ويتسع فهمه وإلا فله مقنع بالمختصر الذي معه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وفي أنْفُسِكُم أفَلاَ تُبْصِرونَ ﴾ [2]

---

(١) قال الراغب رحمه الله في كتابه تفصيل النشأتين في الباب الرابع مبيناً ما أجمله هنا ما مثاله . وقد جمع الله تعالى في الانسان قوى بسائط العالم ومركباته وروحانياته ، وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته ، فالانسان من حيث أنه بوساطة العالم حصل ومن أركانه وقواه أوجد هو العالم ، ومن حيث أنه صغر شكله وجمع فيه قواه كالمختصر من العالم ، فان المختصر من الكتاب هو الذي قل لفظه واستوفى معناه ، والانسان هكذا هو إذا اعتبر بالعالم ، ومن حيث أنه جعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته ، فهو كالزبد من المخيض ، والدهن من السمسم ، فما من شيء إلا والانسان يشبهه من وجه ، فانه كالأركان من حيث ما فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وكالمعادن من حيث ما هو جسم ، وكالنبات من حيث ما يتغذى ويتربى ، وكالبهيمة من حيث ما يحس ويتوهم ويتخيل ويتلذذ ويتألم ، وكالسبع من حيث ما يحرص ويغضب ، وكالشيطان من حيث ما يغوى ويضل ، وكالملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده ويخافه ، وكاللوح المحفوظ من حيث قد جعله الله مجمع الحكم التي كتبها فيه على سبيل الاختصار ، فقد ذكر بعض الحكماء : في بدن الانسان أربعة آلاف حكمة وفي نفسه قريباً من ذلك ، وكالقلم من حيث ما يثبت بكلامه صور الأشياء في قلوب الناس ، كما أن القلم يثبت الحكم في اللوح المحفوظ ولكون الانسان من قوى مختلفة قال الله تعالى : (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج) أي مختلطةمن قوى أشياء مختلفة ولكون العالم والانسان متشابهين إذا اعتبرا . قيل : الانسان عالم صغير والعالم انسان كبير اه .

(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٢١ .

ولشرف متأملي ذلك قال تعالى : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السّموات والأرْض واختلافِ اللّيلِ والنّهار لآيات لأولي الألْباب ﴾ [1] الآية . فنبه بمدحهم حيث قالوا : ﴿ ربّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانك ﴾ [2] . إنهم عرفوا المقصود بخلقه ، وذلك آخر الابحاث لأن الأبحاث أربعة . بحث عن وجود الشيء بهل هو ، وبحث عن جنسه بما هو ، وبحث عما يباين به غيره بأي شيء هو ، وبحث عن الغرض بلم هو ، وهذه الأبحاث يبتني بعضها على بعض ، فلا يصح معرفة الثاني إلا بمعرفة الأول ، ولا معرفة الثالث إلا بمعرفة الثاني ، ولا معرفة الرابع إلا بمعرفة الثالث ، وقولهم : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ يقتضي أنهم عرفوا الأبحاث الأربعة . فدلت هذه الآية على أن البحث الذي يؤدي إلى معرفة حقائق الموجودات التي تتضمن معرفة البارىء تعالى هو من العلوم الشريفة، بخلاف قول الصم البكم العمي الذين لم يجعل الله لهم نوراً حيث بدّعوا من اشتغل بمعرفة ذلك . اهـ . كلامه في الباب الثامن .

وقرر أيضاً شأن الفطرة على التوحيد في الباب السابع عشر في بحث كون العلوم مركوزة في نفوس الناس وعبارته ، نفس الانسان معدن الحكمة والعلوم وهي مركوزة فيها بالفطرة مجعولة لها بالقوة كالنار في الحجر ، والنخل في النواة ، والذهب في الحجارة ، وكالماء تحت الأرض . لكن كما أن من الماء ما يجري من غير فعل بشري ، ومنه ما يعاين تحت الأرض لكن لا يتوصل إليه إلا بدلو ورشاء ، ومنه ما هو كامن يحتاج في استنباطه إلى حفر وتعب شديدين ، فإن عنى به أدرك وإلاّ بقي غير منتفع به . كذا العلم في نفوس البشر منه ما يوجد من غير تعلم بشري ، وذلك كحال الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم تفيض عليهم المعارف من جهة الملأ الأعلى ، ومنه ما يوجد بأدنى تعلم . ومنه ما يصعب وجوده كحال أكثر عوام الناس ، ولكون العلوم مركوزة في النفوس قال الله تعالى : ﴿ وإذْ أخذَ ربّك منْ بني آدمَ منْ ظُهُورهم ذُريّتهم

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

وأشْهدهـُم على أنْفـُسهم ألَـسْتُ بربـِّكـُم قالـُوا بلى ﴾ [1] ، فأقروا أن الله هو الذي يربهم ويغذيهم ويرزقهم ويكملهم من الطفولية ، فهذا إقرار نفوسهم كلهم بما ركز في عقولهم ، فأما الاقرار باللسان فلم يحصل من كلهم ، وكذا المعنى بقوله : ﴿ ولـَئِـنْ سألـَتـْهـُم مـَنْ خـَلـَقـَهـُم ليقـُولـُنَّ الله ﴾ [2] . أي لئن اعتبرت أحوالهم لرأيت نفوسهم وجوارحهم تنطق بذلك وعلى ذلك قوله : ﴿ فاقـِمْ وجـْهكَ للدِّينِ حنيفاً ﴾ [3] الآية . فبين أن الدين الحنيف وهو المستقيم قد فطر الناس عليه أي خلقهم عالمين به ، فإن المعاندين و إن قصدوا تبديله وازالة الناس عنه لم يقدروا عليه ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ صبْغة الله ومـَنْ أحْسـَنُ مـِنَ الله صبْغةً ﴾ [4] وقال تعالى فيمن قويت في قلوبهم الصبغة والفطرة : ﴿ أولئكَ الـّذينَ كـُتِـبَ في قـُلـُوبهم الايمانُ ﴾ [5] . فسمى ذلك كتاباً ، وقال النبي ﷺ : « كلّ مولود يولد على الفطرة » .

وأما هذه الشهادة المأخوذة عليهم فالناس فيها ضربان : ضرب أجالوا خواطرهم حتى أدركوا حقائقها ، فصاروا كمن حملوا شهادة فنسوها ثم تذكروها ، ولذلك قال في غير موضع ﴿ لعلـّهـُم يذ ّكـّرون﴾ [6] ﴿ وليتـّذكـّر أولـُو الألباب ﴾ [7] . وضرب اهملوا أنفسهم ولم يشتغلوا بتذكر ما حملوا من الشهادة ، كما قال تعالى : ﴿وإذا ذُكـِّروا لا يذْكرون﴾ [8] فهم في الجهالة يتسكعون ، وعلى هذا حثنا الله تعالى على التذكر بقوله : ﴿ واذكـُروا نعـْمة الله عـَلـَيـْكـُم وميثـَاقه الـّذي واثـَقـَكـُم به ﴾ [9] . وقال : ﴿ ولـَقـَدْ يسّرنا القـُرآن للذكر فهلْ من مذكـّر ﴾ [10] . أي يسرنا القرآن ليكون سبباً تتوصلون به إلى تذكر ما سبق من عهدكم ؛ والتذكر على أضرب :

---

(1) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .
(2) سورة الزخرف ، الآية : ٨٧ .
(3) سورة الروم ، الآية : ٣٠ .
(4) سورة البقرة ، الآية : ١٣٨ .
(5) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .
(6) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٠ .
(7) سورة ص ، الآية : ٢٩ .
(8) سورة الصافات ، الآية : ١٣ .
(9) سورة المائدة ، الآية : ٧ .
(10) سورة القمر ، الآية : ٣٢ ، ٤٠ .

الأول ؛ أن يكون باللسان عن صورة ما حصل في القلب .

الثاني ؛ أن يكون بالقلب لصورة حصلت عن شيء معهود ، إمّا من البصر أو البصيرة أو غيره من المشاعر .

الثالث ، أن يكون عن صورة مضمنة بالفطرة في الانسان . وهو المشار اليه بهذه الآيات ، ومن هذا قال الحكماء : التعليم ليس يجلب إلى الانسان شيئاً من خارج في الحقيقة ، وإنما يكشف الغطاء عما حصل في النفس فيبرزه بجلائه ، فمثله كمثل الحافر المستنبط الماء من تحت الأرض وكالصيقل الذي يبرز الجلاء في المرآة ، وهذا ظاهر لمن نظر بعين عقله اهـ.

وحكى الزمخشري في ربيع الأبرار ، عن علي رضي الله عنه أنه قيل له : هل رأيت ربك ؟ قال : أفأعبد ما لا أرى ؟ فقيل : كيف تراه ؟ قال : لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان .

الدليل الثاني

طريق العناية :

قال الحكيم ابن رشد في مناهج الأدلة [1] الذي قصده الشرع من معرفة العالم هو أنه مصنوع لله تبارك وتعالى ومخترع له ، وإنه لم يوجد عن الاتفاق ومن نفسه ، فالطريق التي سلك الشرع بالناس في تقرير هذا الأصل هي من الطرق البسيطة المعترف بها عند الجميع [2] ، وذلك

---

(١) كتاب شهير نقل عنه الامام ابن القيم في كتابه اجتماع الجيوش الاسلامية وأثنى على مؤلفه بعد أن أثر عنه مقالته في العلوم بقوله . هذا كلام فيلسوف الاسلام الذي هو أخبر بمقالات الفلاسفة والحكماء وأكثر اطلاعاً عليها من ابن سينا ونقلا لمذاهب الحكماء وكان لا يرضى بنقل ابن سينا ويخالفه نقلا وبحثاً اهـ .

(٢) يؤخذ المراد بكونها بسيطة مما ذكره في موضع آخر من الكتاب نفسه وعبارته : من تأمل أجناس الأدلة المنبهة في الكتاب العزيز على معرفة وجود الصانع وجدها جمعت وصفين ، أحدهما كونها يقينية ، والثاني كونها بسيطة غير مركبة أعني قليلة المقدمات فتكون نتائجها قريبة من المقدمات الأول اهـ .

أنه إذا تؤملت الآيات التي تضمنت هذا المعنى وجدت تلك الطرق هي طريق العناية ، وهي إحدى الطرق الدالة على وجود الخالق تعالى ، وذلك أنه كما أن الانسان إذا نظر إلى شيء محسوس ، فرآه قد وضع بشكل ما وقدر ما ، ووضع ما موافق في جميع ذلك للمنفعة الموجودة في ذلك الشيء المحسوس والغاية المطلوبة ، حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل ، أو بغير ذلك الوضع ، أو بغير ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك المنفعة علم على القطع . إن لذلك الشيء صانعاً صنعه ولذلك وافق شكله ووضعه وقدره تلك المنفعة ، وأنه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الأشياء لوجود المنفعة بالاتفاق . مثال ذلك أنه إذا رأى إنسان حجراً موجوداً على الأرض ، فوجد شكله بصفة يتأتى منها الجلوس ، ووجد أيضاً وضعه كذلك وقدره علم أن ذلك الحجر إنما صنعه صانع ، وهو الذي وضعه كذلك وقدره في ذلك المكان ، وأما متى لم يشاهد شيئاً من هذه الموافقة للجلوس ، فإنه يقطع أن وقوعه في ذلك المكان ووجوده بصفة ما هو بالاتفاق ومن غير أن يجعله هنالك فاعل ، كذلك الأمر في العالم كله ، فإنه إذا نظر الانسان إلى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي هي سبب الأزمنة الأربعة ، وسبب الليل والنهار ، وسبب الأمطار والمياه والرياح ، وسبب عمارة أجزاء الأرض ووجود الناس وسائر الكائنات من الحيوانات والنبات ، وكون الأرض موافقة لسكنى الناس فيها وسائر الحيوانات البرية ، وكذلك الماء موافقاً للحيوانات المائية ، والهواء للحيوانات الطائرة ، وأنه لو اختل شيء من هذه الخلقة والبنية لاختل وجود المخلوقات التي هاهنا علم على القطع أنه ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة التي في جميع أجزاء العلم للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق ، بل ذلك من قاصد قصده ومريد أراده وهو الله عز وجل ، وعلم على القطع أن العالم مصنوع ، وذلك أنه يعلم ضرورة أنه لم يمكن أن توجد فيه هذه الموافقة لو كان وجوده من غير صانع ، فأما أن هذا النوع من الدليل قطعي وأنه بسيط فظاهر من هذا الذي كتبناه ، وذلك أن مبناه على أصلين معترف بهما عند الجميع ؛ احدهما أن العالم بجميع أجزائه وجد موافقاً لوجود الانسان ولوجود جميع الموجودات التي هاهنا ، والأصل الثاني

إن كل ما يوجد موافقاً في جميع أجزائه لفعل واحد ومسدداً نحو غاية واحدة ، فهو مصنوع ضرورة ، فينتج من هذين الأصلين بالطبع أن العالم مصنوع وأن له صانعاً . وذلك أن دلالة العناية تدل على الأمرين معاً ، ولذلك كانت أشرف الدلائل الدالة على وجود الصانع .

وأما أن هذا النوع من الاستدلال هو النوع الموجود في الكتاب العزيز ، فذلك يظهر من غير ما آية من الآيات التي يذكر فيها بدء الخلق ، وتدل على الصانع والمصنوع . هذا ما قرره الحكيم ابن رشد وبعد أن جود الكلام فيه قال : لا شيء أدل على الصانع من وجود موجود بهذه الصفة في الأحكام [1] ، ثم قال : فقد تبين من هذا أن الطرق الشرعية التي نصبها الله لعباده ليعرفوا منها أن العالم مخلوق ومصنوع هي ما يظهر فيه من الحكمة والعناية بجميع الموجودات التي فيه ، وبخاصة الانسان وهي طريقة نسبتها في الظهور إلى العقل نسبة الشمس في الظهور إلى الحس اه .

ولقد صدق عليه الرحمة فإن العقل السليم لا يخامره أدنى ريب في ظهور ذلك كما لا يخالجه ارتياب في ظهور الشمس ليس دونها حجاب .

وبالجملة ؛ فكما أنا إذا رأينا مسكناً مهيأً للسكنى فيه على القوانين الموافقة ، لتوالي الفصول والأمطار علمنا أن حكيماً هيأه وأعده للسكنى ، وكما إذا رأينا مركباً سائراً بالبخار نحو نقطة مقصودة علمنا أن قائداً يقوده ، فهكذا كل من نظر إلى هذه الدنيا وشاهد ما هي عليه من النظام والترتيب المحكم وارتباط العلل بمعلولاتها ، وخدمة بعضها بعضاً علم أن العالم مجموع مبدعات فائقة المدارك والمشاعر أبدعها قادر حكيم وحي قيوم ، وإلا فلو جاز أن يكون مثل هذا بغير صانع ولا موجد لجاز أن يصح دور معمورة وأسفار مكتوبة وثياب منسوجة وحلى مصنوعة بغير بانٍ ولا كاتب ولا ناسج ولا صائغ ، وهو محال ببديهة العقل ، فما الذي خصّ

(١) قال الغزالي في المضنون الكبير ، يقال لهذا الدليل العقلي (وهو شهادة كل مخلوق على خالقه وموجده ، كشهادة البناء على الباني والكتابة على الكاتب (لسان الحال والمتكلمون يقولون: هذه دلالة الدليل على المدلول ، والحمقى من الناس لا يعرفون هذه المرتبة ولا يقرون بها اه .

أحسن الخالقين بأن يكفر ولا يدل عليه اثر صنعته العجيبة وخلقته البديعة : ﴿ تعالى اللهُ عمّا يقُول الظّالمُون علُوّاً كبيراً ﴾[1] . و ﴿ قُتِلَ الإنْسان ما أكْفره ﴾ [2] . وما ألطف قول أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في بعض محامده ، الحمد لله الذي بطن (أي علم) خفيات الأمور . ودلت عليه أعلام الظهور . وامتنع على عين البصير فلا عين من لم يره تنكره . ولا قلب من أثبته يبصره . لم يطلع العقول على تحديد صنعته ، ولم يحجبها عن واجب معرفته ، فهو الذي تشهد له أعلام الوجود . على إقرار قلب ذي الجحود .

الدليل الثالث

دليل الاختراع [3] :

قال الحكيم ابن رشد : الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها إذا استقرىء الكتاب العزيز وجدت تنحصر في جنسين :

أحدهما ؛ طريق الوقوف على العناية بالانسان وخلق جميع الموجودات من أجلها ولنسم هذه (دليل العناية) .

والطريقة الثانية ؛ ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والادراكات الحسية والعقل ، ولنسم هذه (دليل الاختراع) .

فأما الطريقة الأولى ؛ فتنبني على أصلين : أحدهما أن جميع الموجودات التي هاهنا موافقة لوجود الانسان ، والأصل الثاني أن هـذه الموافقة هي ضرورة من قبـل فاعل قاصـد لذلك مريد إذ ليس يمكن أن

(١) سورة الاسراء ، الآية : ٤٣ .
(٢) سورة عبس ، الآية : ١٧ .
(٣) هذه التسمية لابن رشد في المناهج .

تكون هذه الموافقة بالاتفاق ، فأما كونها موافقة نوجود الانسان ،فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار ، والشمس والقمر لوجود الانسان ، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له ، والمكان الذي هو فيه أيضاً وهو الأرض، وكذلك تظهر أيضاً موافقة كثير من الحيوان له والنبات والجماد وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار ، وبالجملة ؛ الأرض والماء والنار والهواء وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء البدن وأعضاء الحيوان . أعني كونها موافقة لحياته ووجوده ، وبالجملة فمعرفة ذلك أعني منافع الموجودات داخلة في هذا الجنس ، ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات .

وأما دلالة الاختراع فيدخل فيها وجود الحيوان كله ووجود النبات ، ووجود السموات . وهذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس .

أحدهما ؛ أن هذه الموجودات مخترعة وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ تدْعُونَ من دُونِ الله لَنْ يخْلقُوا ذُباباً ولَوْ اجْتمعُوا لهُ ﴾ (١) الآية . فإنّا نرى أجساماً جمادية ، ثم تحدث فيها الحياة ، فنعلم قطعاً أن هاهنا موجداً للحياة ومنعماً بها ، وهو الله تبارك وتعالى . وأما السموات فنعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما ها هنا ومسخرة لنا ، والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة .

وأما الأصل الثاني ؛ فهو أن كل مُخْتَرَع فله مُخْترِع ، فيصح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلا مخترعاً له . وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات ، ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات ، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع ، وإلى هذا الاشارة بقوله تعالى : ﴿ أوَلَمْ ينْظُروا في مَلَكوت

(١) سورة الحج ، الآية : ٧٣ .

السّموات والأرْض وما خلَق الله من شيء ﴾ [١] . وكذلك أيضاً من تتبع معنى الحكمة في موجود موجود . أعني معرفة السبب الذي من أجله خلق ، والغاية المقصودة به كان وقوفه على دليل العناية أتم . فهذان الدليلان هما دليلا الشرع .

وأما أن الآيات المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه في الكتاب العزيز هي منحصرة في هذين الجنسين من الأدلة ، فذلك بيّن لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى ، وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع . إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية . وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع . وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً .

فأمّا الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط ، فمثل قوله تعالى : ﴿ ألَمْ نَجْعل الأرضَ مِهاداً والجبالَ أوْتاداً ﴾ [٢] إلى قوله ﴿ وجنّاتٍ ألفافاً ﴾ . ومثل قوله ﴿ تبَاركَ الذي جعَلَ في السّماء بُروجاً وجعَلَ فيها سِراجاً وقمَراً مُنيراً ﴾ [٣] . ومثل قوله تعالى : ﴿ فلْينْظُرِ الإنْسانُ إلى طعَامه ﴾ [٤] . الآية ومثل هذا كثير في القرآن .

وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط ، فمثل قوله تعالى : ﴿ فلْينظُرِ الانْسانُ ممّا خُلِقَ خُلِقَ من ماء دافقٍ ﴾ [٥] . ومثل قوله تعالى : ﴿ أفلا ينْظُرونَ إلى الابلِ كيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [٦] الآية . ومثل قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتمِعُوا لَه أنّ الّذينَ تَدْعُونَ من دُونِ الله لن يخْلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ [٧] . ومن هذا قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم : ﴿ إنّي وجّهْتُ وجْهي للذي فَطرَ السّموات والأرضَ ﴾ [٨] . إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٢) سورة النبأ ، الآية : ٦ .
(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٦١ .
(٤) سورة عبس ، الآية : ٢٤ .
(٥) سورة الطارق ، الآية : ٥ .
(٦) سورة الغاشية ، الآية : ١٧ .
(٧) سورة الحج ، الآية : ٧٣ .
(٨) سورة الأنعام ، الآية : ٧٩ .

وأما الآيات التي تجمع الدلالتين فهي كثيرة أيضاً ، بل هي الأكثر مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها النّاسُ اعبُدوا ربّكُم الذي خلَقَكُم والّذينَ منْ قَبْلكُم ﴾(١) إلى قوله : ﴿فَلاَ تَجْعلوا لله أنْداداً وأنْتُم تَعْلمُونَ ﴾(٢) ، فإن قوله : ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم ﴾ . تنبيه على دلالة الاختراع ، وقوله : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسّماء بناء ﴾(٣) . تنبيه على دلالة العناية ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ وآيةٌ لهُمُ الأرضُ الميْتةُ أحْيَيْناها وأخرجْنا منْها حبّاً فمنْه يأكُلُون ﴾(٤) وقوله تعالى : ﴿ الّذينَ يتَفكّرون في خلْقِ السّموات والأرض ربّنا ما خلَقْتَ هذا باطلاً سُبحانك فقِنا عذابَ النّار ﴾(٥) .

وأكثر الآيات الواردة في هذا المعنى يوجد فيها النوعان من الدلالة . فهذه الطريق هي الصراط المستقيم التي دعا الله الناس منها إلى معرفة وجوده ، ونبههم على ذلك بما جعل في فطرهم من إدراك هذا المعنى ، وإلى هذه الفطرة الأولى المغروزة في طباع البشر الاشارة بقوله تعالى : ﴿ وإذْ أخذَ ربّك منْ بني آدمَ منْ ظُهُورهم ذرّيّتهم ﴾(٦) إلى قوله ﴿ قالُوا بلى شَهِدْنا ﴾ ، ولهذا قد يجب على من كان وكده طاعة الله في الايمان به ، وامتثال ما جاءت به رسله أن يسلك هذه الطريقة ، حتى يكون من العلماء الذين يشهدون لله بالربوبية مع شهادته لنفسه وشهادة ملائكته له ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ شَهِدَ اللهُ أنّه لا إله إلاّ هُوَ والملائِكةُ وأولوا العلمِ قائماً بالقِسْط لا إله إلاّ هو العزيزُ الحكيم﴾(٧) . ومن الدلالات الموجودات من هاتين الجهتين عليه هو التسبيح المشار اليه في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإنْ منْ شيء إلاّ يُسَبّحُ بحَمْده ولكنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبيحهم ﴾(٨) ، فقد بان من هذه الأدلة أن الدلالة

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٢ .
(٣) سورة يس ، الآية : ٣٣ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .
(٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .
(٧) سورة الاسراء ، الآية : ٤٤ .
(٨) قال الفارابي في فصوص الحكم ٢٥ . صلت السماء بدورانها والأرض برجحانها والماء بسيلانه والمطر بهطلانه وقد تصلي له ولا تشعر واذكر الله أكبر

على وجود الصانع منحصرة في هذين الجنسين . دلالة العناية ودلالة الاختراع ، وتبين أن هاتين الطريقتين هما باعيانهما طريقة الخواص – وأعني بالخواص العلماء – وطريقة الجمهور ، وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل أعني أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية ، والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس ، وأما العلماء فيزيدون على ما يدرك من هذه الأشياء بالحس ما يدرك بالبرهان (أعني من العناية والاختراع) ، حتى لقد قال بعض العلماء أن الذي أدركه العلماء من معرفة أعضاء الانسان والحيوان هو قريب من كذا وكذا آلاف منفعة ، وإذا كان هذا هكذا، فهذه الطريقة الشرعية والطبيعية ، وهي التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب . والعلماء ليس يفضلون الجمهور في هذين الاستدلالين من قبل الكثْرة فقط ، بل ومن قبل التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه ، فإن مثال الجمهور في النظر إلى الموجودات مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها ، فإنهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط ، وأن لها صانعاً موجوداً . ومثلُ العلماء في ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التي عنده علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة فيها ، ولا شك أن من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال هو أعلم بالصانع من جهة ما هو صانع من الذي لا يعرف من تلك المصنوعات إلا أنها مصنوعة فقط . وأما مثال الدهرية في هذا الذين جحدوا الصانع سبحانه ، فمثال من أحسن مصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذي يحدث من ذاته اه . كلام ابن رشد .

الدليل الرابع

الافتقار إلى سبب الاسباب [١] :

الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات ، أو من الأفعال البشرية ، أو الحيوانية ، فلا بد لها من علل وأسباب متقدمة عليها بها تقع

(١) من رأي ابن خلدون أن هذا الدليل أقرب الطرق والمآخذ العقلية لمعرفة الخالق تعالى.

في مستقر العادة وعنها يتم كونها ، واليها تفتقر افتقار الهواء إلى الشمس في اضاءته والماء إلى مسخن في حرارته . وكل واحد من هذه العلل والأسباب حادث أيضاً ، فلا بد له من علل وأسباب أُخر . ولا تزال تلك الأسباب مرتقية حتى تنتهي إلى مسبب الاسباب وموجدها وخالقها .

قال ابن رشد : الموجودات الممكنة لا بد لها من علل تتقدم عليها ، فإن كانت العلل ممكنة لزم أن يكون لها علل ، ومرّ الأمر إلى غير نهاية ، وإن لم يكن هنالك علة لزم وجود الممكن بلا علة وذلك مستحيل ، فلا بد أن ينتهي الأمر إلى علة ضرورية . فإذا انتهى الأمر إلى علة ضرورية لم تخل هذه العلة الضرورية أن تكون ضرورية بسبب أو بغير سبب ، فإن كانت بسبب سئل أيضاً في ذلك السبب ، فأما أن تمر الأسباب إلى غير نهاية ، فيلزم بأن يوجد بغير سبب ما وضع أنه موجود بسبب وذلك محال ، فلا بد أن ينتهي الأمر إلى سبب ضروري بلا سبب أي بنفسه ، وهذا هو واجب الوجود ضرورة اه .

وقرر بعضهم هذا الدليل بأسلوب آخر فقال : من المشاهد أنّا نرى في المحسوسات ترتباً بين العلل المؤثرة ، وليس يصح بل لا يمكن أن يكون سبب مؤثراً لنفسه للزوم وجوده قبل نفسه ، وهذا محال. والتسلسل ممتنع في العلل المؤثرة لأن الأول من أفراد العلل المترتبة هو علة الوسط والوسط هو علة الأخير سواء كان ثمة وسط واحد أو أوساط كثيرة ، لكنه إذا ارتفعت العلة ارتفع المعلول ، فإنه لو لم يكن في العلل المؤثرة أول لم يكن فيها أخير ولا وسط ولو تسلسلت العلل لم تكن علة أولى مؤثرة ، فلم يكن معلول أخير ولا علل مؤثرة متوسطة ، وهذا بيِّن البطلان ، فلا بد إذاً من إثبات علة مؤثرة ، وهي الخالق تبارك وتعالى .

وقال ابن رشد أيضاً : أما الفلاسفة فإنهم اعتبروا الاسباب المحسوسة حتى انتهت إلى الجرم السماوي ، ثم اعتبروا الاسباب المعقولة ، فأفضى بهم الأمر إلى موجود ليس بمحسوس هو علة ، ومبدأ للموجود المحسوس،

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وكَذلكَ نُري إبْراهيمَ ملَكوت السّموات والأرْضِ وليَكونَ منَ المُوقنينَ ﴾ [1] .

وقال الفارابي في فصوص الحكم : كل ما لم يكن فكان فله سبب؛ ولن يكون المعدوم سبباً لحصوله في الوجود ، والسبب إذا لم يكن سبباً ، ثم صار سبباً فلسبب صار سبباً ، وينتهي إلى مبدأ تترتب عنه أسباب الأشياء على ترتيب علمه بها ، فلن تجد في عالم الكون طبعاً حادثاً أو اختياراً حادثاً إلا عن سبب ويرتقي إلى سبب الاسباب ، ولا يجوز أن يكون الانسان مبتدئاً فعلاً من الأفعال من غير استناد إلى الاسباب الخارجية التي ليست باختياره ، وتستند تلك الأسباب إلى الترتيب ؛ والترتيب يستند إلى التقدير ، والتقدير يستند إلى القضاء ، والقضاء ينبعث عن الأمر وكل شيء مقدر اه.

تنبيه :

كثيراً ما يقع في كتب الكلام وعلى ألسنة المحتجين كلمة العلة مراداً بها معطى الوجود ، وهو الخالق تعالى مشاكلة أو مجاراة للخصوم ، وأصلها من استعمال الحكماء لها وغلبتها في كلامهم فسرت للمتكلمين الباحثين في العلم الالهي ومع صحة معناها المذكور ، فإنّا لا نستجيز اطلاقها عليه تعالى لا مشاكلة أو مجاراة ، كما قلنا لأن له الأسماء الحسنى .

الدليل الخامس

طريق الحركة [2] :

إن علماء الهيئة المحققين مجمعون على كروية الأرض [3] وانعزالها في الفراغ وعدم ارتكازها على شيء غير قدرة الله تعالت أسماؤه ، وإنها

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٧٥ .

(٢) من رأي الحكيم ابن مسكويه أن الاستدلا ل بالحركة على الصانع ظهر الأشياء وأولاها .

(٣) ترى الفخر الرازي يشير إلى كروية الأرض في مواضع من تفسيره منها في تفسير آية : (وهو الذي مدالأرض) وآية: (إن فيخلق السموات والأرض) وكذلك الامام ابن حزم —

هي التي تدور حول الشمس ، وأن لها نوعين من الحركة تعملهما في آن واحد . حركة حول نفسها وهي المسماة بالحركة اليومية ، وهي عبارة عن دوران الأرض حول نفسها من المغرب إلى المشرق في مدة أربع وعشرين ساعة مرة واحدة [١] ، وحركة حول الشمس وهي المسماة بالحركة السنوية وهي عبارة عن دوران الأرض حول الشمس من المغرب إلى المشرق أيضاً في مدة سنة كاملة [٢] .

وكذلك السيارات كلها تدور حول الشمس ، والشمس ثابتة بالنسبة إلى هذه السيارات ولكنها تحملها وتدور معها في هذا الفضاء الواسع حول مركز آخر بعيد جداً كما بسط في محله .

قالوا ؛ والسكون المطلق لا يعلم وجوده في العالم فإن جميع الأماكن وجميع الكرات السماوية مشاهد تحركها ، ولا يعرف السكون المطلق إلا للفراغ اللانهائي .

وبالجملة ؛ فمن المحقق الثابت بالحس أن في عالمنا هذا أشياء متحركة

– في الفصل فقد عقد مطلباً لبيان كروية الأرض . قال في مقدمته ، لم ينكر أحد من أئمة المسلمين رضي الله عنهم تكوير الأرض ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة ، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها الخ . وكذلك العضد في مواقفه أوسع البحث فيه ، ومثل هذا مما لا يصدم أصلا من أصول الدين كما بينه حجة الاسلام في تهافت الفلاسفة . ولسنا بصدد البحث في ذلك حتى نوسع المقال فيه ، وإنما جاء عفواً وإلا فقد تكفل كثير من المحققين في بيان مقارنة الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية وألفوا فيه مؤلفات وكذا في تطبيق الوحي على علومهم وإن كان كثير من قواعدها لم يثبت بعد ثبوتاً لا يقبل الجدال . وقد قال القاضي الوزير جمال الدين ابن القفطي ، علوم الهيئة طريق إلى أين ومعرفة قدرة الله عز وجل فيما أحكمه ودبره .

(١) ويتكون منها الليل والنهار .

(٢) وتتكون منها الفصول الأربعة ، يقول بعضهم . قد يصعب على المتعلم تصور تينك الدورتين ما لم تلق أمامه بطيخة ، أو ما شابهها القاء دولاباً في حوض من الماء ، فانها بالطبع تدور دورتين : دورة دائمية حول نفسها ودورة حول ذلك الحوض إلى أن تعود إلى الموضع الذي ابتدأت منه ، وبذلك يستضيء فكر بنور التمثيل المحسوس ، ويعلم كنه تينك الدورتين اللتين يتكون من الأولى منهما الليل والنهار ، ومن الثانية الفصول الأربعة اهـ .

وكل متحرك فهو يتحرك من آخر لأنه ليس شيء يتحرك إلا باعتبار كونه بالقوة إلى ما يتحرك اليه . وإنما يحرك شيء ما باعتبار كونه بالفعل إذ ليس التحريك سوى إخراج شيء من القوة إلى الفعل ، وإخراج شيء إلى الفعل لا يمكن أن يتم إلا بموجود بالفعل ، كما أن الحار بالفعل كالنار يجعل الخشب الذي هو حار بالقوة حاراً بالفعل وبذلك يحركه ويغيره ، لكن ليس يمكن لشيء واحد بعينه أن يكون بالقوة والفعل معاً باعتبار واحد ، بل باعتبارات مختلفة لأن ما هو حار بالفعل ليس يمكن أن يكون من هذه الجهة حاراً بالقوة أيضاً ، بل هو من هذه الجهة بارد بالقوة ، فإذاً ليس يمكن أن شيئاً يكون محركاً ومتحركاً أي محركاً لنفسه باعتبار واحد ومن جهة واحدة ، فإذاً كل ما يتحرك فلا بد أن يتحرك من آخر ، وإذا كان هذا الآخر متحركاً ، فلا بد أن يتحرك من آخر أيضاً وهذا من آخر ، وهنا لا يجوز التسلسل إلى غير النهاية وإلا لم يكن محرك أول ، فلم يكن محرك آخر لأن المحركات الثانية لا تحرك إلا بما هي متحركة من المحرك الأول كما أن العصا لا تحرك إلا بما هي متحركة من اليد ، فإذاً لا بد من الانتهاء إلى محرك أول غير متحرك من آخر وهذا الذي يعقله الجميع أنه الله جل جلاله .

قال بعضهم : إن الحركة وهي انتقال من حيز إلى حيز من لوازم الحدوث ضرورة ، لأن الحركة لا تكون من نفس المادة ، لأن المادة ليس لها حركة من ذاتها ، وإلا لكان لها قدرة وإرادة ، فلا بد لها من سبب يحركها خارج عنها هو مبدأ لوجود جميع الأشياء وبه قوام كل جوهر ، ووجود كل موجود ، وذلك واجب الوجود سبحانه وتعالى .

وقال ابن رشد في التهافت في بيان ما دعا الفلاسفة إلى الاعتراف بقديم ليس بجسم ولا ذي هيولي . إنهم وجدوا جميع أجناس الحركات ترتقي إلى الحركة في المكان ووجود في المكان ، ولا ترتقي إلى متحرك من ذاته عن محرك أو غير متحرك أصلا لا بالذات ولا بالعرض ، وإلا وجدت محركات متحركات معاً غير متناهية وذلك مستحيل ، فيلزم أن يكون هذا المحرك الأول أزلياً وإلا لم يكن أولا ، وإذا كان ذلك كذلك،

فكل حركة في الوجود فهي ترتقي إلى هذا المحرك بالذات لا بالعرض ، وهو الذي يوجد مع كل متحرك في حين ما يتحرك ووجوده شرط في وجود جميع الموجودات ، وشرط في حفظ السموات والأرض وما بينهما اه . وإلى ذلك الاشارة بقوله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السّموات والأرْضَ أنْ تَزولاَ ﴾ (١) . وقوله : ﴿ ولا يَؤوده حِفْظُهُما وهُو العليُّ العَظيمُ ﴾ (٢) .

وقال أيضاً في مناهج الأدلة في الاستدلال على حدوث الجسم السماوي ينبغي أن نجعل الفحص عنه من أمر حركته وهي الطريق التي تفضي بالسالكين إلى معرفة الله بيقين ، وهي طريق الخواص وهي التي خص الله بها ابراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ وكَذلكَ نُري إبْراهيمَ مَلَكُوت السّمواتِ والأرْض وليَكُونَ منَ المُوقنينَ ﴾ (٣) اه .

ورأيت بعضهم يسمي هذا الدليل (برهان القهر بالدوران) قال إن جميع ما نراه بالعين مقهور بالدوران . وكذا عموم الكواكب مقهورة ودائرة حول محاورها : ﴿ وكلٌّ في فَلَكٍ يسْبحُون ﴾ (٤) . وكذلك المياه والنباتات والحيوانات دائرة ومقهورة بالانتقال من مكان لآخر ، وأما الثبوت فهي نسبي مثل الأجسام الصغيرة ننظرها ثابتة بالنسبة لبعضها، لكنها مقهورة بالدوران مع الأجسام الكبيرة كالأرض دائرة بما فيها وما عليها . وبالضرورة كل مقهور مفتقر إلى قاهر فوقه ، وإلى ذلك الاشارة بقوله تعالى : ﴿ وهُوَ القَاهرُ فوْقَ عِبَاده ﴾ (٥) .

---

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٧٥ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٣.
(٥) سورة الأنعام ، الآية : ١٨.

الدليل السادس

دلالة التركيب :

ضرورة العقل قاضية بأن كل مركب ، فهو مسبوق بالغير وحاصل بعد العدم ، أما مسبوقيته بالغير فلتقدم أجزائه التي تركب منها كما هو مشاهد في مثل السرير والجدار . وأما مسبوقيته بالعدم فلأنه مسبوق بعدم التركيب ، وكل مسبوق بالغير وموجود بعد العدم ، فهو حادث البتة والعالم بأسره من العلويات والسفليات ما بين مركب عقلي كالماهية المتعلقة وما بين مركب خارجي كالأجسام فيكون برمته حادثاً والضرورة قاضية أيضاً ، بأن كل حادث فهو مفتقر في وجوده إلى موجد ، وهو صانعه لامتناع أن يوجد نفسه . أفاده البحراني .

الدليل السابع

شاهد التصوير والتخصيص في المواد :

إن كل ما يشاهد من المواد ويحس ، فهو مصور بصورة ومكيف بكيفية محدودة أجلاها الامتداد ، وهو عبارة عن وجود الأبعاد الثلاثة فيها أي الطول والعرض والعمق وهو لازم من لوازمها وخاصة من خصائصها فلا يمكن أن تتصور مادة خالية منها أبداً ، وقد ذهب أساطين الفلكيين إلى أن الأرض والقمر والسيارات شكلها كروي ، وأنه يستدل منه على أنها كانت مصهورة في سالف عهدها ، فاستدارت بواسطة القوة الجاذبة التي وضعها الباريء تعالى فيها ، كما تستدير نقط الماء الصغيرة ولا يخفى أن الامتداد والاستدارة شكل من الأشكال المحدودة ذو صورة وكيفية وكل ما هـــو كذلك ، فهو حادث ضرورة أن تحديده وتصويره يرجع إلى مصور قدره إذ الشيء لا يكون فاعلاً منفعلاً ، وإذا انتهى إلى مصور ، فما هو إلا الباريء المصور تعالى .

قال ابن رشد ، الفلاسفة يعنون بالمخصص الذي اقتضته الحكمة السبب الغائي ، فإنه ليس عند الفلاسفة كمية في موجود من الموجودات ،

ولا كيفية إلا وهي الغاية في الحكمة وكل مصنوع ، فإنما يفعل من أجل شيء ما هو غايته ، والحكمة منه والعبرة فيه . ولو كان أي موضوع اتفق يقتضي أي فعل اتفق لما كانت هاهنا حكمة أصلا في مصنوع من المصنوعات ولما كانت هاهنا صناعة أصلا ، ولكانت كميات المصنوعات وكيفياتها راجعة إلى هوى الصانع ، وكان كل انسان صانعاً ، ولكانت الحكمة إنما هي في صنع المخلوق لا في صنع القديم واللوازم باطلة بل كل ما في العالم فهو لحكمة ، وإن قصرت عن كثير منها عقولنا وأن الحكمة الصناعية إنما فهمها العقل من الحكمة الطبيعية — أي المخلوقة في طبائع الكائنات — فإن كان العالم مصنوعاً واحداً في غاية الحكمة فهاهنا ضرورة حكيم واحد هو الذي افتقرت إلى وجوده السموات والأرضون ومن فيها ، فإنه ما من أحد يقدر أن يجعل المصنوع من الحكمة العجيبة علة نفسه اهـ .

الدليل الثامن

اضطرار العالم إلى ممسك :

قال الامام أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني في كتابه ايثار الحق ، اتفق المسلمون وغيرهم على أن العالم في الهواء ارضه وسماؤه وما فيه من البحار والجبال وجميع الأثقال ، وقد ثبت بضرورة العقل أن الثقيل لا يستمسك في الهواء إلا بممسك ، وإن هذا الامساك الدائم المتقن لا يكون بما لا يعقل من الرياح ، كما زعمت الفلاسفة على أن الرياح تحتاج إلى خالق يخلقها ، ثم إلى مدبر يقدرها مستوية الانفاس موزونة القوة لا يزيد منها شيء على شيء ، حتى تعتدل اعتدالاً أتم من اعتدال الفاعل الماهر من الناس ، فإن الماهر منهم لو قصد الاعتدال التام حتى يستوي على رأسه جفنة مملوءة ماء لم يستطع تمام الاعتدال ، إلا برياضة شديدة ، فكيف تعتدل عواصف الرياح وتقع موزونة وزن القراريط في الصنجات المعتدلة ، حتى يستوي عليها ثقل الأرض والجبال من غير رب عظيم قدير عليم مدبر اهـ .

وما ألطف ما قاله بعض المتأخرين ، لما اطلعت الملحدة على ناموس [1] الجاذبية جعلته بدلا من عناية الخالق ، فالغبي المتمسك به يظن أنه يقدر بواسطته على جحود الخالق ، ولكن العقل الكبير الذي اهتدى إلى ناموس الجاذبية العام كان عقلا متديناً علم إنه ضعيف في ذاته لا قدرة له على إدراك كل شيء ، ولم ينكر وجود الله ، وكان أدرى الناس بغموض أسرار حكمته ونواميسه علم — وعلم الناس أيضاً — أن ذلك الناموس ما زال عاملاً منذ الأزل ، وهذا كل ما ادعاه وكل ما يقدر أن يدعيه سواه . وقد قيل لأحد أتباعه ما هو سر الجاذبية ؟ فأجاب : « لا يحق للعالم الحالي أن يحاول كشف أسرارها ، فإننا نجهلها تماماً ولا نعرف عنها شيئاً » اه .

وبالجملة فنظم كل سماء على حدة بدون ربط احداهما بالأخرى بآلة حسية ، بل بروابط معنوية لمن أعظم مظاهر قدرة القادر ، وأثر الخالق تعالى وإلى هذا الدليل الاشارة بقوله تعالى : ﴿ ومِنْ آياته أنْ تَقُومَ السّماء والأرضُ بأمْره ﴾ [2] . وقوله سبحانه : ﴿ إنّ الله يُمْسكُ السّمواتِ والأرْضَ أنْ تزولاَ ﴾ [3] .

الدليل التاسع

طريق الامكان :

هذه الطريقة سبيلها للاستدلال منها على الواجب وجوده تعالى — على ما أفاده بعض المحققين — أن تبحث في حد الممكن ، ثم في لوازمه فيتهيأ لك العلم بأنه ما لا وجود له من ذاته ، ثم تنظر في الموجود وأنواعه وموضوعاته ، فتجد منها النبات مثلا ، وتجد من أحوال النبات الموجود أنه يوجد بعد أن لم يكن ، وينعدم بعد أن يكون ، ثم إنك تجد أن ما يكون

(١) الناموس والطبيعة والسنة والخاصة والنظام والقانون والقاعدة كلها الفاظ مترادفة على معنى واحد . قال حكيم . ليس لك أن تناقش باحثاً في لفظه يؤدي إلى معنى يؤديه لفظك أو قريب منه .

(٢) سورة الروم ، الآية : ٢٥ .

(٣) سورة فاطر ، الآية : ٤١ .

حاله كذلك ، فلا يمكن أن يكون وجوده من ذاته وإلا لكان وجوده لذاته ، فلا يسبقه العدم ولا يلحقه ، وإلا لزم سلب ما بالذات عنها ، وهذا هو معنى الممكن اهـ . ثم أن كل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود وهو موجده الواجب الوجود .

قال ابن رشد : إن الحكماء من أهل الاسلام لما نظروا في طبيعة الموجود بما هو موجود آل بهم الأمر إلى موجود غير مركب ، ثم قال ؛ والطريقة التي يمكن عندي أن تسلك حتى تقرب من الطريقة البرهانية ، هو أن الموجودات الممكنة الوجود في جوهرها خروجها من القوة إلى الفعل يكون ضرورةمن مخرج أعني فاعلا يحركها ويخرجها من القوة إلى الفعل ، فإن كان المخرج هو أيضاً من طبيعة الممكن وجب أن يكون له مخرج وينتهي الأمر إلىواجب الوجود باطلاق.أي ليس فيه امكان أصلاً لا في الجوهر ، ولا في المكان ولا في غير ذلك من الحركات ، وأن يكون ما هذه صفته غير مركب لأنه إن كان مركباً كان ممكناً لا واجباً ، واحتاج الأمر إلى واجب الوجود اهـ . ملخصاً .

الدليل العاشر

أمارة التغير والتحول :

قال بعض المتكلمين ، إن كل ما في الكون من مادة متغير ، فكل ذرة من ذرات الهباء ، وكل جرم من أجرام الأرض والسماء محل للتغيرات في الهيئات والحركات وسائر الأعراض . والتغير التحول من حال إلى حال لا التلاشي ولا استحالة الذوات بأن يصير الحديد أكسجيناً (١) والعوسج (٢) عنباً والبوم هزاراً . ثم بالضرورة لا بد لكل تغير من سبب

---

(١) الأكسجين يسمونه بالروح المنتشرة لانتشاره في جميع الأجسام وبه حياة الأنفس وحياة النار ، لأنها تشعل به ، وهو جسم غازي خلوي اللون والطعم والرائحة ، ومنه تتولد جميع الحوامض والأملاح اهـ . الأسرار .

(٢) شجر كثير الشوك .

يحدثه . وهذا مما أثبته العلم عندهم وقطع به عقلاؤهم حتى الماديون ، وذلك أن الأجرام السماوية عند جمهور علماء الهيئة اليوم على اختلاف مذاهبهم . كانت في أول أمرها غباراً في الفضاء تتوقد في باطن السماء ، ثم بردت على مرور السنين والدهور ، ومنها أرضنا وهي لما برد سطحها ظهر برها ، ثم ارتفعت جبالها وتغير وجهها تغيرات غريبة لوفرة العلل التي لا تنفك تؤثر فيها على مر الثواني ، فدولاب الكون والفساد — أعني زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة — لم يسكن منذ كانت الهيولي إلى هذة الساعة وإلى ما شاء الذي لا حركة ولا سكون إلا بأمره وإرادته سبحانه وتعالى . وعلل التغير حلقات سلاسل كل منها علة لما بعده ومعلول لما قبله ، وبالضرورة لا بد من انتهائها إلى مصرف ومدبر يتصرف فيها بقدرته وسنته ، وهو موجدها وربها تبارك وتعالى اهـ . كلامه . وهو استدلال بما تقرر لديهم لا بأس به لاقناعهم، وإلا فمسألة أصل تكون السماء من الغيوب ، وقد قال تعالى : ﴿ ما أشْهدتُّهُم خَلْقَ السّموات والأرْضِ ولا خَلْقَ أنفُسهم وما كنْتُ مُتّخذَ المُضلِّينَ عَضداً﴾[1] . وسيأتي تتمة لهذا .

الدليل الحادي عشر

اقتضاء ارتباط الافراد ارتباط المجموع

من المقرر أن لسائر الكائنات على اختلاف أنواعها نسباً إلى نواميسها المبدعة ، وأن ارتباطها بها ارتباط العلل بمعلولاتها والأسباب بمسبباتها يحفظ بها وجودها ، وتظهر منها آثارها ، فكل انسان يعلم وجوده من غيره ، وكل زهرة تتوقف حياتها على تأثير الشمس والمطر ، لتنمو فضلا عن أنها مستمدة من زهرة غيرها بالتلقيح وإلا لما نبتت ، فكل هذه الكائنات علل ومعلولات مرتبطة ببعضها ، وليس من شيء يرى أنه أحرز وجوده من نفسه ، ولا يتأتى القول بأنها أحرزت وجودها بعلة داخلية ، لأن كلا

(١) سورة الكهف ، الآية : ٥١ .

منها هو علة لغيره ، ولا يمكن أن يقال باستغنائها عن علة لأن ذلك ـ عدا عن كونه يرفضه العقل السليم ـ لو صح لكان لنا مجموع كائنات لا علة لوجودها ، ويفضي ذلك إلى النتيجة الآتية وهي أن الكائنات كل فرد منها له علة لكن مجموعها لا علة له ولا سبب ولم يبده أحد . وهو من غرائب الخبط ، فلا بد إذاً من أن تكون علة هذه الكائنات خارجة عنها ، وذلك مبدعها وخالقها تبارك وتعالى .

الدليل الثاني عشر

الحياة الحيوانية والنباتية على وجه الكرة :

من أظهر البراهين على وجوده تعالى الحياة على الأرض إن نباتية أو حيوانية ، فإن الحي لا يتولد إلا من حي وبه يستدل على نفي التولد الذاتي ، وهو زعم تولد الحي من المادة ، وذلك لأن المادة خالية من الحياة ساكنة خاضعة للنظام الذي وضعه لها خالقها ، ويستحيل أن تولد حياة في ذاتها أو غيرها لا سيما العقل الانساني بجميع قواه وغرائزه ، فإنه لا بد له من خالق عالم حكيم إذ المواد لا تولد عقلاً ، ولا تستطيع أن تخرج كائناً جهازياً متصفاً بأوصاف مباينة لنظام المادة . ومما استدل به على نفي التولد الذاتي ثلاثة أدلة :

الأول ؛ أن الحياة أما قديمة وأما حادثة ، والأول باطل لخلو المادة منها دهوراً ، كما تبين من المباحث الجيولوجية [1] ، فثبت أنها حادثة لعدم الواسطة بين القدم والحدوث ، فلو ثبت التولد الذاتي ، وأن لا خالق للحياة لزم أنها حدثت من لا شيء وهو باطل بالبديهة ، وبقول الماديين أنفسهم ، لأن من أول مبادئهم أن لا شيء من لا شيء ، فالتولد الذاتي باطل ولا بد للحياة من خالق .

الثاني ؛ أنه قد ثبت أن الحياة محدثة ، فلا بد لها من محدث ، وهو

---

(١) وهي التي تبحث عن طبقات الأرض ، وعن المستحجرات من النباتات والحيوانات .

اما المادة أو غيرها ، والأول باطل ، وإلا لزم أن المادة لم تنفك عن الحياة قط ضرورة لزوم العلة لمعلولها ، وعدم انفكاكها عنه ، وقد تبين بطلانه فانتفى التولد الذاتي ، وثبت أن للحياة خالقاً غير المادة ، وأنه خالق مختار تقدست ذاته وجلت صفاته .

الثالث ؛ أن علماء الماديين وغيرهم في هذا العصر بذلوا جهدهم في افتراء التولد الذاتي ، وشغلوا بالامتحانات سنين كثيرة ، فلم يأت بنتيجة. وقال جمهور أرباب الارتقاء « لا حي إلا من حي » وهزأوا بالقول بالتولد الذاتي وعدوه هذياناً . وسيأتي بسط لهذا إن شاء الله تعالى في المطلب الثالث.

الدليل الثالث عشر

نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والاتقان :

يرى كل من له قلب أن أنوار وجود الله تعالى تسطع على صفحات ذرات الكون ، كالشمس ليس دونها حجاب ، فإنه لما كان في غاية النظام والاحكام استلزم بداهة وجود مدبر عالم بديع الصنع بيانه أنّا نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على حال من الترتيب والاحكام، وربط الأسباب بالمسببات ، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عجائبه ، ولا تنتهي غاياته ، فبالضرورة هذا الترتيب المحكم لا يكون له وجود لولا وجود خالق مدبر لنظامه مريد لسيره في سننه ، ترى من يسعه أن يفرض أن آلة التلسكوب (١) أوجدت نفسها للاستطلاع على حركات الاجرام . وهل يمكن أن يكون المنزل صنعة بلا صانع ؟ فمن الضرورة وجود صانع رسم صورته وفصله لكي يكون جديراً بالسكنى ، فما بالك بنظام الكون وتركيبه ؟ لا جرم أنه أعلى وأعظم من صنع البشر بما لا ينقاس ، وعلامات الارادة ظاهرة فيه .

هذا الدليل أورده بعضهم ، كما ذكرنا وسبق نحوه أولاً مفصلاً .

---

(١) التلسكوب المنظار الذي يكشف الأجسام البعيدة السماوية .

الدليل الرابع عشر

آية الانسان :

كل من فهم الحكمة في أنواع الموجودات ازداد علماً بمعرفة بارئها ويقيناً بعظمة فاطرها ، ومن أشرف تلك الأنواع وأفضلها وأكرمها الانسان ودلالته على خالقه تعالى من وجوه عديدة .

منها ؛ أنه لا توجد لغة من لغاته خالية من اسم الله تعالى ، واللغة تعبر عن أفكار الانسان ووجدانه ، فيكون ذلك دليلاً على أن العلم بوجوده تعالى أمر عام مطبوع على صفحات القلوب ، ومنقوش على ألواح الأفئدة كما تقدم في برهان الفطرة .

ومنها ؛ باعث الأدب في الانسان وهو الوازع الرحماني أعني صوت الضمير الخاص على عمل الخير والمادح على فعله والزاجر عن المنكر واللائم على ارتكابه ، فإنه يستلزم ضرورة موجداً أوجده ، وخالقاً قدره.

ومنها ؛ التخالف في أنواعه . قال بعض المحققين في تفسير قوله تعالى : ﴿ ومَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى ﴾[1] . وإنما أقسم بذاته بهذا العنوان لما فيه من الاشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، والاشارة إلى الابداع في الصنع إذ لا يعقل هذا التخالف بين الذكر والأنثى في الحيوان يحصل بمحض الانفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل، كما يزعم بعض الجاحدين ، فإن الأجزاء الأصلية في المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر أو كون الأنثى ، فتكوين الولد من عناصر واحدة تارة ذكراً وتارة أنثى دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع اه .

ومنها ؛ أن نفس الانسان وخلقه وتكوين أعضائه من أعظم الأدلة على خالقه وفاطره . قال الغزالي : في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والرقة والغلظ وكثرة الانقسام

---

(١) سورة الليل ، الآية : ٣ .

وقلته ، ولأي شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة اه .

وبالجملة ؛ ففي هيكله من العجائب الدالة على حكمة مبدعه ما تنقضي الاعمار دون بعضه . ومن يطالع علم التشريح — وهو الذي يهم كل نبيه مراجعته — يجد فيه من عجائب صنع الله ، وبدائع حكمته ما يضطر معه إلى الاعتراف بقادر حكيم ومدبر عليم ولذلك قيل : « فكرك فيك يكفيك » ، وهذا معنى القول المشهور : « من عرف نفسه عرف ربه » ، قال الامام ابن رشد : من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله تعالى ، ومن بدائع أبي العلاء المعري قوله عفا الله عنه :

عَجَبي للطبيب يُلْحِدُ في الخا ... لقِ مِنْ بعْد درسهِ التّشريحا
ولقَدْ عَلِمَ المنجِّم ما يـو ... جبُ للدين أن يكونَ صريحا
منْ نجوم ناريّة ونجومٍ ... ناسبَت تُربة وماء وريحا
فطن الحاضرين مَنْ يفهم التّعريض حتّى يظنّه تَصْريحا

وهكذا بقية عجائب المواليد ، وقد أظهر المكرسكوب [1] في الخلق عالماً جديداً من الأجسام الحية تحار لصغرها العقول ، فإن هذا المنظار يرى في قطعة صغيرة مما يحملها ألوفاً يشاهد جهاز أعضائها ودوران سوائلها في أوعيتها مما يبرهن على قدرة قادر كبير ، يرجع دون أدق مكوناته البصر وهو حسير .

الدليل الخامس عشر

الاعداد والتهيئة في الموجودات :

قال بعضهم : حسب الباحث أن ينظر في قضيتي الإعداد والتهيئة اللتين يراهما في كل ما في الدنيا لغاية مستقبله . فإن هذا الإعداد لا يمكن أن يأتي من الأشياء نفسها ، وهو نتيجة حكمة فائقة المدارك والمشاعر ،

(١) هو المنظار الذي يكشف الأشياء الدقيقة ويعظمها .

فالطفل في أحشاء أمه مزود بالرئة ، وهو ما زال بالاحشاء لا يستخدمها ، وإنما زود بها لكي يستخدمها إذا خرج إلى الدنيا ، وهكذا يقال عن عينيه وأذنيه وقدميه ويديه ، فيرى المعتبر أن عملها في مستقبل بعيد ، وهذا من أقوى الأدلة على تدبير خالق حكيم إذ ليس هذا من الأشياء نفسها لاستحالة كون الشيء فاعلاً وقابلا ، ولا من موادها لخلوها عن المدارك ، ولا من أمه لأنها لا علم لها بما يجري في ظلمات أحشائها ، ثم أن غرائز الحيوانات أيضاً من هذا الباب إذ لا يكتسبها الحيوان بتعليم أو تلقين ، لكونه غير قادر أن يتصور أو يتبصر ، وناهيك أن الحيوان الذي يعيش على انفراده معتزلا عن غيره وهو مزود بهذه الغرائز ، ومنه ما يصنع وكره بمهارة تكل دونها أحذق العقول البشرية ، مع أنه لا يدري ماذا يفعل من هذه الأفعال الغريزية التي طبعت فيه ، ليدوم بها حفظ نوعه ، فالاختبار إذاً لم يعلمه شيئاً إذ هو معتزل عن غيره فمن أين له هذه المعرفة السامية ، لا جرم أن ما يعرى عن المعرفة لا يتجه إلى غاية ما لم يسدد اليها من موجود عالم مدبر ، كما يسدد السهم من الرامي اه . ﴿ وما منْ دابةٍ إلاّ هُوَ آخِذٌ بناصيتها إنّ ربّي على صراطٍ مُسْتقيمٍ ﴾ (١) .

الدليل السادس عشر

أخذ الأعمال في الترقي :

مما يستدل به بعض المتكلمين على وجود الخالق تعالى أمر أخذ الصناعات في الترقي ، وبقاء نظام الكائنات على رقيها ، لأن تعدد الصانع الحادث ، وترقي صنعته في التحسن بترقيه في العلم ، وتنازعه في الكثرة كالنجار ، والنجارة ، والحداد والحدادة ، وهكذا من أوضح الأدلة على وجود صانع قديم ووحدته ، وكمال علمه وقدرته ، وظهور صنعته كاملة على ابدع اتقان ، كالأرض ومعادنها ، والسموات وكواكبها ، والما والهواء ، والنبات والحيوان ، ولو كان حادثاً لتعدد ، وكان ناقصاً في العلم والقدرة ،

---

(١) سورة هود ، الآية : ٥٦ .

ولظهرت صنعته غير كاملة ، ولترقت بالتحسين بترقية في العلم وتنازعه في الكثرة ، وانتفاء هذه اللوازم يدل على انتفاء الملزوم أعني الحدوث، فيثبت المطلوب وهو وجود الخالق الحكيم ووحدته تعالى .

الدليل السابع عشر

عشق الموجودات للكمال :

تبين في الحكمة المتعالية أن لكل موجود من الموجودات العقلية والنفسية والحسية والطبيعية كمالاً مقرراً ، وعشقاً ركز في ذاته شوقاً إلى ذلك الكمال وحركة إلى تتميمه، فكل أحدعاشق للوجود طالب كمال الوجود ، نافر عن العدم والنقص ، وكل ما هو مطلوب ، فإنما يمكن حفظه وادامته بما هو تمامه وكماله ، فالمعلول لا يدوم إلا بعلته لكونها كماله وتمامه ، والحرارة لا تنحفظ ولا تدور إلا بحرارة أقوى منها ، والنور لا يكمل إلا بنور أقوى منه ، والعلم الناقص الظني لا يتم حتى يصير يقينياً لا يزول ، وكل وجود ناقص لا يصير كاملاً إلا بما هو أقوى منه وهو علته وبما يديم ذاته ويحقق هويته ، فالهيولي لا تتم إلا بصورتها ، والصورة لا تتم إلا بمصورها ، والحس لا يتم إلا بالنفس ، والنفس لا تتم إلا بالعقل ، والعقل لا يبقى إلا بمن يفيض عليه كماله ، (وهو موجده) ، فإذاً كل ناقص ينفر عن نقصه ويسعى إلى كماله ، ويتمسك به عند نيله ، فيكون كل شيء لا محالة عاشقاً لكماله ، لأنه مرجع الكل وغاية الكل ، وحينئذ فجميع الموجودات متوجهة إلى الحق الأول توجهاً غريزياً ونازعة اليه نزوع افتقار واحتياج .

يقول بعضهم في هذا المعنى : إن ما بنا من النقص الذاتي والضعف الجبلي يقودنا بحكم ناموس التضاد إلى القول بوجود مدبر كامل ، فإنه كما أن لكل شيء ضداً كالنور والظلام ، والعدل والظلم ، والموت والحياة ، والقدم والحدوث ، كذلك العلم المحدود يقابله العلم الغير المحدود ، والقدرة الناقصة يقابلها القدرة الكاملة ؛ وبالجملة فنقص الآدمي وعجزه وشوقه لبلوغ أمانيه وسعيه وراء كمالات لا يدري غايتها،

ونقضه اليوم ما أبرمه بالامس مما يبرهن على أن في الغيب قدرة قاهرة ، وكمالاً باهراً تنتهي اليه الأماني ، وتطمئن به القلوب ، ومن هذا قول بعض السلف [1] لما سئل بمَ عرفت ربك ؟ قال : عرفته بنقض العزائم وفسخ الهمم .

الدليل الثامن عشر

استحالة كون العالم علة لنفسه في طريقة انحصار عقلي :

تقرير هذا الطريق أن يقال ، العالم إما أنه حدث ذاته أو حدث بغير أن يحدثه غيره وبغير أن يحدث هو نفسه . أو يكون حدثه غيره . فإن كان هو أحدث ذاته كان علة لنفسه متقدماً عليها ، فلزم كونه قبل أن يكون وهو محال . وأيضاً فإنه يوجب أن يكون الشيء غير ذاته ، وهذا محال باطل بالمشاهدة والحس ، وإن كان خرج عن العدم إلى الوجود بغير أن يخرج هو ذاته أو يخرجه غيره ، فهذا أيضاً محال لأنه لا حال أولى بخروجه إلى الوجود من حال أخرى ، ولا حال هناك أصلاً ، فإذاً لا سبيل إلى خروجه وخروجه مشاهد متيقن . وإذا بطل أن يخرج العالم بنفسه ، وبطل أن يخرج دون أن يخرجه غيره ، فقد ثبت الوجه الثالث ضرورة إذ لم يبق غيره ألبتة ، فلا بد من صحته ، وهو أن العالم أخرجه غيره من العدم إلى الوجود ، وهو بالضرورة الخالق تعالى . أشار له ابن حزم في الفصل .

وثمة في باب الانحصار الملزم طريقة أخرى أشار لها بعض المحققين قال : إن وجود الأشياء إما بالاتفاق والصدفة . وإما بالضرورة ، وإما بالقصد والارادة . وكل من الأول والثاني باطل . أما الأول ؛ فلأنه يقتضي وجود معلول بلا علة ، وأما الثاني فيقتضي أن الأشياء على ما هي عليه الآن كانت كذلك منذ الأزل ، والواقع خلاف ذلك على ما ثبت في مباحث التكوين . وحينئذ كيف توزعت عناصر العالم على نسبها

(١) نسبه الدواني إلى جعفر الصادق . والخوارزمي إلى الحسن بن علي رضي الله عنهم .

المعلومة . ولما إذا كان الذهب أقل من الحديد ، والحديد أقل من الصلصال. وكيف استنسبت الكرة الأرضية في خواص موادها وصفاتها ومقدارها وتوزعها على مقتضى حاجة الاحياء وانتشارها ونموها . وكيف نشأت الحياة في الجماد . ما ذلك إلا لأن كل حي قائم بعناية خالق ضابط الكل ، فالعالم مخلوق ، فثبت الخالق الأزلي .

وهذه الطريقة من الأدلة العلمية . والعلم الحق دليل على الاله الحق اهـ.

الدليل التاسع عشر

طريق الالزام :

يقال لمن قال لم نر شيئاً حدث إلا من شيء أو في شيء . هل تدرك حقيقة شيء عندكم من غير طريق الرؤية والمشاهدة ؛ أو لا يدرك شيء من الحقائق إلا من طريق الرؤية فقط ، فإن قالوا إنه قد تدرك الحقائق من غير طريق الرؤية والمشاهدة تركوا استدلالهم وأفسدوه ، إذ قد أوجبوا وجود أشياء من غير طريق الرؤية والمشاهدة ، وقد نفوا ذلك قبل هذا ، فإذا صاروا إلى الاستدلال نوظروا في ذلك إلا أن شبهتهم هذه قد بطلت . فإن قالوا لا ، بل لا يدرك شيء إلا من طريق المشاهدة . قيل لهم : فهل شاهدتم شيئاً قط لم يزل ؟ فإن قالوا لا . صدقوا وأبطلوا استدلالهم ، وإن قالوا نعم . كابروا وادعوا ما لا سبيل إلى مشاهدته . إذ مشاهدة قائل هذا القول للاشياء هي ذات أول بلا شك ، وذو الأول هو غير الذي لم يزل لأن الذي لم يزل هو الذي لا أول له ، ولا سبيل إلى أن يشاهد ما له أول ما لا أول له مشاهدة متصلة ، فبطلت شبهتهم هذه على كل وجه . أشار له الامام ابن حزم أيضاً .

الدليل العشرون

أعمار الكائنات :

مما يبرهن على أن الكائنات حادثة حتى عند الماديين أنهم يقدرون

للارض والشمس والكواكب وغيرها أعماراً لقطعهم بحدوثها [1] ، وهم قاطعون أيضاً بأن الموجود لا يصدر عن نفسه ولا عن معدوم كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [2] ، فتعين أن يكون لهذه الموجودات كلها مصدر وجودي ، ثم أنهم جازمون أيضاً بأن مصدر الكائنات ، والأصل الذي وجدت منه غير معروف في ذاته ، وإنما يجب أن يكون موجوداً ذا قوة ، فالمادي منهم يقول المادة مع القوة أصل الموجودات كلها ، فإذا سألته ما هي المادة التي تعنيها يقول أن حقيقتها غير معروفة ، فكأنه اختلف مع غيره في التسمية ، واتفق الجميع على أن هذه الكائنات كلها قد صدرت من موجود ذي قوة حقيقية غير معروفة الكنه وهو ما عليه المسلمون [3] .

أقول يشبه هذا ما يذكره علماء الجدل من باب الاسترسال مع الخصم والاستنزال إرادة تزوله عن فاسد عقيدته . قال تقي الدين السبكي في

---

(١) التاريخ العبراني يذكر أن أصل الانسان لا يتجاوز سبعة آلاف سنة ، وينقل عن كتابات الكلدانيين أن شعبهم يعود إلى سبعمائة ألف سنة. صحح آخر أن شعبهم لا يتجاوز الجيل الثالث والعشرين قبل عصرنا الحالي،وذهب بعض علماء طبقات الأرض الاخصائيين أن عمر الدنيا أربعمائة مليون سنة ، وبنى احصاءه على ما وجده من احتراق صخرة أورانيوم (وهو ضرب من المعادن المحتوية على الرديوم) نقله عنه بعض الصحف ، وجاهر جمهور هؤلاء العلماء بأن عمر الانسان بين عشرين ومائة ألف سنة .

قال من نقل عنه ولهم على ذلك أدلة جيولوجية من مثل رواسب الأنهر وفعلها في الصخور واكتشاف الآثار البشرية في طبقات في جوف الأرض لا يمكن أن تغطيها الرواسب في أقل من مئات ألوف من السنين . قال ولعل سني التوراة في تعيين الوقت لبداءة الانسان أنه ما وجد إلا من نحو ستة آلاف سنة غير ما تعلمه الآن من عدد أيامها ، وفي هذه الحال يتفق العلم والدين في أهم نقطة يختلفان عليها اهـ . كلامه .

ويرجح بعضهم أن بداءة التاريخ الجيولوجي منذ نحو مائة ألف ألف سنة ، لأن سطح الأرض قبل ذلك لم يكن صالحاً للحياة الحيوانية ولا للحياة النباتية ، ولا يخفى أن الحقيقة في علم التاريخ لا تقوم بمثل هذه الأقاويل ، بل لا بد من إقامة الحجة والبرهان على تحقيق ذلك أو تقريبه من الحقيقة على الأقل ، إلا أن نفع ذلك في محاجة من يعتقده .

(٢) سورة الطور ، الآية : ٣٥ .

(٣) هذا الدليل قرره بعض المحققين ، ثم قال هو أقرب الدلائل تنبيهاً واقناعاً لعقول المشتغلين بالعلوم العصرية اهـ .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ﴾ إلى قوله ﴿ وتلكَ حجّتنا آتيْناها ابْراهيمَ على قَوْمه ِ ﴾ [1] . هذا تعليم من الله سبحانه لابراهيم عليه الصلاة والسلام للحجة على قومه ، فأراه ملكوت السموات والأرض وعلمه كيف يحاج قومه ، وقال له حاججهم في مقام بعد مقام على سبيل التنزل إلى أن تقطعهم بالحجة . ولا يحتاج مع هذا إلى أن نقول ألف الاستفهام محذوفة ، ويؤخذ منه أن المقول على سبيل التنزل ليس اعترافاً وتسليماً مطلقاً وقول الفقهاء تسليم على سبيل التنزل معناه هذا أي أنه يقول نقدر أن الخصم نطق به فننظر ما يترتب عليه اه [2] .

الدليل الحادي والعشرون

تاريخ البشر :

يسمي قوم هذا الدليل بالدليل الاجماعي ، وذلك أنه أرانا تاريخ البشر أن جميع الناس من مبدأ فطرتهم ، وجميع القبائل والأمم هم ذوو أميال دينية ، حتى أنه لا يوجد شعب في عصر أو مكان دون ديانة أصلاً ، وإن كان منهم من انحرف في دينه بما زاد أو نقص فضلّ وأضلّ إلا أن معرفة الله مغروسة في قلب أفراد الانسان ، وهي من البديهيات في النفس إذ الناس جميعهم يشعرون بأنهم متعلقون بإله عظيم ، ومربوبون لرب أزلي قديم وهذا الشعور لا يمكن أن يكون اختراع عقل بشري ، لأنه سبق كل تقدم علمي ، ولا يمكن للمرء أن ينتزعه من فؤاده لامتزاجه به امتزاجاً يغلب كل وسواس ، وقد قال بعض من زرع الأرض برحلاته ، ودرس أحوال الامم بتنقيباته ، إنه يمكننا أن نجد بلا داخلية من الأسوار أو العلوم أو السلطة أو البيوت أو السكان أو الدراهم ، أو النقود ، وقوماً غير خبيرين بالمدارس والمحافل والملاهي ، وما من رجل رأى مدينة خالية من معابد الله وغير قائمة بصلوات وإيمان وعبادات تقام للفوز بأرب ، أو

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٨٣ .
(٢) نقله عنه ابنه التاج في ترجمته من طبقاته .

لدفع بلاء وتفريج كرب (١) ، فهذا دليل على أن الله خلق البشر وزودهم بمواهب روحية تمكنهم من معرفة وجوده معرفة تنبعث من النفس وتصدر من صميم القلب ، ولذا فكل انسان متى بلغ من القدرة أن ينظر في أمور دينه يعتقد ذلك طبعاً ، كما يعتقد الانسان بوجود الشمس عند فتح عينيه لنورها ، وقد تأكد تعميم العاطفة الدينية في الجبلة الانسانية عند افتتاح أميركا وأوستراليا والأراضي المجهولة ، فقد رأى الرحالة النقابة بعد الفحص المدقق مصداق ما تقدم أنه لا يمكن أن يوجد مكان خال من مساجد لله وذكر اسمه الجليل ، ولا يسعنا أن نورد كل ما شاهده الرحالة الذين قدموا إلى تلك البلدان ، ولا أن نذكر عقائدهم التي تداولوها ، إلا أنّا نقول بالاجمال . إن الاعتقاد بواجب الوجود وخلود النفس من أركان ديانتهم ، وكذا الاعتقاد بمكافأة الصالحين ومجازاة المفسدين ؛ بل شوهد عند أعظم الشعوب توحشاً وهمجية الاعتقاد بوجود مولى عظيم في السماء ، وقولنا آنفاً إن الدين والاعتقاد بوجود الله سبقا كل تقدم نريد به أنهما ظهرا مع ظهور الانسان ووجوده على الارض ، ولذلك فلا يعلم شيء من أمر القدماء إلا أنهم ذوو أديان .

---

(١) في مجلة المقتطف مجلد ٣٧ جزء ٦ سنة ١٩١٠ صفحة ١١٦٠ ما مثاله ، ليس من خبير مطلع على تواريخ الأمم ، إلا ويعرف ما للدين من المكانة في نسج التاريخ . كل أحد إن متمدناً أوروبياً أو بربرياً افريقياً وجد ، والعبادة في طبيعته ترى الدين مشتبكاً في تاريخ البشر له علاقة كبرى بمسرة الانسان وآماله ومطامحه الخ ، وقال صديقنا السيد الزهراوي في الحضارة ما صورته ، شاع وعرف أن الانسان ديني بالطبع ، ولم يشجعني على هذا القول طول بحثي ودرسي وتفكري في الانسان ، وإن كان هذا كافياً وإنما شجعني عليه ذهاب باحثين آخرين من قبلي إلى مثل ما أذهب اليه . وقد ذكرنا بعضهم بدقيقة مهمة،وهي أن منكري الأديان متى تألفت منهم جماعة تراهم يوجدون مراسم وعادات ، ثم يلج بهم الولع بها ، والمحافظة عليها وتهذيبها وتشذيبها ، حتى يصير أمرها من نفوسهم ونفوس مقلديهم، كأمر الدين من نفوس أهل الملل،وبالاجمال يصيرون أهل دين من حيث لايشعرون لا فرق بينهم وبين سائر الأديان، إلا كمابين أهل دين و الآخرين أهـ.

قال بعض الحكماء : القوة الدينية لم تقو عليها قوة الالحاد في أوروبا، ولا في أمريكا ، ولن تقوى عليها ما دام الالحاد غير فطري في البشر والدين فطرياً فيه ، كما ثبت لدى كل باحث في طبائع البشرية .

قلنا سمى بعضهم هذا الاستدلال (بالدليل الاجماعي) ، لأخذه عن اجماع الامم على الاقرار بوجود إله قد أبدع الكائنات من عدم المادة وهو لا يزال يكلؤها ويدبر شؤونها ولا أخالك تجهل أن اجماع الامم على حقيقة لا يكون إلا معصوماً عن الضلال ، وما يزعمه زاعم من أن بعض الامم لم يعرفوا الخالق تعالى ، فما هو إلا ادعاء باطل كما تبين للمؤرخين والمستقرئين الآن الذين جالوا بين أولئك الشعوب ، وتعلموا لغاتهم واستقرأوا أخبارهم ، فوجدوهم على أتم اتفاق على الاقرار بوجود الله سبحانه ، وقد أتوا بتفاصيل لا يشوبها ريبة . وعلى فرض صحة أن بعض الشعوب الضاربين في معامي الأرض لا تعرف الخالق ، فإنهم نفر قليل يعدون من الشواذ (ولكل قاعدة شذوذ) ، ويحال شذوذهم على مرض عرض على هذا الشعور الفطري [1] ، كما يعرض للاحساس بالحلاوة مرض يمنع من ادراكها ، وكما يعرض لبعض مراكز المخ شيء يحول دون ادراك بعض المعلومات مع سلامة سائر المدارك ، وهكذا يجاب عما يقال بأن من المعطلة من لا يشك بسلامة عقولهم ، فإن من الناس من يضعف ادراكه لشيء واحد ، وإن كان قوياً في غيره ، ولم يعرف أحد قويت مداركه في كل فرع من أنواع الادراك هذا إن سلم وجود من لا فطرة له تنزلاً ، وإلا فما من فرد إلا ويولد على الفطرة ، ولا من شعب إلا وهو ذو ديانة يعول عليها في أمر عقائده .

وسكان الكرة اليوم معدلهم ١٤٤٠ مليوناً [2] يعترفون بإله خالق قديم ، فهل يمكن أن تكون شهادة ١٤٤٠ مليوناً بوجود خالق قديم حكيم ، إلا حقاً وصدقاً ؟ بلى ، وهل في وسع وهم أن ينتشر بين ١٤٤٠ مليوناً من

(١) نقل المنار في الجزء ١٢ من المجلد ١١ عن الاستاذ الامام رحمه الله . إن الذين ينكرون وجود الله تعالى قليلون في مجموع البشر ، فهم مرضى الأرواح أو العقول من هذه الجهة ، وإن صحت أفكارهم من جهة أو جهات أخرى ومرض الروح ، والعقل عرض يطرأ على بعض الناس . كمرض البدن ، فمرض الجسد مهما كثر لا يعد هو الأصل في المزاج ، وكذلك مرض العقل والروح لا يعد في الأصل ، وأن كثر المرضى به اهـ . وهو يوافق ما هنا .

(٢) على ما استقرأه علماء الجغرافيا كما تراه في أسفارها المطولة .

الخلائق العاقلة ؟ كلا . فإن حبل الكذب قصير والتمويه لا يصير طبعاً ، وكأني بمن يقول : الحق لا يصير حقاً بكثرة معتقديه [1] . ولا يستحيل باطلاً بقلة منتحليه . وكذلك الباطل . فيقال هذا في مقام فيه قلة وكثرة ، أما فيما أحاط به الاجماع والاتفاق من سائر مناحيه . فلا يقال ذلك فيه . وقد أوضحنا الاجماع والاتفاق على فطرة التوحيد ، على أن العاقل كما قالت الحكماء يظن بالرأي الذي سبق اليه الاتفاق من جلة الناس وأفاضلهم أنه أولى بالتقديم والايثار ، وأحق بالتعظيم والاختيار ، لأنه يكون مقوماً بالبحث مخبوراً بالفكر مصقولاً على الزمان تلمسه كل يد ، وتجتليه كل عين ، ويصير ثباته على صورته الواحدة دليلا قوياً وشاهداً زكياً على حقيقته ، لأنه يبرأ حينئذ من هوى ، ويعرى من تعصب ناصره ، ويبقى بصورته الخاصة ، ويجري مجرى السكينة التي لا تحتاج إلى علاج المعالج ، وتمويه المموه ، وانتقاد المنتقد ، وتنفيق المنفق ، وحيلة المحتال .

قال الحكيم المعلم الثاني الفارابي : إنا نعلم يقيناً إنه ليس شيء من الحجج أقوى وانفع وأحكم من شهادات المعارف المختلفة بالشيء الواحد ، واجتماع الآراء الكثيرة . إذ العقل عند الجميع حجة . ولأجل أن دنا العقل ربما يخيل اليه الشيء بعد الشيء على خلاف ما هو عليه من جهة تشابه العلامات المستدل بها على حال الشيء ، احتيج إلى اجتماع عقول كثيرة مختلفة ، فمهما اجتمعت فلا حجة أقوى ، ولا يقين أحكم من ذلك ، ثم لا يغرنك وجود أناس كثيرة على آراء مدخولة ، فإن الجماعة المقلدين لرأي واحد المدعين لامام يؤمهم ، فيما اجتمعوا عليه بمنزلة عقل واحد ، والعقل الواحد ربما يخطىء في الشيء الواحد حسب ما ذكرنا لا سيما إذا لم يتدبر الرأي الذي يعتقده مراراً ، ولم ينظر فيه بعين التفتيش والمعاندة. وإن حسن الظن بالشيء أو الاهمال في البحث قد يعمي ويخيل . وأما العقول المختلفة إذا اتفقت بعد تأمل منها وتدرب وبحث وتنقير ومعاندة

---

(١) يشبه هذا قول الحكماء : الكثرة ليست من الأدلة في المنطق لاثبات رأي، ولا هي من الأدلة في الديانات لاثبات عقيدة بل الآراء والديانات هي التي تجتذب الكثرة بما يتاح لها من الأسباب .

وتبكيت ، وإثارة الاماكن المتقابلة ، فلا شيء أصح مما اعتقدته وشهدت به ، واتفقت عليه اهـ . ونحن نجد الألسنة المختلفة متفقة في هذا الباب ، نقول هذا تنزلاً مع من يشاغب ، وتنويعاً للاستدلال عليه وإلا فالحق أوضح من أن يتمارى بين يديه ، وأظهر من أن يبرهن عليه .

إذا نظر الانسان إلى أمر العقيدة والدين يجد أن عقله يحمله عليه ، وقلبه يشعر به ويقضي بضرورته لما يأتي من حل مسائل ليس لعقل أكبر حكيم أن يتفصى عنها ، أو يحل عقدتها فالعقيدة مركز جميع الفضائل ، وفلسفة جميع الاعصار والأعمار وركن الأخلاق ، وقوة الشرائع ومفزعها ، وعماد الملوك ونصرة الشعب وسلوة الحزين .

الدليل الثاني والعشرون

أمر النبوات وآياتها الباهرة :

إن النبوات وآياتها البينة . ومعجزاتها الباهرة . أمر كبير وبرهان منير . فقد جاءت الرسل عليهم السلام تترى مبشرين ومنذرين عاضدين لفطرة الله التي فطر الناس عليها ، فادعوا وبرهنوا ، وقاوموا وانتصروا ، فلم يكن أشفى ولا أنفع من النظر في كتبهم وهديهم وآياتهم ومعجزاتهم ، وقد اعتضد ذلك بأمرين :

أحدهما ؛ استمرار نصر الأنبياء في عاقبة أمرهم ، وإهلاك أعدائهم بالآيات الرائعة ؛ وثانيهما سلامتهم واتباعهم ونجاتهم على الدوام من نزول العذاب بهم ، كما نزل على اعدائهم ، وذلك بيِّن في القرآن وجميع كتب الله تعالى ، وجميع تواريخ العالم ،ومن غريبها الذي لا يكاد أحد ينظر فيه حفظهم مع ضعفهم من الأعداء الأقوياء ، ثم يعتضد هذا أيضاً بما يناسبه من كرامات الصالحين [1] ، وعقوبات الظالمين المتواترة

---

(١) الكرامات : جمع كرامة وهي أمر خارق للعادة يكرم الله به من يشاء من أوليائه وأصفيائه . والكرامة جائزة عقلا لأنها من جملة الممكنات التي لا تستحيل على القدرة الالهية ، وواقعة نقلا في آيات مشيرة لذلك ، وأحاديث صحيحة،وأخبار متواترة —

والمشاهدة ، ثم ما وقع من تكرر نصر الله تعالى للحق والمحقين ، وأنهم وإن ابتلوا ، فالعاقبة لهم كما يشهد له استقراء التاريخ ، ثم ما قد وقع للانسان من اجابة الدعوات [1] ، وكشف الكربات ، وستر العورات ، وتيسير الضرورات وقضاء الحاجات ، وكشف المشكلات ، في المعارف الخفيات. وهذه الأشياء إذا ضمت إلى البراهين حصل من مجموعها قوة يقين كثيرة . (أشار لذلك السيد ابن المرتضى اليماني في إيثار الحق) .

لطيفة مؤيدة :

من رأي العلامة المرجاني . محشي شرح الدواني ؛ أن تصديق النبي هو أول الواجبات .

— قال محشي البصائر : وقد يحصل الاشتباه من اشتراك لفظ العادة والاشتباه في معنى لفظ الخارق ، فيعتقد أن كل ما خالف مألوف العادة، فهو كرامة ولو أخذ لفظ العادة على ما وضع في التعريف ، وهي سنة الله المطردة في الخليقة بأسرها، وفهم معنى الخارق لها ، وهو ما يصدر من القادر المختـــار على خلاف ما قرره في نظام الخليقة لانكشفت غمة الوهم في هذا الباب ، جعلنا الله ممن يوالي أولياءه ، ويعادي اعداءه بمنه وفضله .

(١) أمر إجابة الدعوات لكثير من الداعين أمر لا ريب فيه لوروده في الكتب المنزلة،والأحاديث الصحيحة ووقوعه إلى الآن في قضايا لا يحصيها الحسبانقالالأئمة إذا اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه ، وصدق لجوؤه إلى الله تعالى ، وحضور قلبه وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف منه خشوعاً وانكساراً وتضرعاً ورقة وإلحاحاً في المسألة وتوسلا اليه سبحانه بأسمائه وتوحيده ، فيكاد ألا تتخلف الاستجابة وذلك أن الأدعية بمنزلة السلاح ، والسلاح بضاربه لا بحده فقط .

قال الامام ابن القيم في الجواب الكافي : وههنا سؤال مشهور وهو أن المدعو به إن كان قد قدر لم يكنبد منوقوعه دعا به العبد،أو لم يدع وإن لم يكن قد قدرلم يقع سواء سأله العبد ، أو لم يسأله فظنت طائفة صحة هذا السؤال ، فتركت الدعاء وقالت لا فائدة فيه . وهؤلاء مع فرط جهلهم يتناقضون، فان طرد مذهبهم هذا يوجب تعطيل جميع الأسباب فيقال لأحدهم : إن كان الشبع والري قد قدر لك ، فلا بد من وقوعهما أكلت أو لم تأكل ، وان لم يقــدرا لم يقعا أكلت أو لم تأكل (إلى آخر ما أطال به وأطاب بما حاصله) ان الدعاء نوع من الأسباب المقدرة وهكذا حقق ذلك العلامة الشيرازيفيأواسط السفر الثالث من أسفاره الأربعة ، وما ألطف ما أجاب به بعض الصوفية لما سئل ما لنا ندعوه تعالى فلا يستجيب لنا ، فقال : لأنه دعاكم فلم تستجيبوا له .

قال : لأن العلم الثابت بخبر الرسول المؤيد بالمعجزات ، يضاهي العلم الثابت بالضرورة في التيقن والثبات .

قال : ولأن الأحكام الشرعية كلها حقٌ وجوب تصديق مدعي النبوة، وصدق دعواه في البعثة تثبت بخبر الرسول لأن ما يعطي وجوب الاعتقاد هو الشرع ، لأن الحاكم عندنا هو الله تعالى ليس إلا . ولا يلزم الدور من ثبوت الشرع بنفسه لأنه لا يتوقف إلا على العلم بصدقه ، وهو حاصل لتمكن العاقل منه فرط التمكن ، كأنه مركوز في فطرته يكفيه التذكير من الشارع بحمله على الالتفات إلى دعوته ، فإذا التفت اليه المخاطب أدنى التفات يحصل له المعرفة بصدقه ، كما قال الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [1] . أي ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم لفرط تمكنهم منه ، فثبوت الأحكام كلها في نفس الأمر بالوضع الالهي والأمر التكويني ، وثبوت الحجة على المخاطب به بنفس أخبار النبي لفرط تمكنه من معرفته ، فلو أنكره عناداً أو تساهلاً ، فقد حقت عليه الضلالة وسبقت اليه الشقاوة . نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ولو تنزلنا عن دعوى الضرورة والظهور ، فنقول ثبوت المعجزة وصدق النبوة يستند إلى قضية عقلية يعطيها النظر في أحوال النبي وأفعاله وأخباره وأقواله . التي تضمنها القرآن ، واشتملت عليه دواوين السنّة ، وكتب السير والآثار ، فيحصل ذلك بمشافهته في حياته وبمطالعة آثاره بعد مماته اه . كلام المرجاني . ومن سير كلامه وآراءه في حواشي الدواني رأى له نفائس نكت وتحقيقات ، وقوة صدع في الحق وغرائب إختيارات .

الدليل الثالث والعشرون

التحاكم إلى الانصاف :

تبين في مباحث الحكمة المتعالية في طريق التوفيق بين الشريعة والحكمة

(١) سورة ص ، الآية : ٢٩ .

أن الحكمة غير مخالفة للشريعة الحقة الالهية ، بل المقصود منهما شيء واحد هي معرفة الحق الأول وصفاته وأفعاله ، وهذه المعرفة تحصل تارة بطريق الوحي والرسالة ، فتسمى بالنبوة ، وتارة بطريق السلوك والكسب ، فتسمى بالحكمة أو الولاية [1] ، وإنما يقول بمخالفتها في المقصود من لا معرفة له بتطبيق الخطابات الشرعية على البراهين الحكمية ، ولا يقدر على ذلك إلا مؤيد من عند الله كامل في العلوم الحكمية ، مطلع على الاسرار النبوية ، فإنه قد يكون الانسان بارعاً في الحكمة وحدها ولا حظ له من علم الكتاب والشريعة أو بالعكس ، فالعقل السليم إذا تأمل تأملاً شافياً ، وتشبث بذيل الانصاف . متبرئاً عن الميل والانحراف والعناد والاعتساف . وتدبر أن طائفة من العقول الزكية والنفوس المطهرة الذين لم تتدنس بواطنهم بأرجاس الجاهلية . ولا أدناس النفسانية ، ولم ينحرفوا عن سبيل التقديس ، ولم يأتوا بباطل ولا تدليس . وكانوا مؤيدين من عند الله بأمور غريبة في العلم والعمل ومعجزات وخوارق للعادات ، من غير سحر وحيل ، ولا غش ولا دغل ، ثم أصروا على القول بحدوث هذا العالم وبواره بعد ، وبالغوا في ذلك وتشددوا في الانكار على منكريه مع ظهور أنه لا يضرهم القول بقدم العالم ولا يخل بالشريعة في ظاهر الأمر ، فيجزم لا محالة أنهم ما نطقوا عن الهوى ، وما أخبروا إلا عن يقين حق واعتقاد صدق ، ثم إذا رجعنا إلى البراهين العقلية التي لا شك ولا ريب في مقدماتها اليقينية وجدناها ناهضة على أن صانع العالم واحد صمد ، لا يعتريه نقص ،ولا تغير ولا لغوب ولا قصد إلى تحصيل مصلحة يتكمل بها ، ويتبين أنه تام الفعل تام الارادة ولم يزل باسطاً يده بالرحمة والعطاء في الآباد والآزال بلا قصور ، إنما القصور فينا أبناء عالم الدنيا والاجسام وسكان قرية الهيولي الظالم أهلها وهي دار الزوال والانتقال اه . ملخصاً من الاسفار الأربعة للعلامة الشيرازي .

---

(١) في القاموس . ولي الشيء وعليه ولاية وولاية بالكسر والفتح .

الدليل الرابع والعشرون

شهادة الفلاسفة الأقدمين :

قال الحكيم ابن مسكويه في الفوز الاصغر ، لم يختلف أحد من الأوائل ممن استحق هذه التسمية في اثبات الصانع عز وجل ، ولا حكى عن أحد منهم أنه جحده أو أنكر شيئاً من صفاته . وبالواجب وقع هذا الاتفاق بينهم ، لأن الانسان متى تهذب بالتدرب والارتياض ، ودوام لزوم الحق، واسترسل إلى العقل ، وصار مفارقاً للحس والأوهام التابعة له أفضى بغيره من أهل الحكمة ، ووقف بـــه حيث وقفوا . ورأى ما رآه الحكماء ودعا اليه الأنبياء عليهم السلام ، فإن جميعهم إنما أمروا بالتوحيد ولزوم أحكام العدل ، وإقامة السياسات الالهية بالأزمنة والأحوال وحملوا الخواص من الناس على طريقة الأدب والفهم ، فإن الأنبياء عليهم السلام منزلتهم من نفوس الناس منزلة الأطباء من الأبدان ، فهم يعالجون الناس معالجة المرضى . ثم أورد من الحجج البالغة ما يعلم به أن ضرورة البرهان تقود كل من نظر حق النظر إلى التوحيد والاقرار بالصانع الأول الأحد الذي أبدع الأشياء كلها وتعالى الله عنها علواً كبيراً .

وقد أوضح الشيرازي في الأسفار الأربعة ذلك ، ونقل من أقوال الحكماء الأولين ما دل على أنهم قد أصابوا الحق في هذه المسألة وأنهم وافقوا أهل السفارة الالهية في حدوث العالم ورجوعه إلى الخالق الأول تعالى. كيف لا ، وقد قال الفارابي : إن الغاية التي يقصد فيها من تعلم الفلسفة هي معرفة الخالق تعالى ، وإنه واحد وإنه العلة الفاعلة لجميع الأشياء ، وإنه المرتب لهذا العالم بجوده وحكمته وعدله .

وقد اشتهر عن أرسطو القول بقدم العالم مخالفاً لأفلاطون فقام الفارابي يفند هذا الزعم في كتابه الجمع بين رأيي الحكيمين المنوه بهما ، وأبان ما دل عليه فحوى كلامهما من الاتفاق بين ما كانا يعتقدانه ، وزال الشك والارتياب عن قلوب الناظرين في كتبهما ، ولا بأس أن نقتطف جملة من كلامه لتأييد ذلك . قال رحمه الله : ومما يظن بأرسطو طاليس

الحكيم أنه يرى أن العالم قديم مع أن من نظر أقاويله في الربوبية في الكتاب المعروف باثولوجيا [1] لم يشتبه عليه أمره في إثباته الصانع المبدع لهذا العالم، فإن الأمر في تلك الأقاويل أظهر من أن يخفى ، وهناك يبين أن الهيولي أبدعها الباريء جل ثناؤه لا عن شيء ، وإنها تجسمت عن الباريء تعالى وعن ارادته ثم ترتبت . وقد بين في السماع الطبيعي أن الكل لا يمكن حدوثه بالبخت والاتفاق ، وكذلك يقول في العالم جملته ويستدل على ذلك بالنظام البديع الذي يوجد لأجزاء العالم بعضها مع بعض ، وكذا بيّن في كتاب أثولوجيا بياناً شافياً إنها كلها حدثت عن ابداع الباريء لها،وأنه عز وجل هو العلة الفاعلة الواحد الحق مبدع كل شيء على حسب ما يبينه أفلاطون في كتبه في الربوبية .

ثم قال الفارابي : لولا الاطالة لبيّنا أنه ليس لأحد من أهل المذاهب والنِحَل من العلم بحدوث العالم ، واثبات الصانع له ، وتلخيص أمر الابداع مالأرسطو طاليس وقبله لأفلاطون ومن سلك سبيلهما اه .

وللعلامة الشيرازي في الأسفار الأربعة نقول مسهبة عن مشاهير الفلاسفة كلها تدل على أنهم أصابوا الحق في هذه المسألة ، وأنهم وافقوا أهل السفارة الإلهية في حدوث العالم ورجوعه إلى خالق أزلي سبحانه وتعالى، ومن كلام الشيرازي : « من لم يكن دينه دين الأنبياء عليهم السلام ، فليس من الحكمة في شيء ، ولا يعد من الحكماء من ليس له قدم راسخة في معرفة الحقائق . والحكمة من أعظم المواهب والمنح الالهية وأشرف الذخائر والسعادات للنفس الانسانية » .

(١) كذا في الأصل وصوابه بثولوجيا ومعنى ثه أولوجي علم الالهيات .

الدليل الخامس والعشرون

أخذ العقل السليم في الخشية والاشفاق والخروج من الحيرة [1] :

ما جاء على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام من التخويف بالعذاب على الجحود ، والتوعد الأكيد به وقص ما حل بسببه على من مضى من المكذبين ، لما يحمل النفس على أخذ الأهبة والعمل للحيطة إذ العقل يدعو إلى الاعتبار ، والحكمة تحث على الاستبصار . وفي وجدان الأنفس الخوف عند التخويف نزول عن القطع بالتكذيب الذي هو أول ما يرومه الشيطان ، فإذا نزلت من ذلك وجب عليها في شرع العقل تصديق الثقة والعمل بما غلب من الظن احتياطاً وتحرزاً ، فكيف إذا جاء الثقة مع ظن صدقه بالمعجز القاهر وعضدته البراهين المتقدمة وإلى هذه الطريقة الاشارة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أرأيتُم إنْ كانَ منْ عنْدِ الله وكَفَرْتم به وشَهِدَ شاهدٌ منْ بني إسْرائيلَ على مثله فآمَنَ واستكبرتُمْ إنَّ اللهَ لا يَهْدي القَومَ الظّالمينَ ﴾ [2] ، ومن أنفع ما تدفع الحيرة به أنه لا بد من لزوم المحارة في العقول على كل تقدير وبالاسلام تندفع المحارات كلها وتخرج العقول من الظلمات إلى النور [3] ، لأنه لا أهدى منه للعقول ، ولا أشفى منه لأمراض المجتمع كما قال تعالى : ﴿ قُلْ فأتُوا بكِتابٍ منْ عنْدِ الله هُو أهْدَى منْهُما أتّبعْه ﴾ [4] . أي : ولا أهدى ، فوجب اتباعه ، ولو فرض أن المحارة لازمة للاسلام ، فهي لما عداه ألزم . ومن لم يقبل

---

(١) الأصل في هذا الدليل قوله تعالى : (وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) فتحري الرشد هو خلاصة ما بسط هنا .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية : ١٠ .

وكذا قوله تعالى : (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) اهـ .

(٣) وفي التنزيل الاشارة إلى ذلك في آيات كثيرة كآية (ألا بذكر الله تطمئن القلوب وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) .

(٤) سورة القصص ، الآية : ٤٩ .

الايمان بالبرهان والقرآن . قبل الكفر بلا قرآن ولا برهان ، ثم أن مادة هذه الوساوس عجب الانسان بعقله وعلمه وظنه إنه إذا لم يعرف شيئاً ، فهو باطل مع أنه كما قال فيه أصدق القائلين : ﴿ إنَّه كانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [1] ، ولا تتوهم كفر النفس وجفائها برهاناً معارضاً لبراهين الحق ، بل ولا هو شبهة أبداً ، ولذلك يزول ريبها وشكها بمعاينة الأهوال كمعاينة هول المطلع [2] ، ومن طبائع النفوس الايمان عند شدة الخوف ، ولذلك آمن قوم يونس لما رأوا العذاب ، وآمن فرعون حين شاهد الغرق وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله : ﴿ بَلْ هُمْ في شكٍّ منْ ذِكْري بَلْ لمّا يَذُوقُوا عَذَاب ﴾ [3] . ولذلك يرجع كثير من العقلاء عند الموت عن عقائد وقبائح وشبهات كانوا مصرين عليها [4] ، وليس ذلك لتجلي برهان حينئذ ، بل لأن الطبع القاسي كان كالمعارض للبرهان، فلما لان بقي البرهان بلا معارض .

وكذلك لو شاهد فرعون وغيره أعظم برهان بغير خوف ما آمنوا ، كما قال تعالى : ﴿ فمَا كانَ دعْواهُمْ إذْ جاءهُم بأسُنَا إلاَّ أنْ قالُوا إنّا كنّا ظالمينَ ﴾ [5] ، ﴿ فلمّا رأوْا بأسَنَا قالُوا آمنّا بالله وحْدَهُ وكَفَرْنا بما كُنّا به مُشْركينَ ﴾ [6] . وقد أكثر التنزيل الكريم من الجمع بين الأدلة والوعيد سيما قصص المعذبين ، فإنه كان معلوماً

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ .

(٢) المطلع بضم الميم فتشديد الطاء ثم لام مفتوحة موضع الاطلاع من اشراف إلى انحدار ، شبه ما أشرف عليه من الآخرة بذلك .

(٣) سورة ص ، الآية : ٨ .

(٤) وقد أشار لذلك أبو العلاء المعري بقوله في ديوانه لزوم ما لا يلزم .

إذا كنت من فرط السفاه معطلا ... فيا جاحد أشهد أنني غير جاحد
أخاف من الله العقوبة آجلا ... وأزعم أن الأمر في يد واحد
فإني رأيت الملحدين تعودهم ... ندامتهم عند الأكف اللواحد

وحكى الأصمعي أن آخر ما تكلم به ذو الرمة الشاعر المشهور .

يا مخرج الروح من نفسي إذا احتضرت ... وفارج الكرب زحزحني عن النار

(٥) سورة الأعراف ، الآية : ٥ .

(٦) سورة غافر ، الآية : ٨٤ .

لهم بالضرورة ، فتأثيره في النفوس أقوى . وبالجملة ؛ فقد ظهر أن الايمان بالخالق تعالى هو الحق ، وأن الخوف العظيم في عدمه ، كما قال القائل [١] :

قال المنجّم والطّبيـــب كلاهـُما ... لا تبعثِ الأموات قلت اليْكما
إنْ صحّ قولكما فليس بضائري ... أوْ صحّ قولي فالوبالُ عليْكـُما

ومثل ذلك قول الآخر :

ورغّبني في الدين أنّ دليلـَــــه ... قويٌ ويخشى كل شرٍّ بجحـــده
وكرّهني للفكر انّ فسَاده ... جلي ، ويخشى كل شرٍّ بقصده

بل كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أرأيتُمْ إنْ كانَ منْ عنْدِ الله ثم كَفَرْتم به مَنْ أضلّ ممّنْ هُوَ في شِقَاقٍ بعيدٍ ﴾ [٢] . أي من أضل منكم آثر الموصول ليظهر اتصافهم بالصلة ، وهذا المسلك مما تداوى به النفوس الجامحة والوساوس الغالبة . (أشار له الامام السيد اليماني في إيثار الحق رحمه الله تعالى) .

وقد أشار لهذا الدليل حجة الاسلام الغزالي في إحيائه في أواخر كتاب « التوبة » قبيل كتاب « الصبر والشكر » بقوله في علاج الشك الذي هو أحد أسباب وقوع المرء في الذنب ما مثاله . وأما الشك فهو كفر وعلاجه الاسباب التي تعرفه صدق الرسل ، وذلك يطول . ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحد عقله فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات على صدقه . هل هو ممكن ، أو يقول علم أنه محال ، كما علم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة ، فإن قال اعلم استحالته كذلك

---

(١) هو أبو العلاء المعري ونصهما مع تتمتهما كما في اللزوميات :

قال المنجـــم والطبيب كلا همـــا ... لا تحشر الأجســـاد قلت إليكمـــا
إن صح قولكمـــا فلست بخاسر ... أو صح قولي فالخســـار عليكمـــا
طهـــرت ثوبي للصـــلاة وقبله ... طهر فأيـــن الطهر من جسديكمـــا
وذكرت ربي في الضمائـــر مؤنساً ... خلدي بذاك فأوحشا خلديكمـــا
وبكرت في البرديـــن ابغي رحمة ... منه ولا ترعـــان في برديكمـــا
إن لم تعـــد بيدي منافـــع بالذي ... آتى فهل مـــن عائـــد بيديكمـــا
برد التقـــى وإن تهلهل نسجـــه ... خير بعلـــم الله مـــن برديكمـــا

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٥٢ .

فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء . وإن قال : إنّا شاك فيه ، فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولغت فيه حية ، وألقت سمها فيه وجوزت صدقه ، فهل تأكله أو تتركه ، وإن كان ألذ الأطعمة . فنقول : أتركه لا محالة ، لأني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام ، والصبر عنه ، وإن كان شديداً ، فهو قريب ، وإن صدق فتفوتني الحياة ، والموت ، بالاضافة إلى ألم الصبر عن الطعام واضاعته شديد . فيقال له : ياسبحان الله! كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات ، وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء ، بل جميع أصناف العقلاء ، ولست أعني بهم جهال العوام ، بل ذوي الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضاً فيما يقول ، فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر ، وأثبت ثواباً وعقاباً ، وإن اختلفوا في كيفيته ،فإن صدقوا ، فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد ، وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكدرة . فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لا نسبة لمدة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدرنا الدنيا مملوءة بالذرة ، وقدرنا طائراً يلتقط في كل ألف ألف سنة حبة واحدة منها لفنيت الذرة، ولم ينقص أبد الآباد شيئاً ، فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ، ولذلك قال أبو العلاء وذكر الغزالي بيتيه المتقدمين ، ثم قال : ولذلك قال علي رضي الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور ، وكان شاكّاً : إن صح ما قلت فقد تخلصنا جميعاً ، وإلا فقد تخلصت وهلكت ، أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الاحوال .

ثم قال الغزالي : وقد روي في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لعلي بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين ! أخبرنا عن الكفر على ماذا بني ؟ فقال علي رضي الله عنه : « بني على أربع دعائم ، على الجفاء والعمى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ، ومن عمي نسي الذكر ، ومن غفل حاد عن الرشد ، ومن شك غرته

الأماني ، فأخذته الحسرة والندامة ، وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب » .
انتهى كلام الغزالي رحمه الله تعالى .

فذلكة البراهين وحاصل المحصول :

كل من تقدم إلى الأدلة المتقدمة ، وحكم العقل السليم فيها أذعن لعز الحق وسطوته ، وأخذت حجته بناصية شبهته . كيف لا ، وأن أمام المرتاب الفطرة وصدقها . واللغات وأصولها . والتواريخ وفروعها . والشرائع وأركانها . والصنائع وفنونها . والفلسفة ومبادئها ، والكائنات وآياتها .

فيا عجباً كيف يعصى الالـــه أمْ كيف يجحـــده الجاحدُ
وفي كلِّ شيء له آية تدُلُّ على أنّه واحدُ

فذاته العلية سبحانه وإن لم تدركها الأبصار ، فقد أدركتها البصائر بما تشاهده من الآيات الناطقة من قدرته بما يجلو الأذهان ، ويشق غياهب كل شك . وكل من قويت بصيرته واحتد نظره لاحت له الآيات الالهية أوضح من الأمور الأوليات ، لما أنها في نظر العقل أظهر وأنور وأبهى ، على أنّا في جميع ما أوردناه ونورده إنما نكتب لمن يرى للنظر حقاً ، وللعقل قدراً . وله في الانصاف مذهب ، ويدلي إلى المعرفة بنسب . وإلا فيا ضيعة قوانين الحكمة ودلائل المعقول إذ لم تصادف قوة بصيرة وزيادة استعداد وجودة قريحة ، كما قال ابن سهل :

أقلّد وجدي فليبرهن مفندي فما أضيعَ البرهان عند المقلِّدِ

نعوذ بالله من اضاعته ، ونبرأ إلى الله ممن يضيعه .

وهكذا قال العلاّمة الشيرازي في أوائل المجلد الثالث من الأسفار الأربعة : نحن لم نقصد في تحقيق كل مسألة ، وتنقيح كل مطلوب إلا التقرب إلى الله تعالى في ارشاد طالب ذكي . أو تهذيب خاطر نقي ، فإن وافق ذلك نظر أبناء البحث والتدقيق ، فهو الذي أردناه . وإن لم يوافق ، فمعلوم أن الحق لا يوافق عقول قوم فسدت قرائحهم بأمراض باطنية أعيت

أطباء النفوس عن علاجهم حتى خوطب النبي ﷺ : ﴿ إنّك لا تَهْدي مَنْ أحْبَبْتَ ﴾ (١) لا جرم لما شرعوا في الحكمة على غير ما ينبغي ما زادهم إلا نفوراً واستكباراً في الأرض ، حيث لم يظفروا منها بطائل ، ولم يصلوا إلى حاصل ، وفاتهم مع هذا الحرمان العظيم مكنة استعدادهم للاقتداء بالأمثال السمعية والمناهج الشرعية ، وذلك هو الخسران العظيم ، والحرمان الأليم ، وليس للحكيم الرباني مع هؤلاء نداء وخطاب ، كما قال تعالى : ﴿ وإنْ يَرَوْا كلّ آيةٍ لا يُؤمنوا بها ﴾ (٢) ، وكيف يؤمنون بالغيب ولا استعداد لهم ، فإن لقبول الحكمة ونور المعرفة شروطاً وأسباباً ، كانشراح الصدر ، وسلامة الفطرة ، وحسن الخلق ، وجودة الرأي ، وحدة الذهن ، وسرعة الفهم مع ذوق عرفاني ونور قلبي : ﴿ ومَنْ لَمْ يجعَل الله لهُ نُوراً فما لَهُ منْ نورٍ ﴾ (٣) اهـ .

بيان أن أرباب البراهين عوام عند العارفين :

قال المعلم الثاني الفارابي في فصوصه : لا وجود أكمل من وجوده تعالى ، فلا خفاء به من نقص الوجود ، فهو في ذاته ظاهر . ولشدة ظهوره باطن ، وبه يظهر كل ظاهر . كالشمس تظهر كل ظاهر وتستبطن لا عن خفاء .

وقال العارف ابن عطاء الله في لطائف المنن : أرباب الدليل والبرهان عوام عند أهل الشهود والعيان . قدّسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل عليه . وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل . وكيف يكون معرفاً به وهو المعرف له ، ومن كلامه أيضاً شتان بين من يستدل به ويستدل عليه . ومن مناجاته قدس سره : إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ، ومتى

(١) سورة القصص ، الآية : ٥٦ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٦ .
(٣) سورة النور ، الآية : ٤٠ .

بعدت حتّى تكون الآثار هي التي توصل اليك ؟ ومن حكمه إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك ، ومن شدة الظهور الخفاء .

كلمة للجاحظ فيما يدعو لاشهار المشتهر وإظهار الظاهر :

يرى ذو العقل السليم أن في وضوح الحق ونور ضيائه غنية عن اشهاره ومنتدحاً عن اظهاره ، إلا أنّا نستشهد بكلمة للجاحظ في مثل هذا المقام قال : لولا كثرة الضعفاء مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا ، واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا ، وأغمارنا . لما تكلفنا كشف الظاهر واظهار البارز ، والاحتجاج الواضح ، ولذا لم يؤت من أتى إلا من قبل ضعف العناية وقلة المبالاة ، ومن قبل الحداثة والغرارة ، ومن قبل أنهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبل العلم بجليله ما لم تبلغه قواهم ، وتتسع له صدورهم وتحمله أقدارهم . فذهبوا عن الحق يميناً وشمالاً ، لأن من لم يلزم الجادة تخبط . ومن تناول الفرع قبل أحكام الاصل سقط . ومن خرق بنفسه وكلفها فوق طاقتها ، ولم ينل ما لا يقدر عليه تفلت منه ما كان يقدر عليه . فإذا كانوا كذلك ، فإنما أتوا من قبل أنفسهم ، ولم يؤتوا من قبل العلم الصحيح والعقل السليم ، وكل من استغنى عن البحث والتنقيب قل نظره واعتباره ، ومن قل اعتباره قل علمه ، ومن قلّ علمه قل فضله ، ومن قلّ فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يجد راحة الطمأنينة ولا برد اليقين ، وإن لذة البهائم لا تعادل لذة الحكيم العالم ، وأي سرور كسرور اتساع المعرفة ، وكثرة صواب الرأي ، أو النجح الذي لا سبب له إلا حسن النظر ، ثم العلم بالله وحده اه .. ملخصاً .

ولا تنس أمراً آخر قد يحمل هؤلاء الدخلاء الموصوفين على التخبط ألا وهو سكرة الترف والشغف بالسرف ، فتراهم يهيمون في أودية الضلال ، ويركضون في مجال العبث خيول الخيال ، كما قال هشام [١] إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرته فأساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ، ونسب ما في يديه إلى حيلته وحسبه وبيته ورهطه وعشيرته ،

(١) كما في كامل المبرد .

فإذا نزلت به الغير وانكشطت عنه عماية الغي ذل منقاداً وندم حسيراً ، والأصل في هذا قوله تعالى : ﴿ ولكنْ طالَ عليْهم الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبهُم ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿ كلاّ إنَّ الانْسانَ لَيَطْغى إن رآه اسْتغنى ﴾ (٢) . قال بعض الأئمة التفسير : أي ما أسخف عقل الانسان ، فإنه مع شدة فقره في نفسه ، وظهور أن الله مالك كل شيء عنده يطغى ، ويخرج عن الحد الذي عليه أن يقف عنده ، فيستكبر عن الخشوع لربه ، ويتطاول بالأذى على خلقه .

تمثيل حال من لم تقنعه دلائل العقل :

كل من لم تقنعه دلائل العقل وبراهين النظر ، ولم يسلم إلا بما يتناوله اللمس أو يقع تحت الحس ، فذاك بعد في دور الطفولية ، فالأجدر اغلاق باب البحث معه في المسائل العقلية . لأنه غافل عن مبلغ قدر العقل يريد أن يرجع بالافهام القهقرى . وقد قال فلاسفة العمران العلمي ، أنه انقضى من أدوار الأجيال دور الطفولية ، وجاء بالاسلام دور بلوغ الرشد ، ولذا كان من أعلى مزايا الاسلام ومحاسنه إن جاء يخاطب العقل ، ويستنهض الفكر ليصل بالمتفكر إلى اليقين ، فيميز بين ما كان يؤخد بالتقليد ، وبين ما يرشد إلى البرهان السديد . وأما من أراد طمأنينة النفس بطريقة أصحاب الافتراض ، فقد حل به البلاء ، وأحاط به الشقاء ، لأن مزاعمهم جدل وإيهام وتشبيه وتمويه . وترقيق وتزويق . وقشر بلا لب . وأرض بلا ريع . وطريق بلا منار . واسناد بلا متن . المبتدىء فيه سفيه . والمتوسط مخلط . والمنتهي مرتاب . أين هذا من حكمة الوحي التي لا يزال العلم يؤيدها ، والحق يعضدها ، ولا غرو فلطائف الحكمة لا يصل اليها الحس الجافي ، والقلب السقيم ، وإنما تعرض لمن صح ذهنه ، واستنار عقله ، وما ينظر منه في الظنون ، فلا يرث الانسان منه إلا الشك والمرية والاختلاف والفرقة ، وهناك للهوى ولادة وحضانة ، وللباطل استيلاء وجولة ، وللحيرة ركود وإقامة ، وما ألطف قول السند اليماني في إيثار الحق ،

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٦ .
(٢) سورة العلق ، الآية : ٦ .

وأما أئمة الكفر ، فهم كمن استحكم الداء عليه ، فلا تنفعه الأدوية النافعة، فالداعي لهم إلى حق من حقائق الايمان ، وإن جاء بأعظم برهان في اليأس منهم ، وعدم الطمع فيهم كالداعي العميان إلى النور والأموات إلى الخروج من القبور ، وكيف الطمع في هداية قوم قد أقام ربهم عليهم الحجة مراراً. أولها بخلقهم على الفطرة ، وثانيها بطول المهلة،وثالثها ببعثة الرسل بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة . إلى غير ذلك من آيات الأنفس بالآفاق ، فجحدوا الجميع وكفروا الكفر الفظيع مع إيمانهم بأبطل البواطل التي لا يتصور الايمان بمثلها من عاقل اهـ .

المطلب الثاني

في تحقيق مسائل من الالهيات

استحالة اكتناه ذات الخالق تعالى :

كل من تعرض لمعرفة الذات العلية بعقله ، فقد تعرض لأمر يعجز عنه . ولا يمكنه بلوغ الأرب منه . والمرء إذا عجز عن معرفة كنه نفسه، بل عن اكتناه أبسط الأشياء لديه ، فعن معرفة اكتناه الحق تعالى بالأولى. فمعرفتنا به سبحانه إنما هي علمنا اليقيني بوجوده وبأسمائه الحسنى ، وأنه ليس كمثاله شيء ، ومما ينسب لعلي رضي الله عنه :

كيفيّـــة المرء ليسَ المرء يدركهـــا   فكيف كيفيّة الجبّار ذي القدمِ
هو الذي أنشأ الأشيـــاء مُبتدعـــاً   فكيف يدركه مستحدث النسمِ

قال الفارابي في فصوص الحكم : الذات الاحدية لا سبيل إلى إدراكها ، بل تعرف بصفاتها وغاية السبيل اليها الاستبصار بأن لا سبيل اليها وتتعالى عما يصفه الجاهلون ، وقال محشي الاسفار الاربعة في موقف الاشارة إلى واجب الوجود ؛ لعلك تقول هو تعالى أحتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار ، فكما لا تناله الاشارة الحسية والخيالية والوهمية ، كذلك لا تناله الاشارة العقلية ، فاعلم أن هذا النوع من التنزيه فرع باب التعطيل ، فإن اثبات ذات واجب الوجود وصفاتها وغير ذلك من معارفها ليس اكتناهاً للذات ، ومن الذي شرط في العلم والمعرفة الاكتناه اه . ملخصاً .

استحالة تولد الخلق من ذاته تعالى :

مما يجب للواجب تعالى عدم المماثلة لشيء ما من الخلق ، وعدم التجزؤ والانقسام ، فالتولد من شأن المحدث لأنه انفعال وتأثر لما قام به ، وهو مستحيل في جانب الواجب تعالى لأنه تغير والتغير أثر علة في المتغير والقديم لا تفعل فيه العلل ، فلا يمكن انفعال في ذاته تعالى بوجه ما : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ * اللهُ الصَّمدُ * لَمْ يلِدْ ولم يولد * ولم يكنْ لَهُ كُفُواً أحدٌ ﴾ [1] .

قال الامام ابن تيمية رحمه الله : استحالت الولادة عليه تعالى لأنها لا تكون إلا من أصلين ، وما كان من المتولد عيناً قائمة بنفسها ، فلا بد لها من مادة تخرج منها وما كان عرضاً قائماً بغيره ، فلا بد له من محل يقوم به ، فالأول نفاه بقوله ﴿ أحد ﴾ فإن الأحد هو الذي لا كفؤ له ، ولا نظير ، فيمتنع أن تكون له صاحبة ﴿ وخلَقَ كلّ شيء وهُوَ بكلّ شيء عليمٍ ﴾ [2] . فنفى سبحانه الولد بامتناع لازمه عليه ، فإن انتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم ، وبأنه خالق كل شيء ، وكل ما سواه مخلوق له ليس فيه شيء مولود له . والثاني نفاه بكونه سبحانه ﴿ الصمد ﴾ . والتولد من أصلين يكون بجزأين ينفصلان من الأصلين ، كتولد الحيوان من أبيه وأمه بالمني الذي ينفصل من أبيه وأمه ، فهذا التولد يفتقر إلى أصل آخر ، وإلى أن يخرج منهما شيء ، وكل ذلك ممتنع في حق الله تعالى فإنه (أحد) ليس له كفؤ يكون صاحبة ونظيراً وهو (صمد) لا يخرج منه شيء . فكل واحد من كونه أحداً ، ومن كونه صمداً يمنع أن يكون والداً ، ويمنع أن يكون مولوداً بطريق الأولى والأخرى . وكما أن التوالد من الحيوان لايكون إلا من أصلين سواء كان الاصلان من جنس الولد، وهـــو الحيوان المتولد، أو من غير جنسه وهو المتولد ، فكذلك في غير الحيوان كالنار المتولدة من الزندين .

---

(١) سورة الاخلاص ، الآيات : ١ — ٤ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٠١ .

ثم قال : وأما ما يستعمل من تولد الاعراض كما يقال تولد الشعاع ، وتولد العلم عن الفكر ،وتولد الشبع عن الأكل ، وتولدت الحرارة عن الحركة ونحو ذلك ، فهذا ليس من تولد الاعيان مع أن هذا لا بد له من محل ، ولا بد له من أصلين ا هـ .. كلامه . رحمه الله في تفسير سورة الاخلاص ، وقد عقد فيه فصلا للرد على الفلاسفة القائلين بقدم العالم وصدوره عن علة موجبة جديراً بالمراجعة .

بطلان الحلول والاتحاد :

لكل ذات حقيقة وهوية وصفة تمتاز بها عما سواها معروف ذلك في بداهة العقل ، فاستحالة الحلول والاتحاد جلية . بيـــان ذلك أن الاتحاد يطلق على ثلاثة أنحاء :

الأول : أن يصير الشيء بعينه شيئاً آخر من غير أن يزول عنه شيء ، أو ينضم اليه شيء ، وهذا محال مطلقاً سواء كان في الواجب تعالى ، أو في غيره ،لأن المتحدين إن بقيا فهما اثنان فلا اتحاد ، وإن فنيا فهما معدومان ؛ وإن فني أحدهما وبقي الآخر فلا اتحاد أيضاً . بل بقاء واحد وفناء آخر .

والثاني : أن ينضم اليه شيء ، فيحصل منهما حقيقة واحدة بحيث يكون المجموع شخصاً واحداً آخر ، كما يقال : صار التراب طيناً .

والثالث : أن يصير الشيء شيئاً آخـــر بطريق الاستحالة في جوهره أو عرضه ، كما يقال : صار الماء هواء وصار الأبيض أسود ، والكل في حقه تعالى محال ، أما الأول فلما مر . وأما الثاني فلأنه اتحاد بطريق التركيب والواجب تعالى منزه عن أن يكون جزءاً بحيث يحصل منه ، ومن شيء آخر حقيقة واحدة لأن الجزء الآخر يكون موجوداً ممكناً ، فيكون فاعله ذاته تعالى ولا تركيب حقيقياً بين الفاعل والمفعول لتمايزهما في الوجود ، فلا تحصل حقيقة موصوفة بالوحدة في الخارج ، وأما الثالث : فلأن التغير الجوهري والعرضي محال في حقه تعالى ، لعدم التبدل في صفاته الحقيقية . هذا ما في شرح الدواني وحواشيه .

قال العلامة الدميري : قولهم اتحد كذا بكذا لا يخلو من أربعة أوجه :

الأول : أنه امتزاج واختلاط كامتزاج اللبن بالماء ، وهذا ظاهر البطلان ، فإن الامتزاج إنما يكون من جسمين ، فأما القديم فلا يجوز امتزاجه بغيره .

الثاني : أن يكون معناه أنهما صارا شيئاً واحداً كالحديدة إذا احميت بالنار ، وهذا محال لأن الحرارة الداخلة على الحديدة عرض زائد دخل عليها بواسطة مجاورتها النار ، والنار جسم . فالقول بمثل ذلك بين قديم وحادث محال .

الثالث : أن معناه المجاورة ، كالثوب على اللابس ، الظل والشمس على الجدار ، وهذا محال أيضاً ، فإن ضوء الشمس أجزاء منتشرة لا منبسطة على ما وقعت عليه ، والثوب والجسم يتجاوران ، فأما القديم والحادث فلا يتجاوران ، ولا يمتزجان .

الرابع : أن يكون الاتحاد بمعنى الاتصاف ، فيكون أحدهما وصفاً للآخر ، وهذا محال من وجوه : منها : أن الصفات لا تنتقل من موصوف إلى موصوف ولو انتقلت لخلا موصوفها فيلزم نقصه .

ومن قال أن الاتحاد على جهة الظهور كظهور كتابة الخاتم إذا وقع على طين أو شمع أو كظهور صورة الانسان في المرآة فقوله لا يثبت الاتحاد الحقيقي بل يثبت التغاير ، لأن كتابة الخاتم الظاهرة على طين أو شمع غير الخاتم ، وصورة الانسان في المرآة غير الانسان ، وليس ذلك بحلول ولا مجاورة ولا امتزاج ، ثم المعقول من الحلول عند الجمهور قيام موجود على سبيل التبعية بشرط امتناع قيامه بذاته ، فهو بهذا المعنى محال أيضاً ، لأن حلول الشيء لا يتصور إلا إذا كان الحال حيث لا يتعين إلا بتوسط المحل ، ولا يمكن أن يتعين واجب الوجود بغيره ، لأن التعين أثر التعيين ، فيلزم كونه معلولا ومتأثراً ، وهذا محال عليه تعالى ، فإذاً حلوله في غيره محال .

قال إمام الصوفية الشيخ محي الدين بن عربي : ما قال بالاتحاد. إلا أهل الالحاد . كما أن القائل بالحلول . من أهل الجهل والفضول .

وقال أيضاً ؛ لو صح أن يرقى الانسان عن انسانيته ، ويتحد بخالقه لصح انقلاب الحقائق ، وخرج الاله عن كونه إلهاً وصار الحق خلقاً والخلق حقاً ، وما وثق أحد بعلم وصار المحال واجباً ، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبداً (١) .

ومسألة بطلان الحلول والاتحاد تذكر في علم الطبيعة في بحث عدم التداخل في المادة ، فقد تقرر ثمة أنه لا يمكن أن يشغل جسمان أو جزءان من مادة حيزاً واحداً في آن واحد ، وحينئذ فدخول سن السهم في الخشب ، إنما هو في الخلو الحاصل من تبعيده أجزاء الخشب لا نفوذ في نفس الأجزاء ، ودخول الماء في الأسفنج والطباشير حلول في المسام الموجودة بين الأجزاء ولذا لو غمرت يد في آنية ماء لشوهد ارتفاع سطح الماء ، وبعض المزوجات كالذي من الذهب والفضة ، فإنه يشغل حيزاً أقل من الحيز الذي يشغله كل من المزوجين على حدته ، ولا يقال حينئذ أن الاجزاء تداخلت لأنا نقول أنها تمازجت ، حتى نفذ أكثرها صلابة في مسام أقلها صلابة ، وبذلك أمكن للعقل تصور كيفية التمازج ، ولا يتصور له وجود جزأين معاً في حيز واحد .

الاستدلال على أن من الموجودات ما لا يناله الحس وما هو مجرد عن المادة :

قال إمام الحكماء المتأخرين ابن سينا في اشاراته : قد يغلب على أوهام الناس أن الموجود هو المحسوس ، وأن ما لا يناله الحس بجوهره ، ففرض وجوده محال وإن ما لا يتخصص بمكان أو وضع بذاته كالجسم أو بسبب ما هو فيه كأحوال الجسم ، فلا حظ له من الوجود ، ثم بين فساد قولهم وبطلانه من طريقين :

---

(١) نقل ذلك الشعراني في اليواقيت .

الأولى : الاستدلال بالمحسوسات على وجود ما ليس بمحسوس وفيه وجوه :

أحدها ؛ كون المحسوسات مشتملة على طبائعها المجردة وهي غير محسوسة [1] ، فقد خرج من المحسوسات ما ليس بمحسوس .

وثانيها ؛ أن الاعتراف بالمحسوس والمتوهم اعتراف بالحس والوهم وهما غير محسوسين .

وثالثها ؛ أن الاعتراف بالمحسوس والمتوهم وبالحس والوهم اعتراف بالعقل الذي يميز بين الحس والمحسوس ، والوهم والموهوم ، والعقل ليس بمحسوس .

الطريقة الثانية : الاستدلال بعلائق المحسوسات من العشق والخجل والغضب وغيرها ، فإن الاعتراف بالمحسوسات لا يستلزم الاعتراف بها ، لكنها موجودة بالضرورة ، وطبائعها ليست مدركة بالحس ولا بالوهم ، وترى تتمة البحث في شروح الاشارات وفيها : أن الحكم بأن من الموجودات ما لا يناله الحس قضية قريبة إلى الطبع سهلة الدرك [2] يجب ألا يختلف فيها سيما وقد بنيت على أن الطبيعة المشتركة موجودة ، ولا شك أنها منخرطة في سلك البديهات ، وقد أشرنا قبل إلى أن المقصد الأسنى من الفلسفة هو طلب حقائق الموجودات ، والبحث عن الكائنات والاستدلال بالحاضرات على الغائبات ، والمحسوسات على المعقولات ، وبالجسمانيات على الروحانيات ، وبالرياضات على الطبيعيات ، وبالطبيعيات على الالهيات التي هي الغاية القصوى في العلوم والمعارف والسعادة الأبدية .

---

(١) كاشتمال أفراد الانسان على حقيقة الانسانية ، واشتراك أشخاصه في كليها مما لا يكون محسوساً مع أنه معقول ، ويسمى هذا – أي مفهوم الكلي من حيث هو هو – كلياً طبيعياً ، لأنه طبيعة من الطبائع أو لأنه موجود في الطبيعة أي الخارج ، لأن الانسان مطلقاً جزء من زيد الموجود ، وجزء الموجود موجود .

(٢) قال في المصباح ، والدرك : بفتحتين وسكون الراء لغة اسم من أدركت الشيء .

موقف العقل أمام تاريخ الخليقة وكيفية التكوين :

بذل الباحثون من كل أمة جهدهم ، ونقبوا عن تاريخ بدء هذا الكون وعن مادته ، ورووا ما لا سند فيه ولا صحة لمخرجه ، فوقعوا في عمياء مظلمة ، وتيهاء مقفرة . ويالله ما يفعل الفضول والايغال والشره في تعرف المجهول . وقد تناقضت المأثورات عن الأقدمين في ذلك تناقضاً بيِّناً ، فيرى ما أثر عن أسفار الصينيين في ذلك يباين ما نقل في كتب الهنود ، وما حكي عن الكلدانيين المتلقفين عن البابليين غير ما روي عن المصريين الأول ، ولا عجب فإن بدء الخلق ومادته لا يمكن الوصول اليها بوجه ما ، لأنها من غيب الغيوب ، فعبثاً محاولة ادراكها واضاعة الوقت في التنقيب عنها ، وفرض الفروض والمقاييس لها . وقد سد القرآن الكريم السبل دون ذلك بقوله تعالى : ﴿ ما أشْهَدتُهُم خَلْقَ السّموات والأرض ولا خَلْقَ أنفُسهم ومَا كنت متّخذَ المُضلِّين عَضُداً ﴾ [١] ، فجلى للمؤمنين هذه الحقيقة ، وحسم شبهة كل متخرص بأنه يحاول الحكم بالوهم والحسبان [٢] ، فيما لا يقبل فيه إلا شهود العيان وشهوده مفقود ؛ فتحكمه في هذه الدعوى مردود .

قال حكيم : يمكن للنباتي أن يعرف ما يتكون منه النبات وكيف ينبت وينمو ويتغذى ، وللطبيب أن يعرف كيفية تولد الحيوان والأطوار التي يتدرج فيها منذ يكون نطفة إلى أن يكون انساناً مستقلاً عاقلاً ، ولكن لا يعرف نباتي ولا طبيب كيف وجدت أنواع النباتات وأنواع الحيوان ، أو مادتهما لأول مرة ، ولا كيف وجد غيرهما من المخلوقات فأولى أن تكون العلاقة بين الخالق والمخلوق من هذه الجهة — جهة الايجاد والخلق — لا يمكن اكتناهها اه ...

وبالجملة ؛ فالعالم كما يرى من العلم أن يقر بعجزه عن ادراك خالق الكون ، كذلك يرى من العلم أن يقر بقصوره عن ادراك كيفية خلق

---

(١) سورة الكهف ، الآية : ٥١ .

(٢) بكسر الحاء مصدر حسب بمعنى ظن .

الكون ومبدئه ، وكيف لا يقر بقصوره ، وكل يوم يكتشف من قوى الوجود ما لم يكن يحلم به ، ويرى بعينيه أن مجال البحث بعيد الاكناف مجاهيل الوجود لا تدخل تحت حساب ، وتبرهن له المكتشفات كل حين بأنه كان نزر المعرفة ضئيل الادراك : ﴿ ومَا أوتيتُم منَ العِلْمِ إلاَّ قليلاً ﴾ [1] . ﴿ سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لنَا إلاَّ ما علّمْتنا إنّكَ أنْتَ العَليمُ الحكيم ﴾ [2] .

بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه :

قال الامام الغزالي في الاحياء بعد هذه الترجمة ما مثاله ، أعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلا بد من بيان السبب فيه ، وإنما قلنا أنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا نفهمه إلا بمثال ، وهو أنّا إذا رأينا انساناً يكتب أو يخيط مثلا ، كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات ، فحياته وعلمه وقدرته وارادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه كل ذلك لا نعرفه ، وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها وبعضها نشك فيه ، كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته ، أما حياته وقدرته وارادته وعلمه وكونه حيواناً ، فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وارادته ، فإن هذه الصفات لا تحس بشيء من الحواس الخمس ، ثم لا يمكن أن تعرف حياته وقدرته وارادته ، إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد ، وهو مع ذلك جلي واضح ، ووجود الله تعالى ، وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة . كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ، ونبات وشجر وحيوان ، وسماء وأرض وكواكب ، وبر وبحر ونار وهواء وجوهر

(١) سورة الاسراء ، الآية : ٨٥ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٢ .

وعرض ، بل أول شاهد عايه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا ، وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة، وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد ، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة ، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته، والموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا ، وليس يشهد لها إلا شاهد واحد ، وهو ما أحسسنا به من حركة يده ، فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها ، إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله . إذ كل ذرة فانها تنادي بلسان حالها ، أنه ليس وجودها بنفسها ، ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولاً تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا ، وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة ، فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق في الوجود شيء مدرك ومحسوس ومعقول ، وحاضر وغائب ، ألا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره ، فانبهرت العقول، ودهشت عن ادراكه ، فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا ، فله سببان :

أحدهما ؛ خفاؤه في نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله ، والآخر ما يتناهي وضوحه .

هذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ، ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره ، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الالهية في نهاية الاشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب

باشراق نوره . واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر ادراكه . فلو اختلفت الأشياء ، فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإنّا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ، ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها ، لكنا نظن أنه لا هيئة في الاجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرهما ، فإنا لا نشاهد في الأسود إلا السواد ، وفي الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع ، أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور . هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر في نفسه وهو يظهر لغيره . انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ، فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض ، وبطل الملك والملكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به ، وبعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدلالة ، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب في قصور الافهام اه ..

الرد على من زعم أن الكلام في الالهيات بدعة وأن الأولى السكوت :

قدمنا أول الكتاب في وجوب العناية بدحر شبه المعطلة ما فيه مقنع ، ثم أظفرنا تعالى وله الحمد بفتوى في ذلك الشيخ الاسلام عز الدين بن

عبد السلام رحمه الله أثرها عنه الامام تاج الدين الفزاري الشافعي في فتاويه [1] ، فآثرنا ذكرها هنا تأكيداً لما سبق . وتأييداً للحق .

قال رحمه الله : زعم أن المتكلمين في ذلك على باطل خطأ ، لأنه منع لأهل الحق من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن لأهل الحق أن ينكروا المنكـــر ويردوا على أهل الباطل أقوالهم وبدعهم ، فكيف يكون مخطئاً من أنكر المنكر ودعا إلى المعروف ، ولم يزل السلف ينكرون على أهل البدع بدعهم وينصون على الحق في ذلك ، كما في مسائل القدر والارجاء ، وخلق القرآن ونفي الصفات وغير ذلك .

ثم قال : ولو جاءنا واحد وقال : أنا متحير في اثبات شيء من ذلك أو نفيه ، فهل نقول له حينئذ لا تسأل عن هذا ، فإن سؤالك عنه بدعة ، وتأمره أن يبقى على شكه وتردده في ذلك ، ولا نبين الحق من الباطل ، والخطأ من الصواب ، لأن الكلام في ذلك بدعة . كلا ، وهذا باب لو فتح لأضل الاسلام ، وارتفعت الأحكام . وكيف لا يكون ذلك من الدين وقد تكلمت فيه طوائف المسلمين . وأما الافتراء على الصحابة والتابعين وأئمة المتقين رضوان الله عليهم أجمعين ، بأنهم سكتوا عن ذلك ، فجهالة عظيمة ، لأن سكوتهم عن ذلك كان قبل ظهور البدعة ولا حجة في سكوتهم ، لأنهم سكتوا حيث يجوز لهم السكوت إلى أن ظهرت البدعة فتكلموا فيها ، فالبدع يجوز السكوت عنها ما دامت خامدة ساكنة ، فإن ظهرت وسارت وجب الابتدار إلى انكارها وابطالها ، وتبيين الحق في ذلك نصحاً لدين الله ، وعملاً بكتابه إذ يقول فيه : ﴿ ولتَكُن منكم أمّةٌ يدعُونَ إلى الخير ويأمُرونَ بالمعرُوفِ وينهَوْنَ عنِ المُنكر ﴾ [2] الآية . وان نسبهم إلى أنهم سكتوا مع ظهور البدع عن تعيين الحق من الباطل ، فقد فسقهم ونسبهم إلى ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع أن المنقول عنهم بخلاف قوله ، فإنهم تكلموا على البدع وعابوها ،

(١) من نوادر الفتاوى والكتب المخطوطة عندنا الموروثة عن الجد رحمه الله ، وقد كان يعجب بها بعض الأعلام ويطالعها كثيراً .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٤ .

وميزوا الحق من الباطل ونصوا عليه ، ولم يقولوا لأحد لا يتكلم فيها بنفي ولا اثبات ، بل منهم من عظم الأمر في ذلك حتى كفروا بعض أهل البدع ومنهم من سكت اكتفاء بكلام غيره لسقوط الفرض . وكيف يجوز السكوت عن باطل قد تمكنت شبهته في القلوب ، وترك صاحبها مرتبكاً في ضلالته مصراً على جهالته .

والتكلم في حل الشبه سنّة أول من عمل بها رسول الله ﷺ (١) ، ثم جرى على ذلك الصحابة والتابعون وعلماء المسلمين إلى يومنا هذا . وقد تبرأ ابن عمر من القدرية في حديث حميد بن عبد الرحمن الحميري (٢) لما أخبر بقول معبد في القدر . وناظر علي في القدر . وكذلك ناظر ابن عباس وعلي الخوارج ، وناظر أبو حنيفة الخوارج . ومناظرة الشافعي مع حفص الفرد مشهورة (٣) ، وناظر السلف المعتزلة القائلين بخلق القرآن وخلق أعمال العباد ، وأنكروا على الجبرية والمرجئة ما ابتدعوه ونصوا على أن الحق على خلافهم. ولم ينقل عن أحد منهم أنه أمرجاهلاً بالسكوت عن الحق ، بل دعوهم إلى اعتقاد الحق وعينوه لهم ، ولم يجعلوه تلبيساً بالباطل ، وجرى على طريقتهم في ذلك أكثر العلماء ، وصنفوا فيه التصانيف كالحارث بن أسيد المحاسبي — وكان مقدماً في علم الطريقة والشريعة — وأبي الحسن الأشعري ، وأبي بكر الباقلاني ، وأبي اسحاق الاسفراييني ، وإمام الحرمين ، والغزالي ، والقشيري ، ابنه أبي نصر ، وابن فورك وغيرهم ممن يكثر تعداده ، فزعـــم أن من سنن الصحابة والتابعين ملازمة السكوت في ذلك خطأ عظيم فاحش لا يبوء به موفق ، ولا ينتحله عاقل ، لأنه قد أوجب على من شك في ذلك أو في شيء منه أن يبقى على شكه وتردده متحيراً في الله متردداً بين ما سنح له من الخواطر

---

(١) أي اقتداء التنزيل الكريم في الرد على المشركين وأهل الكتاب ، والأجوبة عن شبههم في آيات لاتحصى ، والسنة بيان للتنزيل وشرح له ، وهو أصلها وكليها الأعظم .

(٢) رواه مسلم في كتاب الايمان من أول صحيحه .

(٣) حفص الفرد قال الغزالي ، كان من متكلمي المعتزلة ، وقال الزبيدي ، تفقه على الامام أبي يوسف وكان من أصحابه ، ثم مال إلى رأي المعتزلة وصار يناضل عنهم حتى صار من متكلميهم .

الدائرة بين الكفر والايمان مخالفاً لقوله تعالى : ﴿ وأسْألوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ ﴾ [1] . ولقول رسول الله ﷺ : « إنما شفاء العي السؤال » ، فيخرج من ذلك أن زاعم ذلك أوجب على المتحير في الله وصفاته أن يبقى على تحيره في ذلك وتشككه إلى يوم يلقاه مذموماً لقوله تعالى : ﴿ وارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فهُمْ في رَيْبهم يَتَرَدّدون ﴾ [2] .

وقد نص علماء المسلمين الذين يجب المرجع إلى أقوالهم على أن من تمكن من قلبه شبهة لزمه السعي في إبطالها وقطعها ، وكيف لا يكون كذلك ، وقد قال رسول الله ﷺ : « دعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، ومقتضى هذا وجوب سعي المرتاب الشاك في ازالة ريبه وشكه ، وقد منعه ذاك الزاعم المسكين من ذلك وجعله من جملة البدع مع أن أدلة الشرع تنادي عليه بأنه مفروض واجب لا يسع تركه ولا تجوز مخالفته .

وأما تشديد الشافعي رضي الله عنه على أهل الكلام ، فإن هذا الاسم كان في زمن الشافعي مخصوصاً بأرباب الأهواء الخارجين عن الحق ، فأطلقه باعتبار عرف أهل زمانه ، ثم صار هذا الاسم عاماً بعده ، وما ذكره عن الغزالي في كتاب الجام العوام ، فليس ذلك بنهي لهم عن اعتقاد الحق والأمر بالارتياب والتشكك بين الخطأ والصواب ، وإنما نهاهم أن يتكلموا بما لا يعلمونه كي لا يخرجهم الكلام إلى الكفر والابتداع ، مع أن كتب الغزالي مشحونة بأنه يجب على المرء تصحيح اعتقاده ، وأنه إن عرضت له شبهة لزمه السعي في ازالتها ، وذكر ذلك في الأحياء [3] وهو آخر ما صنفه واعتمد عليه ، فهذه طريقة علماء الدين وسيرة العباد الصالحين : ﴿ فإنْ يَكْفُرْ بها هؤلاء فقَدْ وكّلْنا بها قوْماً ليْسُوا بِكَافرينَ ﴾ [4] اهـ . كلام الامام ابن عبد السلام .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٤٣ ، وسورة الأنبياء ، الآية : ٧ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٤٥ .

(٣) أي في الفصل الثاني من كتاب قواعد العقائد ، فانظره فإنه مهم .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : ٨٩ .

المطلب الثالث

في المادة وشبه الماديين وابطالها وما يتبع ذلك . وفيه مقالات عديدة

معنى المادة :

المادة لها اسماء باعتبارات ، فمن جهة توارد الصور المختلفة عليها مادة وطينة ، ومن جهة استعدادها للصور قابل وهيولي . ومن جهة أن التركيب يبتدىء منها عنصر . ومن جهة أن التحليل ينتهي اليها اسطقس (كما في الكليات) ، وقد كثر اطلاقها على مجموع الأجرام التي يتألف عنها العالم المشاهد . فالماديون هم الذاهبون إلى نفي كل موجود سوى المادة المذكورة ، وإن وصف الوجود مختص بما يدرك بالحواس الخمس لا يتناول شيئاً وراءه .

قال السيد[١] : ولما سئلوا عن منشأ الاختلاف في صور المواد وخواصها والتنوع الواقع في آثارها نسبه الأقدمون منهم إلى طبيعتها ، ولهذا اشتهرت هذه الطائفة عند العرب بالطبيعيين اهـ.

وسيأتي ذكر الاشارة اليهم في القرآن الكريم في مقالة على حدة في آخر هذا المطلب .

شبهة الماديين :

مضى أولاً في التمهيد الخامس أن من فروض الكفاية نعلم تفصيل

---

(١) في الرد على الدهريين .

الدلائل ، ليتمكن من ازالة الشبهة ، فيضطرنا الأمر إلى ذكر ملخص معتقد هؤلاء الماديين ليتبصر المحق المفوق أسنة الردود مقاتل المبطل ومطاعنه ، فيكون أنفذ لسهمه وأوقع لمرماه فنقول : زعم الماديون أن المادة مؤلفة من عناصر مختلفة. وان هذه العناصر تتألف من جواهر فردة بسيطة متماثلة ، ثم خالفهم المتأخرون منهم ، وناقضوهم فقالوا : إن الجواهر الفردة ليست بسيطة ولا متماثلة ، بل هي أيضاً تتألف من ذرات يستحيل على العقل تصورها ، وسموا تلك الذرات بالكريات ، وقالوا : إن هذه الكريات مدارات كهربائية ، وإنه بحسب مجرى الكهربائية من حيث سرعتها وكمية الكريات الحاملة لها تتشكل الجواهر. وتتنوع العناصر. وزعموا أيضاً أن الهيولي وجدث بنفسها ، ويستحيل أن تكون من العدم.

قالوا : لأن العقل لا يمكن أن يتصور مادة تتلاشى إلى درجة العدم ، فكيف يحكم بوجودها في زمن من الأزمان في حالة لا يمكن أن تصير اليها. وكل ما يستطيع العقل أن يصل اليه إنما هو أدق جزء من أجزائها بحيث يستحيل على التصور أن يدرك ما وراءه ، فإذا كانت المادة لا تتلاشى ، وهو ناموس طبيعي ، فهي لم تحدث من العدم ، ولكنها هي وما بها من القوى أزلية وجدت في أبسط ما يستطيع العقل تصوره من النظام كل أجزائها متماثلة ، ثم تغيرت وتشكلت ، وما زالت تتغير وتزداد تركيباً ، حتى ظهر العالم وبرزت الطبيعة بنباتها وحيوانها وجمادها . فالمادة والقوة هما الشيئان الأزليان الأبديان وجدا ، ولم يزالا واحداً في كل صور الوجود . ومهما تنوعت أشكال المادة وتغيرت مظاهرها ، فهي واحدة لم تخلق ولن تتلاشى ، كذلك القوة التي بها ندرك المادة ونشعر بها دائمة لا تنقص ، ولا تضمحل ، وكل ما في الكون من أفلاك ونجوم وحي وجماد إنما هو نتيجة من نتائج القوة الفاعلة في المادة . فالكون (على مذهبهم هذا أو الحادهم) حادث بالصدفة من تفاعل القوى والمادة ، فهم ينكرون الخالق (نعوذ بالله تعالى) ، ولا يقرون بالحدوث من العدم. ثم قاموا يبنون على أزلية المادة كيفية حدوث العوالم ، فاتخذ بعضهم النشوء الطبيعي ناموساً عاماً ، وفسره بطرائق كثيرة .

هذا ملخص معتقدهم أو إلحادهم . وسترى بحوله تعالى نقضه أنكاثاً. وأحلامه أضغاثاً في مقالات سابغات نستهلها بذكر أن هذا المذهب تتبرأ منه الفلسفة ، كما تتبرأ الحكمة من السفه.

تبرؤ الفلسفة من مذهب الماديين :

إن عقلاء الامم قاطبة ، وحكماء المذاهب والأديان كافة ليعجبون غاية العجب مما أتى به الماديون من تلك الخيالات . ثم افراغ ما بها من التمحلات في قالب المعلومات ذلك لأنه لم يعهد في الفلسفة أن يكون عمادها الفرض والوهم . ولا صح في العلوم الحقيقية أن تناقض قضايا العقل، ولا أن يكون الابهام رائدها ، وعدم التجلي للنفس قائدها. فإن العقول السليمة . والقواعد القويمة ، تبرأ إلى الحق أن تركن إلى أمور فرضية. أو تعقد على مباحث وهمية . أو تزول عند كل ناقل . أو تستوحش لشبهة أي قائل. أو تقبل ما ينابذ الفطرة الصحيحة ، أو يعاند الأقيسة الصريحة . إلا أن تكون أصيبت بخلل أو خبل والجنون فنون، وليست محنة الأمم بهؤلاء الماديين بأعظم من محنة العقل الذي لم يزالوا يعبثون به حتى لو تجسم نفساً لسعوا في ذمها ، أو تمثل داراً لجهدوا في هدمها. كأنهم لم يخلقوا إلا ليطمسوا عين النور ، ويقلبوا أعيان الأمور. فيجعلوا الضوء ظلمة ، ويعكسوا البدعة سنّة ، حتى كأن سوفسطا استخلفهم على جحد ما يدرك عياناً ويعرف إيقاناً، فهم وارثوه في الباطـــل . وناصرو جهله على كل عاقل ، كيف لا ، وإن جعل الحكم بالوهم أساساً ، والتعصب للأمر الفرضي ركناً هدم للفلسفة وشذوذ عن العلم، فقد اتفقت الفلاسفة قاطبة ، بل الامم كافة على أن ما لم يتحقق وجوده كان معدوماً، وأنه إذا عدم شيء عدم اسمه أيضاً ، لأن اسمه فرع عليه وعينه أصل له ، وإذا ارتفع الاصل ارتفع الفرع هذا ما لا دفاع له ولا امتناع منه ،فبأية فلسفة سوغ الحكم على الموهوم ، وبأي قاعدة استجيز تسمية المعدوم . وأي علم يقبل هذه التخرصات . وأي عقل سليم يسلم هذه الايهامات. لا جرم أن ذلك ضلال وتضليل للعقـــول . وتشويه للحكمة وعبث

بالأصول . ومن السفه والسفسفة التلاعب بقوانين الفلسفة . فإن الفلسفة علم العلوم وصناعة الصناعات ، فمن المحال أن تعطى في موضع الشك اليقين . وفي موضع الظن العلم ، بل تعطي في كل شي ما هو خاصته وحقيقته إن شكاً فشك وإن يقيناً فيقين ، فرأيهم المذكور ، لا يكون من الفلسفة ، حتى يكون الجهل من العلم ، والظلام من النور.

قال الطوسي : وصى ابن سينا باختبار من يدعي الفلسفة بأمور أربعة، اثنان راجعان إليهم في أنفسهم. أحدهما إلى عقولهم النظرية وهو الوثوق بنقاء سريرتهم ، والثاني إلى عقولهم العملية ، وهو الوثوق باستقامة سيرتهم . واثنان راجعان اليهم في أنفسهم بالقياس إلى مطالبهم. أحدهما تحرزهم عن مزال الأقدام، وتوقفهم عما يسرع اليه الوسواس ، وثانيهما نظرهم إلى الحق بعين الرضا والصدق . اهـ.. فأين أولئك من هذه الأوصاف.

وقال الرازي : الظاهريون من الفلاسفة، والذين لم يمارسوا حقائق العلوم قد جرت عادتهم بإنكار كل ما كان على خلاف العادات المألوفة، والمناهج المطردة ، وغرضهم من ذلك أن يتميزوا عن العامة والاعمار، في عدم الاغترار بكل ما يقال، وقد استهجنت طريقتهم وزيفت سيرتهم، وعدوا في الحمقى لجزمهم بالنفي لا لدليل ، ومثله يسبب الفساد والخلاعة والشر في الدنيا والشقاوة في الأخرى اهـ ..

وبالجملة ؛ فقد صدق عليهم قول صاحب رسائل اخوان الصفا بأنهم لا الفلسفة يعرفونها، ولا الشريعة يتحققونها . يدعون معرفة حقائق الأشياء ويتعاطون النظر في خفيات الأمور الغامضة البعيدة، وهم لا يعرفون أنفسهم التي هي أقرب الأشياء اليهم . ينظرون في الجزء الذي لا يتجزأ، وما شاكله من الأمور المتوهمة التي لا حقيقة لها في الهيولي ، ويدعون فيها المحالات بالمكابرة في الكلام والحجاج في الجدل، فاحذرهم يا أخي، فانهم الدجالون الذلقي الالسن العميان القلوب الشاكون في الحقائق ، الضالون عن الصواب يدعون ما لا يعرفون . ويتكلمون فيما لا يحسنون، وما هم إلا كما وصف رب العالمين جل اسمه ﴿ بَلْ هُمْ قَوْم

خَصِمُونَ ﴾ [١] . أعاذنا الله وإياك ممن فيه هذه الصفات الذميمة اه .

استحالة انكشاف الجواهر الفردة بالكنه والوجه :

قل لهم ما هو الجوهر الفرد الذي انتهت اليه المادة أمركب أم بسيط ، فإن كان مركباً فما مقوماته ، وإن كان بسيطاً ، فلا يمكن أن يكون له حد حقيقي ، وهو المركب من مقومات الشيء إذ البسيط لا مقوم له ، ولا رسم لأن الرسم يقوم مقام الحدود للمركبات إذا كانت اللوازم بينة أما إذا لم تكن بينة بأن احتاجت إلى وسط ، فمن المقرر أن ما ليس بيّناً لا يصح أن يكون معرفاً لملزومه ، ومنه لوازم المادة ، فليست بينة بوجه ما فصح أنها مجهولة جهالة يستحيل على النفس أن تتجلى لها على ما هي عليه في نفس الأمر .

ثم قل لمن فرض لها أجزاء متساوية هل هذه الأجزاءمقومات حقيقتها أو لا ، فإن كانت مقومات ، فإما أن لا يحتاج أحدها إلى الآخر وهو محال ضرورة وجوب احتياج بعض أجزاء الماهية الحقيقة إلىالبعض أو يحتاج . فإن احتاج كل منها إلى الآخر ، فيلزم الدور وإلا يلزم الترجيح بلا مرجح لأنهما ذاتيان متساويان ، فاحتياج أحدهما إلى الآخر ليس أولى من احتياج الآخر اليه . هذا أولاً ، وثانياً : هل أحد هذين الأمرين عرض أو جوهر ؟ فإن كان عرضاً لزم تقوم الجوهر بالعرض [٢] وهو محال . وإن كان جوهراً ؛ فإما أن يكون الجوهر نفسه[٣] ، فيلزم أن يكون الكل نفس جزئه وهو محال [٤] ، أو داخلا فيه ، وهو أيضاً محال لامتناع تركب الشيء من نفسه وغيره [٥] أو خارجاً عنه ، فيكون عارضاً له ، لكن ذلك

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٥٨ .

(٢) أي كون العرض محمولا عليه مواطأة ، وذلك محال لاستلزامه اتحادهما .

(٣) أي يكون الجوهر المطلق نفس ذلك الجزء الذي فرض جوهراً ، فنفسه منصوب على الخبرية وداخلا وخارجاً معطوفان . عليه .

(٤) لأنه لا يبقى الكل كلا ولا الجزء جزءاً .

(٥) لاستلزام كون الكل نفس الجزء واحتياج الشيء في تقوم نفسه إلى خارج عنه وتقدم الشيء على نفسه إلى غير ذلك .

الجزء ليس عارضاً لنفسه ، بل يكون العارض بالحقيقة هو الجزء الآخر ، فلا يكون العارض بتمامه عارضاً وهو محال [١] .

استحالة اثبات الجوهر الفرد :

قال القاضي الحكيم أبو الوليد ابن رشد في المناهج . الجزء الذي لا ينقسم – وهو الجوهر الفرد – فيه شك ليس باليسير ، وذلك أن وجود جوهر غير منقسم ليس معروفاً بنفسه، وفي وجوده أقاويل متضادة شديدة التعاند اه .

وقال الامام ابن تيمية . جمهور الامة حتى من طوائف أهل الكلام ينكرون الجوهر الفرد ، وتركب الأجسام من الجوهر اه ..

وجاء في مقالة لبعض المؤلفين في هذا البحث ما مثاله . أول من قال بقدم المادة هم بعض فلاسفة اليونان مثل ديموقراط وغيره . حملهم على اختراع هذا أنهم رأوا اجماع من سبقهم على أن كل مركب حادث ، فلما رأوا أن الأجسام كلها مركبة لجأوا إلى القول بأنها مركبة من أجزاء بسيطة لا تتجزأ ، وإن تلك الأجزاء هي مبادىء العالم الأزلية ، وإن أصغر هذه الأجزاء التي لا تتجزأ هو الجوهر الفرد الذي تنتهي اليه قسمة الجسم البسيط ، وتبعهم في ذلك ماديو هذا العصر الذين يعتقدون أن الجوهر الفرد هو أصل الأصول ، وأول مبادىء السموات والأرض . هذا ما كان بالايجاز من أقوالهم في شأن المادة والجوهر الفرد . إلا أن الجوهر الفرد لم يجد أنصاره برهاناً لاثباته منذ أول نشأته إلى الآن ، وهذا باجماع كبار العلماء الطبيعيين والكيميين وغيرهم ، بل يستحيل أن يقام على اثباته دليل، ولنا على بيان استحالته كثير من الأدلة اقتصرنا منها على الدلائل الآتية:

دليل أول ، إن الجوهر الفرد باقرار مثبتيه وتصريح إمامهم ديموقراط هو جسم ، وكل جسم لا بد له من أبعاد وتحيز وتألف من جوهر وعرض

---

(١) مثلا لو تركب الجوهر من «ا» و«ب» ف «أ» شيء عرض له الجوهر الذي حقيقته «اب» ويمتنع أن يكون «ا» عارضاً لنفسه ، فتعين أن يكون العارض «ب» .

ونحو ذلك وكل مؤلف — باجماع العلماء — منحل وغير أزلي ، وكذلك المادة المؤلفة منه .

دليل ثان : إن جل مانع القسمة لا يخلو من أن يكون إما الصلابة أو الدقة أو كليهما ، وما كل ذلك بمانع . أما الأول فلأن الأجسام مهما كانت صلبة لا يعسر انقسامها بالوسائط ، وهذا مقطوع به في العلوم الطبيعية ويؤيده الامتحان والامتحان أقوى برهان . وأما الثاني ؛ فلأن الأجسام من حيث هي هي أي من حيث أنها ذات كم متصل ، وإن كانت في غاية الدقة والصغر ، فانها قابلة من طبعها .

فإن قيل : إن هذا ممكناً عقلا لا فعلا .

قلنا ؛ وما ينافي كونه ممكناً بالفعل أيضاً إذ ما لا أتناقض فيه يمكن وجوده فعلا ، وإن لم يتأت ذلك لأسباب عارضة ، كجهل الواسطة أو لزوم الكمية المحدودة لقيام الجسم الطبيعي إلى غير ذلك ، فالقول إذاً بالجوهر الفرد غير المتجزىء مبني على التخمينات الفارغة والأوهام المحضة .

دليل ثالث : لو تقرر وجود الجوهر الفرد لكان متغير الشكل كبقية الأجسام ، وهذا مسلم عند القائلين به اليوم ، ومن المحال أن يتغير الشكل دون أن تتغير أوضاع الأجزاء وذلك عين قسمة الجسم فعلا اه ..

استحالة تصور تفاعل القوى والمادة :

قال بعض المحققين يقال لهؤلاء الماديين (على خيالهم في المادة والقوة) كيف تسنى للبسيط المتماثل أن يصير مركباً متغيراً مع عدم وجود قوة خارجية تدفعه إلى ذلك ، ثم يقال لهم : لنفرض أن في الفضاء شيئين وجدا منذ الأزل من غير موجد ، فكونهما شيئين يقتضي كونهما منفصلين ، ومن العجيب أن هذين الشيئين تفاعلا في طريقة غير معروفة وحدث بتفاعلهما صور جديدة ، فكيف كان ذلك ولا شيء بينهما إلا الفضاء ، والفضاء لا يقل شيئاً ، فلا يوصل بين أمرين ، فاذا قالوا إن أقوى كل منهما تشع

في الفضاء ، ثم تلاقت وحدث بتلاقيهما ما حدث ، فقل : كيف يتصور العقل وجود القوة في الفضاء على غير ما يحمل القوة أو يظهرها . أليس ذلك تحكماً محضاً . وإذا قالوا إنه لا فضاء ، بل الاثير مالىء كل مكان ، فقل : أليس الأثير نفسه مادة ؟ فماذا يا ترى بين دقائقه يواصل قواها بعضها ببعض اه . أي وحينئذ يستحيل الجواب إلا باستناد ذلك إلى قوة غيبية لأله قوي قادر لا خالق سواه .

استحالة اقتضاء الأثير لما زعم فيه :

زعموا أن الأثير مادة لطيفة جداً منتشر في الخلاء مالئه ، وأنه قديم ومصدر لجميع المواد كما تقدم ، وأثبتوا له السريان والاهتزاز في جميع الكون ، فيقال لهم السريان يستلزم الحركة ضرورة والحركة لا تقوم إلا بالحوادث — لما بيّنا في الدليل الخامس من طريق الحركة — ثم كونه في جميع الكون يستلزم اما قدم الكون ، أو عدم السريان والاهتزاز وكلاهما باطل . أما قدم الكون فلأنهم قالوا أيضاً بعدم قدم ما سوى الأثير . وأما عدم السريان والاهتزاز فلأنهم عرفوا الأثير به .

وقد اتفقوا على أن الأثير لا يمكن أن يرى باحدى الحواس الخمس ، بل الذي دعا لاثباته الحاجة لمعرفة ماهية النور ، فيرد عليهم أن معرفة حقيقة الشيء إنما تكون بمعرفة أجزائه ، فلو كانت معرفة حقيقة النور داعية إلى اثبات الأثير ، لاقتضى أن يكون الأثير جزءاً من النور ، وذلك يقتضي حدوث الأثير . أوَليس قلتم بأجمعكم أن ما سوى الأثير حادث ، وإذا سلمتم أنه جزء من حقيقة النور ، فيلزمكم القول بحدوث الأثير ، ومن حاول دفع الايراد ، بأن المراد أن الأثير هو السبب الناقل للنور يقال له : إن الحكم بوجود الأثير حينئذ إنما نشأ من وجود النور ، وهذا لا يستلزم أن يكون الأثير قديماً أبداً . على أنهم أثبتوا له الحركة ، والحركة انتقال من حيز إلى حيز آخر ، ولا يمكن القول بقدم الحركة .

ثم يقال لهم أيضاً هذا الأثير الذي هو سبب وجود الكائنات بزعمكم لا يخلو إما أن يكون واجباً وجوده أو ممكناً لا جائز أن يكون واجباً ،

لأنه مركب من أجزاء ، وقد تقرر أن المركب يحتاج إلى أجزائه والمحتاج لا يكون واجباً .

ثم قولهم أن الكائنات حصلت من تموج الأثير يقال عليه ، لا يخلو هذا التموج . إما أن يكون علة تامة لوجود الكائنات أو لا ،فإن كان علة فهل هذا التموج حصل مع الأثير أو بعده ، فإن قلتم أنه حصل مع الأثير لزم قدم كل ما تموج معه من الكائنات وهو باطل ، لترتب سلسلة المكونات باتفاقهم ، أو حصل بعد ، فهل هو عرض لازم أو مفارق ، فإن كان لازماً فلا يجوز أن يوجد بعد وجود الأثير ، بل معه لامتناع الانفكاك ، فيلزم قدم الكل ، وقد أبطلناه أو كان عرضاً مفارقاً لزم القول بانعدام الكائنات لجواز انفكاك التموج عن الأثير الذي بسببه صار الأثير موجداً وعلة تامة على زعمهم . ويلزم أيضاً أن الأثير في فاعليته محتاج وذلك ينافي كون الشيء واجباً وجوده .

ولو كابروا في دفع هذا الاعتراض بأن التموج نفس الأثير ، واحتياج الشيء إلى ذاته لا يستلزم امكانه لقيل لهم أن التموج لا يجوز أن يكون نفس الأثير ، لأن التموج من الاعراض الغير القارة الذات ، فيلزم أيضاً أن يكون الأثير من الاعراض الغير القارة الذات ، وهذا باطل عندكم .

ثم أن بداهة العقل قاضية بأن وجود هذا العالم لا يجوز أن يحصل بالتموج ، لأن نظامه وأحكامه في غاية الاتقان والانتظام ، وهو دليل على أن فاعله في غاية القدرة ونهاية العلم والتدبير ، وباجماع كافة العقلاء، إن قوة نظام الاثر وحسنه دليل على قوة قدرة الفاعل وتدبيره ، وحينئذ يستحيل أن يكون هذا العالم الذي هو في أحسن النظام أثير تموج أثر لا عقل له ولا شعور .

استحالة اقتضاء البسيط التركيب :

قال العلامة جمال الدين الخوارزمي : الذين زعموا أن أصل العالم جزء بسيط لا عرض فيه ولا تركيب ولا اجتماع ولا افتراق ، ثم دخله

التركيب فتركب العالم ، فالدليل على بطلان قولهم أنه يستحيل في العقول مصنوع بلا صانع [1] ، كما يستحيل حدوث كتابة لا من كاتب وبناء لا من بان ، فالفلك ليس بأقل من الفلك ، ولا يتصور انتظام ألواحها من غير نظام نجار حاذق . هذا أولاً .

وثانياً : الهيولي شيء واحد وحقيقة واحدة لا توجب أشياء كثيرة فإنه غير معقول ، فالذات الواحدة لا توجب اجتماعاً وافتراقاً وحركة وسكوناً بذاتها .

فلو أن سائلاً سألهم عن العلة الأولى وما هي وسبب الامتزاج ما يكون وما هو ؟ لا يكون لهم جواب البته .

إن قالوا إنها كانت أجزاء ، فأما أن تكون مجتمعة أو مفترقة ، فإن كانت مجتمعة فاجتماعها لا يخلو إما أن يكون لذاتها أو لمعنى ، فإن كان الذات ، فلا يجوز تفرقها ، وإلا لجاز تلاشيها ، فلم يكن ذاتياً ، وإن كان اجتماعها لمعنى ، فقد سبق المعنى عليها ، فبطل أن تكون قديماً لأن القديم ما لا يسبقه شيء .

ثالثاً : يقال أي العرضين سبق إلى الهيولي الاجتماع أو الافتراق ، فإن كان الاجتماع فلا بد للاجتماع من افتراق ، وإن كان الافتراق فلا بد من اجتماع وعندكم الهيولي خال عن أنواع الاعراض .

رابعاً ؛ لا بد من مخصص يخصصه بالاجتماع دون الافتراق ، أو بالافتراق دون الاجتماع .

خامساً : ما الموجب لتقدير الكواكب ونحوها بما قدرت به حتى صار منها ما هو أكبر ومنها ما هو أصغر . وما الموجب لتعيين القطبين وأمثالهما بالموضع المعلوم . ولا جواب لهم عن هذا كله قط .

(١) لا تنس عبارة الامام ابن رشد في الدليل الثاني أول الكتاب في بيان قطعية هذا الدليل ، فانه مهم جداً فإن تحقيقه وفلسفته لها المقام الأول سيما عند الفلاسفة ا[illegible] .

استحالة أزلية المادة :

مما أحال قدم المادة أيضاً أن القديم لا بد من كونه كاملا موجوداً بذاته لا يقبل تغيراً هذه أخص أوصافه ، وذلك لأنه لو كان غير كامل لزم أن يتكامل بغيره متصاعداً حتى يصل إلى كائن كامل في ذاته لا يفتقر إلى غيره . ولو كان غير موجود بذاته لزم أن يكون له علة قد أوجدته ، فلا يكون أزلياً ولو كان يقبل التغير لتواردت عليه البدايات والنهايات فكان غير قديم . وأوصاف القديم هذه لا تنطبق على المادة بوجه ، لأن المادة ناقصة تتكامل دائماً وأبداً متعددة ليس لها وجود من ذاتها تتغير وضعاً وفعلاً والتصاقاً إذ يتعلق الواحد منها بالآخر مما يجره اليها كل من التدافع والتجاذب ، وحينئذ فلا تكون المادة قديمة .

استحالة كون المادة مصدر الحياة والكون العقلي :

يقال لهم . إن المادة لا يمكنها أن تكون مطلقاً مبدأ حياة ولا مصدر ، لأن ما كان خالياً من شيء قوة وفعلا لا يمكنه مطلقاً أن يكون مصدراً له ، والمادة خالية من الحياة بالقوة والفعل، فإذاً لا يمكن أن تكون مصدراً للحياة ، أما خلوها من الحياة فعلاً فبالمشاهدة ، لأن كلا يرى أن المادة عرية منها وإلا لاقتضى أن تحرك نفسها فعلا بأن تنمو أو تحس أو تعقل ، وذلك ظاهر البطلان ظهور الشمس في رائعة النهار ، وأما خلوها منها بالقوة ، فلأنها لو قدرت أن تبرز الحياة ذات يوم لقدرت أن تبرزها الآن لأن طبائع الأشياء ثابتة لا تتغير ، فكما كانت قبل فهي الآن ولا يمكن أن توجد في وقت وتضمحل في آخر وذلك مقرر في مبادىء العلوم الطبيعية الثابتة ، فما شوهد قط ولا يشاهد أدنى أثر للحياة في المادة فإذاً ثبت الافتقار إلى موجد هو مسبب الأسباب .

ثم من البيّن أن تركيب المادة أو الأجسام الغير الحية مباين على خط مستقيم ، لتركيب الأجسام الحية بالنظر إلى الأجهزة ، وإلى مجموع الأعصاب وغير ذلك ، ثم اننا نرى فرقاً عظيماً بين الاجسام الحية والأجسام

اللاحية من حيث الحركة ، فإن الأولى حركتها من نفسها أي أنها تحرك نفسها بنفسها بخلاف الثانية .

ثم يلزم على كون المادة مصدر كل موجود حي أن يكون المعلول أكمل من علته وذلك محال يأبى قبوله كل عقل سليم لاقتضائه أن يكون معلولاً وغير معلول ، معلولاً لصدوره من غيره . وغير معلول لما فيه من الذاتيات التي لا أثر لها البتة في علته الصادر عنها ، وذلك يذهب بالتناسب الواجب كونه بين علة ومعلولها .

قال بعض الباحثين : إن الامتحانات العلمية ولا سيما التجارب التي زاولها كثير من المشاهير قد أثبتت أن التولد الذاتي غير ممكن ، وأن الحياة إنما تنتج من الحياة ، والحي إنما ينشأ من الحي ، ولم يولد الجماد حياً قط (١) فهم إذاً في زعمهم مخطئون وأما قولهم أن الأجسام الحية لا تختلف في التركيب عن غير الحية ، ولا تحوي من العناصر إلا ما تحويه الجمادات ، فلا يخفى أن الكيماوي خبير بدستور مزج العناصر من الكمية والكيفية ، ولديه كل ما يلزمه من قوى طبيعية وكيماوية ،فلماذا بعد كل ما ذكر لم يقدر أحد في العالم على تركيب قطرة دم أو حوصلة حيوية . أليس في هذا برهان قوي على أن التركيب العضوي إنما يتم بفعل قوة هي غير القوى المادية ، وإن ظهور الحياة في الحي ونموها وانتشارها ، ثم زوالها وخفاءها كل ذلك لا يتم بالقوى المادية . نعم إن تلك القوى موجودة في الحي وتعمل فيه ، ولكنها إنما تخدم الحياة دون أن تقدر على إيجادها ، فهي مساعدة لها وليست مبدأها ومنشأها .

استحالة أزلية الانسان :

هذه المسألة أصبحت من البديهيات الآن وذلك أنه لما كشفت علوم الجيولوجيا (طبقات الأرض) عن بطلان القول بقدم الأنواع رجع المتأخرون من الماديين عنه إلى القول بالحدوث ، ومن ذلك حدوث الانسان

---

(١) تقدم بيانه في الدليل الثاني عشر فراجعه .

ضرورة ، فإن البحث عن طبقات الأرض المذكور قد برهن أنه وجد زمان وجدت فيه المعادن والنباتات وبعض الحيوانات ، ولم يكن الانسان في حيز الوجود ، فالجنس البشري له ابتداء . ويتعين أن يكون له مبدأ . وهو خالق الكائنات . وأيضاً أن العلوم والفنون كلها لها ابتداء وأكثرها معروف بدؤها في التاريخ ، فلو كان العالم أزلياً لا يتسنى لنا أن نظن أن الانسانية خالية من هذه الصنائع ، فاكتشافها وتحديد زمانها يدل على حدوث العاملين بها وذلك واضح .

برهان حدوث المادة من العدم :

قال بعض الأئمة المحققين : معنى حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الأجساد وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهي اليها سلسلتها من جانب الماضي . ولا يجوز أن يوصف بالأزلية إلا الله وحده وصفاته عند القائلين بأنها وجودية . وقبل هذه البداية التي لا يمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق الكون ، ثم أنه أراد ايجاد الكون ، فأوجده من العدم البحت ، وهذا هو الذي يظهر من الكتاب العزيز اهـ .

وقال ابن رشد في حواشي التهافت ، الفلاسفة باتفاق يرون أن الباريء تعالى منفصل عن العالم ليس هو من هذا الجنس ، ولا هو أيضاً فاعل بمعنى الفاعل الذي في الشاهد ، بل هو فاعل هذه الأسباب مخرج الكل من العدم إلى الوجود ، وحافظه على وجه اتم وأشرف مما هو في الفاعلات المشاهدة ، وهو مريد مختار لا يلحقه النقص الذي يلحق المريد في الشاهد .

ثم قال ابن رشد ؛ وهذا نص كلام الحكيم امام القوم في بعض مقالاته المكتوبة في علم ما بعد الطبيعة [1] إن قوماً قالوا : كيف أبدع الله العالم

---

(١) قولهم ما وراء الطبيعة كلام مترجم عن اليونانية ، ومآله العلم الذي ينبغي أن يقرأ بعد الوقوف على علم الطبيعيات . والمراد به العلم الذي يبحث عن الاسباب الأخيرة للوجود وعن مبادئه وإنما سموا هذا العلم بما وراء أو بعد الطبيعة لأنه لما كان لكل علم أن يبحث —

لا من شيء وفعله شيئاً من لا شيء. قلنا في ذلك أن الفاعل لا يخلو من أن تكون قوته كقدرته وقدرته كارادته وارادته كحكمته، أو تكون القوة أضعف من القدرة ، والقدرة أضعف من الارادة ، والارادة أضعف من الحكمة ، فإن كانت بعض هذه الصفات أضعف من بعض ، فإذاً ليس بيننا وبين الخالق فرق وقد لزمها النقص، وهذا مستحيل أو يكون كل واحد من هذه الصفات في غاية التمام وغاية الحكمة، فهو ما يشاء كما يشاء من لا شيء ، وإنما يتعجب من النقص الذي فينا » اه .

وقال الفارابي في رسالة الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو ليس لأحد من أهل المذاهب والنحل من العلم بحدوث العالم ، واثبات الصانع له ، وتلخيص أمر الابداع ما لأرسطوطاليس وقبله لأفلاطون ، فقد أوضحوا أمر الابداع بحجج واضحة مقنعة ، وأنه ايجاد الشيء لا عن شيء . وأن كل ما يتكون من شيء ما، فإنه يفسد لا محالة إلى ذلك الشيء ، والعالم مبدع من غير شيء[1] فمآله إلى غير شيء[2] اه . ملخصاً .

وقال ابن مسكويه في الفوز الأصغر في الفصل العاشر في أن الله تعالى أبدع الأشياء كلها لامن شيء ، قد ظن قوم لادرية لهم بالنظر أنه لا يكون شيء من الأشياء إلا من شيء ، وذلك لما رأوا أن الانسان لا يكون إلا من انسان ، والفرس لا يكون إلا من فرس . حكموا أنه لا يكون شيء إلا من شيء ، ولجالينوس الطبيب فيه كلام ، وللاسكندر في نقضه كتاب مفرد بيّن فيه أن المتكون إنما تكون لا من شيء ، ونريد أن نبين ذلك ونوضحه بقول وجيز ، فنقول :

إن الأشياء المتكونة إنما تتبدل بالصورة حسب ، فأما الموضوع للصورة

— عن علله الأخيرة كان من الضرورة وضع علم يبحث فيه عن أسباب الكوائن طراً ومبادئها ، ولذلك كان هذا العلم علم العلوم ولبسط سره موضع آخر فجد تجد .

(١) أي العدم .

(٢) أي العدم . « كل شيء هالك إلا وجهه » .

فلا يتبدل بنفسه وقد بين الحكيم ذلك ، ودل على أن الصورة تنقاد على أمر ثابت لا يتغير ليقبلها واحد بعد آخر ، فالاشكال كلها والصور الهيولانية بأسرها إنما هي محمولة في اجرام ، والجرم الموضوع لها إنما يتبدل كيفية بكيفية وصورة بصورة ، وليس يخلو إذا استبدل بصورته أن تبقى الأولى فيها مع حدوث الثاني ، وتنتقل عنه إلى جرم آخر ، أو تبطل البتة ، فإن ادعى مدع أنها تبقى في الجرم مع حدوث الثاني كانت دعواه محالا ، لأن الصور المتضادة والأشكال المختلفة لا تجتمع في محل واحد ، وإن ادعى مدع أنها تنتقل عنه كان أيضاً محالاً ، لأن نقله المكان إنما تكون للاجرام ، فأما الأعراض ، فإنها لا تصح فيها النقلة إلا أن تكون في حواملها ، وذلك بطريق العرض ، وهذه قد كشف عنها وبيّن أمرها ، وليس من شرطنا اطالة الكلام فيها ، فبقي أن نقول أن الأول يبطل بحدوث الثاني ، وإذا بطل الأول ، فإنما صار من وجود إلى عدم . وإذا ثبت في الصورة الأولى أنها تصير من الوجود إلى العدم كان ذلك أيضاً في الصورة الثانية الحادثة واجباً — أعني أنه إنما صار فيه العدم إلى الوجود — وإلا لزم فيه إما أن يكون موجوداً في محله ذلك ، وإما منتقلاً إليه من محل آخر ، وقد أبطلنا هذين ، فبقي أن تكون الأشياء المتكونة كلها — أعني حدوث الصورة والتخاطيط وسائر الاعراض والكيفيات — إنما حدثت لا من شيء ، وقد أطلق الحكيم أن الموجود لا من موجود وهذا بيِّن لأن الله تعالى لو كان أبدع الموجود من موجود ، لكان لا معنى للابداع إذ الموجود موجود قبل الابداع ، وإنما يصح الابداع في الموجود إذا كان لا من موجود أعني العدم ، وإن ارتقينا من الأمور القريبة الينا تبين ما نرومه عن قرب ، وذلك أن كل كائن ، فإنما يكون عما لم يكن ذلك الشيء مثال ذلك الحيوان ، فإنه يكون من غير حيوان إذ الحيوان يكون من مني والمني يقبل صورة الحيوان شيئاً بعد شيء ، ويستبدل بها من صورته الأولى ، وكذلك المني يكون من الدم ، والدم من الغذاء ، والغذاء من النبات ، والنبات من الاستقصات ، والاستقصات من البسائط ، والبسائط من الهيولي ، والهيولي والصورة لما كانا أول الموجودات ، ولم يصح وجود أحدهما خلواً من الآخر لم ينحلا إلى شيء موجود ، بل إلى

العدم فيكون وجودهما لا عن شيء ، وذلك ما أردنا أن نبين اه . كلامه .

وقال بعضهم ؛ دعوى أن الحديث من العدم محال يقال عنها أنها محال بنفسها لا بفعل قادر أزلي ، وعدم ادراكنا لذلك وكونه مما يفوق طور العقل لا ينفيه إذ لا يلزم من جهل الأمر نفيه ، وقد اعترف الماديون بتعذر معرفة أصل المادة ، وكم من أشياء مشهودة يعسر على الانسان ادراك حقيقتها ، وكما أنه لا يحق لمن لم يبصر أمراً أن ينكر وجوده فهكذا ليس لمن لم يفهم حقيقة الخلق أن ينكر وجوده سيما وهي من غيب الغيوب وأبطن البطون .

وقال آخر : لا يخفى أن الاعتراض يرجع إلى هذا . وهو لا شيء يصير من لا شيء ، فنقول إن أريد به أنه لا معلول يصير بدون علة فاعلة . فهو صحيح اجماعاً ، وأما إذا كان المراد به لا شيء يمكن أن يصدر من لا مادة ففيه تفصيل، فبالنظر إلى العلل الثانوية المتناهية القوى لا خلاف فيه ، لأن الخليقة أياً كانت لا تقدر أن تصنع من لا شيء شيئاً . وأما بالنظر إلى العلة الأولى ذات القوة الغير المحدودة (يعني الخالق تعالى) فباطل إذ من شأن القوة الغير المتناهية ألا تتقيد بشيء خارج عنها ، فيمكنها أن توجد الشيء من العدم البحت أي لا من مادة كيفما شاءت ومتى شاءت ، وإلاّ كانت متناهية محدودة وذلك محال عليها ، ولا يلزم من قدمه تعالى قدم المبروءات إذ هو تعالى فاعل مطلق لا يضطر شيء ، فيخلق ما يشاء كيفما يشاء . ﴿ إنما أمْرُهُ إذا أرَادَ شيْئاً أنْ يقُولَ لَهُ كُنْ فيكون﴾[1]

وقد برهن بعض الرياضيين على حدوث الخلق من العدم بما تقرر في فن الهندسة قال في أصول الهندسة : إن النقطة نهاية الخط ، وهو نهاية السطح وهو نهاية الجسم ، فالنقطة ليس لها الابعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق فهي عدم . والخط له طول فقط فهو عدم أيضاً . والسطح له طول وعرض كذلك فهو عدم أيضاً . والجسم له طول وعرض وعمق ، وهو محسوس وقد حدث من عدم .

---

(١) سورة يس ، الآية ؛ ٨٢ .

ثم قال ؛ ومما تقرر في هذا الفن أيضاً : أن المستقيم يمس محيط الدائرة بنقطة وهي عدم ، ومتى تحرك فانه يمر بمركزها ويصير أكبر ما يرسم فيها . ومتى تحرك لنهاية المحيط فانه يمسه بنقطة الانتهاء وهي عدم ، فثبت بذلك أن الهندسة بدئت بعدم و انتهت إلى العدم اه .

استحالة القول بالاتفاق من جهة الحكمة :

من أجل ما يبطل به القول بالمادة والصدفة استلزامه لرفع الحكمة في الخلق أعني أن لا تكون ههنا حكمة ولا توجد موافقة أصلا بين الانسان وبين أجزاء العالم التي ظهرت النعمة في وجودها والمنة بخلقها ، وذلك يخالف الفطرة والعقل إذ يقتضي ألا يكون هنا نعمة في شيء ، وأن يستغني الانسان عما يضطر اليه ، وألا توجد المسبباب مرتبة على الاسباب في هذا العالم إذ ما كان بالصدفة والاتفاق ، فإنه لا يستدعي ذلك ، فلا تكون حكمة أصلا ولا قصد ولا ارادة ، وحينئذ فليس شكل يد الانسان مثلا ولا عدد أصابعها ولا مقدارها ضرورياً لا للامساك الذي هو فعلها ، ولا لاحتوائها على جميع الأشياء المختلفة الشكل ، ولا لموافقتها لامساك آلات جميع الصنائع . ولو كان ذلك كذلك لكان لا فرق بين أن يخص الانسان باليد أو بالحافر أو بغير ذلك . وكل ذلك باطل بداهة لتيقن الحكمة في كل ذلك من حكيم قدر هذه الكائنات على نسب حاجياتها وضرورياتها وكمالياتها تقديراً لا أتم منه ولا أتقن ، وإلى هذا الاشارة بقوله تعالى : ﴿ ربّنا الذي أعطَى كلّ شيء خلْقَهُ ثمّ هدى ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿ صُنْعَ اللهِ الّذي أتْقَنَ كلّ شيء ﴾ (٢) ، وقوله جل وعلا : ﴿ ما تَرى في خلْقِ الرّحْمن منْ تَفَاوتٍ فارْجعِ البَصَرَ هلْ ترى منْ فُطُور ﴾ (٣) . هذا ما أشار اليه الامام ابن رشد في المناهج ، وتقدم في الدليل الرابع في الافتقار إلى سبب الاسباب ما يرشح ذلك .

وبالجملة فمتى لم يعقل أن هاهنا أوساطاً بين المبادىء والغايات في

---

(١) سورة طه ، الآية : ٥٠ .
(٢) سورة النمل ، الآية : ٨٨ .
(٣) سورة الملك ، الآية : ٣ .

المصنوعات ترتب عليها وجود الغايات ، لم يكن هاهنا نظام ولا ترتيب ، واللازم منتف ، فالملزوم مثله ، فإذاً الترتيب والنظام وبناء المسببات على الاسباب هو الذي يدل على أنها صدرت عن علم وحكمة لا بالاتفاق والصدفة .

برهان البعث والاعادة :

إذا قضت قدرة القادر جل جلاله بأن يكسو الأشجار بعد عريها ، ويلون الأزهار مرة أخرى ، وينبت الأعشاب ، ويرد الزرع بعد فنائه فيجدد له كل ما فقده ويرجعه لحاله الأولى ، أفلا يكون ذلك شهادة لقيامة الموتى وبعثهم ، كما قال تعالى : ﴿ أوَلَـمْ يـرَ الانـْسانُ أنّا خـَلَقْنَاهُ منْ نُطْفَةٍ فإذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ * وضَرَبَ لنا مَثَلاً ونَسيَ خَلْقَه قالَ مَنْ يُحْييَ العظامَ وهيَ رميمٌ * قُلْ يُحْييها الّذي أنْشَأها أوّلَ مَرّةٍ وهُوَ بكُلِّ خَلْقٍ عليم ﴾ [1] . فقول الملحد من أين تتجمع أجزاء كل فرد وقد تبعثرت ودخلت في تكوين كثيرين آخرين . يجاب عنه بأن تجمعها بقدرة الله الذي خلقها أول مرة ، ولو تعذر فهم كيفية تكونه ، فهل يسوغ انكار وجوده ، وإلا فقل له أين لي من أين تتجمع مواد الاعشاب التي تنبت وتصير أزهاراً ، ثم ثمراً ، ثم شجراً بعد أن يقع زرعها في الأرض ويفسد . هل تفهم كيف يتصور الحيوان في الرحم ثم ينشأ هو وأعضاؤه . هل تفهم كيف تستحيل الأطعمة في الحيوان والانسان إلى لحم وعظام وشريانات وأوردة وجلد وشعر وحواس كلها في غاية الدقة والارتباط ، فإن كنت لا تفهم جميع ذلك ، فهل يمكن لك أن تنكره . وقد ثبت في علم الفيزيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) أن الأركان الأولية للمادة لا تفسد ، ولا تفنى ، وإن لحقها كثير من التغيرات والتراكيب المختلفة . وعليه فتثبت دائماً هي هي ، وإن قامت مع تكوين كثير من الكائنات إذ لا يزل في قدرة الخالق سبحانه أن يرجعها إلى الجزء الذي قامت مع تكوينه مدة من الزمان .

---

(١) سورة يس ، الآيات : ٧٧ — ٧٩ .

قال الامام الغزالي : سبب فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور هو قلة الفهم في هذا العالم لا مثال تلك الأمور ، ولو لم يشاهد الانسان توالد الحيوانات ، وقيل له إن صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصور العاقل المتكلم المتصور ، لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ، ولذلك قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الانسانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فإذا هوَ خصيمٌ مُبينٌ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الانْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى * أَلَيْسَ ذلكَ بقَادرٍ على أَنْ يُحيِيَ المَوتى ﴾ (٢) . ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه واعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى ، وحكمة من يشاهد ذلك في صنعته وقدرته ، فإن كان في إيمانك ضعف فقوِّ الايمان بالنظر في النشأة الأولى ، فإن الثانية مثلها وأسهل منها اه .

وقال رحمه الله أيضاً في المقصد الأسنى في شرح اسمه تعالى (الباعث) هو الذي يحيي الخلق يوم النشور . ويبعث مَنْ في القبور . ويحصل ما في الصدور والبعث هو النشأة الآخرة . ومعرفة هذا الاسم موقوفة على معرفة حقيقة البعث ، وذلك من أغمض المعارف ، وأكثر الخلق منه على توهمات مجملة وتخيلات مبهمة وغايتهم فيه تخيلهم أن الموت عدم غلط . وظنهم أن الايجاد الثاني مثل الايجاد الأول غلط ، فأما ظنهم أن الموت عدم فهو باطل ، فإن الموتى اما سعداء وأولئك ليسوا أمواتاً . ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سبيلِ الله أمْواتاً بَلْ أحْياء عِنْدَ رِبِّهِم يُرزقونَ * فَرِحينَ بما آتاهُمُ اللهُ من فَضْلِه ﴾ (٣) . وأما أشقياء وهم أيضاً أحياء ولذلك ناداهم رسول الله ﷺ في وقعة بدر وقال : « إني وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً » . ثم لما قيل له

---

(١) سورة يس ، الآية : ٧٧ .

(٢) سورة القيامة ، الآيات : ٣٦ — ٤٠ .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتان : ١٦٩ ، ١٧٠ .

كيف تنادي قوماً قد جيفوا ؟ قال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم لكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » .

والمشاهدة الباطنة دلت أرباب البصائر على أن الانسان خلق للابد وأنه لا سبيل للعدم عليه . وأما ظنهم أن البعث إيجاد ثانٍ ، وهو مثل الايجاد الأول ، فغير صحيح ، بل البعث انشاء آخر لا يناسب الانشاء الأول أصلاً . وللانسان نشآت كثيرة وليست هي نشأتين فقط ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ونُنْشئكُم فيما لا تعْلمُونَ ﴾ (١) . وكذلك قال تعالى بعد خلق المضغة والعلقة وغير ذلك ﴿ ثمّ أنْشأناهُ خلْقاً آخرَ ﴾ (٢) . ثم خلق الادراكات الحسية بعد خلق أصل الروح خلق آخر . ثم خلق التمييز الذي يظهر بعد سبع سنين نشأة أخرى . ثم خلق العقل بعد خمس عشرة سنة وما يقاربها نشأة أخرى ، وكل نشأة طور ، وقد خلقكم أطواراً وكما أنه يعسر على من في المهد فهم حقيقة التمييز قبل حصول التمييز يعسر على المميز فهم حقيقة العقل ، وما ينكشف في طوره من العجائب قبل حصول العقل .

ثم قال الغزالي ؛ وكما أن طور العقل وادراكاته ونشآته بعيد المناسبة عن الادراكات التي قبله فكذلك النشأة الآخرة أبعد ، فلا ينبغي أن تقاس النشأة الآخرة بالأولى .

ثم قال ؛ والمقصود أن لا مناسبة بين النشأتين إلا من حيث الاسم وما أبدع قوله رحمه الله في آخر البحث : ومن رقى غيره من الجهل إلى العلم ، فقد أنشأه نشأة أخرى وأحياه حياة طيبة ، فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق والعلم ودعائهم إلى الله تعالى ، فذلك نوع من الاحياء ، وهي رتبة الأنبياء ، ومن يرثهم من العلماء اهـ .

رد الاستدلال بالنفي المجرد في باب النظريات :

كثيراً ما يعرج الماديون بعد بطلان شبههم على النفي ، ويزعمون

---

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٦١ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ١٤ .

أن الشهادة بالنفي يأوون منها إلى ركن ، والذاهب إلى هذا بعد ابطال ما لديه ونسفه ، معرض معتقده لهتك ستره وكشفه ، وذلك لأن الشهادة بالنفي على أقسام ، إما معلومة مثل أن العرب لم تنصب الفاعل [1] ، أو ظنية عن استقراء صحيح نحو ليس في كلام العرب اسم متمكن آخره واو لازمة قبلها ضمة ، أو نظرية يرمي بها من غير دليل ، وهذه هي المردودة وما نحن فيه من ذلك ، فإن ما ليس بضروري فلا يعرف إلا بدليل ، والنفي فيه كالاثبات وتحقيقه — كما في المستصفى للغزالي — أن يقال للنافي ما ادعيت نفيه عرفت انتفاءه ، أو أنت شاكّ فيه ، فإن أقرّ بالشك ، فلا يطالب الشاك بالدليل ، فإنه يعترف بالجهل وعدم المعرفة ، وإن قال أنا متيقن للنفي قيل له : يقينك هذا حصل عن ضرورة أو عن دليل ولا تعد معرفة النفي ضرورة فإنّا نعلم أنّا لسنا في لجة بحر أو على جناح نسر ، فلا تعد معرفة النفي ضرورة وإن لم يعرفه ضرورة فإنما عرفه عن تقليد أو عن نظر ، فالتقليد لا يفيد العلم ، فإن الخطأ جائز على المقلد والمقلد معترف بعمى نفسه ، وإنما يدعي البصيرة لغيره ، وإن كان عن نظر فلا بد من بيانه فهذا أصل الدليل اهـ .

نزوع الماديين إلى نزعات الجدال العقيم :

قال بعض الأفاضل يمثل حالة الدهريين : تعلق الزائغون عن الحق في التلبيس على الضعفاء ، وإفساد عقيدة الأغبياء من طريق مبادىء الخلق ومبانيه ، وما اليه مآله تعلقاً به ينبهون غرة الغافل ، ويحيرون فطنة العاقل ، وذلك من أنكى مكائدهم للدين ، وأثخن لبلوغهم في انتقاص الموحدين . ﴿ ويأبى اللهُ إلاَّ أنْ يُتِـمَّ نُوره ولَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ [2] ، وإن من أعظم الآفة على عوام الأمة تصديهم لمناظرة من ناظرهم بما تخيل في أوهامهم وانتصب في نفوسهم من غير ارتياض بطرق العلم ، ولا معرفة بأوضاع القول ، ولا تحكك بأدب الجدل ، ولا بصيرة بحقائق الكلام ،

---

(١) وقد شذ اعطاء الفاعل اعراب المفعول ورفعهما معاً ونصبهما كذلك في أمثلة وشواهد ساقها ابن هشام في آخر المغني في القاعدة الحادية عشرة في مثالها الثامن والشاذ لايقاس عليه.

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٣٢ .

ثم إلقاؤهم بأيديهم — عند أول صاكة تصك أفهامهم ، وقارعة تقرع أسماعهم ضارعين خاشعين — إلى ما لاح لهم بلا اجالة روية ، ولا تنقير عن خبيئة .

فقصارى نظرهم الاستخفاف بالشرائع والأديان التي هي وثاق الله تعالى في سياسة خلقه وملاك أمره ، ونظام الالفة بين عباده وقوام معاشهم ، والمنبه على معادهم ، والرادع لهم عن التباغي والتظالم ، والمهيب بهم إلى التعاطف والتواصل ، والباعث لهم على اعتقاد الذخائر من مشكور صنائع العاجل ، ومحمود ثواب الآجل اه . ولذا كان الجدال معهم عديم الفائدة. قليل العائدة.لما يقع في نفس أحدهم عند الخوض في الجدال أن لا يقنع بشيء.

قال الامام الاصفهاني : ومن لا يقنعه إلا ألا يقنع فما إلى اقناعه سبيل ولو اتفقت عليه الحكماء بكل بيّنة ، بل لو اجتمعت عليه الأنبياء بكل معجزة كما قال تعالى : ﴿ ولَوْ أنَّنا نَزَّلْنا إليْهم الملائكَةَ وكلّمهم الموْتى وحَشَرْنا عليْهم كلَّ شيء قُبُلاً ما كانُوا ليؤمنوا إلاّ أنْ يشاء الله ﴾ (١) .

وقال أيضاً ؛ إذا ابتليت بمجادل مهارش . ومشاجر مناوش . مراده مناوأة العلماء . ومماراة السفهاء ، فحقك أن تفر منه فرارك من الأسد . فإن لم تجد من مزاولته بداً ، فقابل انكاره الحق بانكارك الباطل ، ودفاعه الصدق بدفاعك الكذب معتبراً في ذلك قوله عز وجل : ﴿ ومَكَروا ومَكَرَ الله ﴾ (٢) وقوله تعالى حكاية عن المنافقين : ﴿ إنّا معَكُم إنّما نحنُ مُسْتهزئون * اللهُ يَسْتَهزئ بهم ﴾ (٣) ، وإياك أن تعرج معه إلى بث الحكمة ، وأن تذكر له شيئاً من الحقائق ما لم تتحقق أن له قلباً طاهراً لا تعافه الحكمة (٤) ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تدخل

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١١ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٥٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآيتان ، ١٤ ، ١٥ .
(٤) يرحم الله القائل :

وإذا جلست إلى الرجال وأشرقت ... في جو باطنك العلوم الشرد
فاحذر مناظرة الجهول فإنه ... تغتاظ أنت ويستفيد ويجحد

الملائكة بيتاً فيه كلب » ، فإن لكل تربة غرساً . وان لكل بناء أساً . وما كل الرؤوس يستحق التيجان ، ولا كل طبيعة تستحق افادة البيان ، فإن كان لا بد فاقتصر معه على اقناع يبلغه فهمه فقد قيل :

إنّ لب الثمــار معدّ للانام ... والتّبن معــدودٌ للانعام

كذلك لب الحكمة معد لذوي الالباب ، وقشورها مجعولة للانعام .

ثم قال ؛ واعلم أن سبيل انكار الحجة والسعي في افسادها أسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها ، ولهذا يتحرى الجدل الخصم أبداً الدفاع لا المعارضة بمثلها ، وذلك أن الافساد هدم وهو سهل ، والاتيان بالمثل بناء وهو صعب (١) ، ولذلك دعا الله الناس في الحجج إلى الاتيان بمثلها فقال : ﴿ فأتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مثْله مُفْتَرياتٍ ﴾ (٢) . وقال ابراهيم عليه السلام : ﴿ فإنَّ اللهَ يأتي بالشَّمْسِ منَ المَشْرقِ فأتِ بها منَ المَغْرب ﴾ (٣) والله الموفق .

بيان آداب الجدل القويم وسبيل الاشراف على الحق

اعلم أن كل مسألة تنازع فيها اثنان أو جماعة ، فلا يخلو من أن يكونوا من أهل تلك الصناعة التي المسألة منها أو يكونوا من غير أهلها. فإن كانوا من غير أهلها ، فكلامهم فيها على غير أصل مقرر منهم ، وكل كلام ومنازعة في شيء على غير أصل مقرر منهم ، فلا تحصيل لكلامهم فيه ولا حجة لدعاويهم . وإن كان أحدهما من غير أهلها ،

---

(١) قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله : إن المبتدع الذي بنى مذهبه على أصل فاسد متى ذكرت له الحق الذي عندك ابتداء أخذ يعارضك فيه لما قام في نفسه من الشبهة ، فينبغي إذا كان المناظر مدعياً أن الحق معه أن يبدأ بهدم ما عنده ، فإذا انكسر وطلب الحق فاعطه إياه ، وإلا فما دام معتقداً نقيض الحق لم يدخل الحق إلى قلبه كاللوح الذي كتب فيه كلام باطل امحه أولا ، ثم اكتب فيه الحق اهـ .

(٢) سورة هود ، الآية : ١٣ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

فإن منازعته لصاحبه تعد منه . وكلام صاحبه معه أيضاً تخلف [1] منه ، إذ كان يجادل مع من ليس من أهل صناعته . وإن كانا من أهل تلك الصناعة ، فلا يخلو من أن يكونا متساوي الدرجة فيها أو متفاوتين . فإن كانا متفاوتين فحكمهما مثل ما تقدم ذكره من ذكر حكم الأولين . وإن كانا متساوي الدرجة في تلك الصناعة ، فسبيلهما أن يأخذا فيما اختلفا فيــه إلى قوانين تلك الصناعة وأصولها ، ويقيسان عليها تلك المسألة إن كانت من فروعها ، وإن لم يكن في قوة نفوسهم استخراجها ، فسبيلهما أن يتحاكما إلى من هو أعلى درجة منهما في تلك الصناعة ليحكم بينهما . وإن لم يجدا من يحكم بينهما فيرضيان بحكمه ، ولا في قوة نفوسهم استخراجها من الأصول ، فليس لهما إلا الترك لتلك المسألة والسكوت عنها . فإن لم يفعلا ما وصفنا في الجدال والخصومة ، فسيكون ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما . وكلما ازدادوا الحاحاً ازدادوا خلافاً على خلاف وعداوة على عداوة ، وبغضاً إلى يوم القيامة ، وهذا من أحد أسباب الاختلاف في الآراء اه . من رسائل اخوان الصفا .

وأما سبيل الاشراف على الحق ، فهو استقامة الفهم وجودة النظر — المعبر عنها بالقوة القدسية — ويتضمن ذلك أموراً :

الأول : أن يكون معوج السليقة ، فإنه آفة الحاسة الباطنة . والاعوجاج ذاتي كما ذكر ، وكسبي باعتبار العوارض مثل سبق تقليد أو شبهة .

الثاني : ألا يكون رجلاً جدلاً في قلبه محبة البحث والاعتراض ، فمثل هذا القلب لا يكاد يهتدي ، ولا يعرف الحق من الباطل إذ دوام الفكرة في المحاورات يضعف الفهم ويمرض صحيحه .

الثالث : ألا يكون لجوجاً عنيداً كثير التعنت في النظر .

الرابع : ألا يكون في حال قصوره مستبداً برأيه .

(١) كذا في ما نقلناه ، ولعل المراد بالتفعل تكلف المخالفة وكأن المعنى هو في غنى عن أن يتكلف مخالفة غير الأهل في منازعته إذ سبيله الاعراض عنه . ثم ظهر أن تخلف مصحف عن تكلف ، والله أعلم .

الخامس : ألا يكون له حدة ذهن زائدة بحيث لا يقف ولا يجزم بشيء.

السادس : ألا يكون بليداً لا يتفطن للمشكلات والدقائق ، ويقبل كل ما يسمع ويميل مع كل قائل ، بل لا بد فيه من حذاقة وفطنة يتعرف بها الحق من الباطل .

السابع : ألا يكون مدة عمره متوغلاً في الرياضي أو النحو أو غير ذلك ، ثم يشرع بعد ذلك في فن الكلام متحكماً فيه بما سبق له من تلك الافهام ، فإنه يخربه كثيراً بسبب أنس ذهنه بغير طريقه .

الثامن : ألا يعود نفسه تكثير الاحتمالات في التوجيه ، فإنه ربما يفسد الذهن وقد قالوا ضاع الحق بين قولين ، فصاعداً .

التاسع : ألا يكون جريئاً غاية الجرأة في البت والقطع بدون تروٍّ وامعان .

العاشر : ألا يكون مفرطاً في الاحتياط جباناً عن الفحص والاستنباط .

الحادي عشر : أن يتجافى البحث عما لا يدرك ، فإن الذي وسع دائرة المراء والضلال هو البحث عما لا يعلم ، والسعي فيما لا يدرك ، وطول السير في الطريق التي لا توصل إلى المطلوب ، والاقتداء بمن يظن فيه الاصابة ، وهو مخطيء ، والاشتغال بالبحث عن الدقائق التي لا طريق إلى معرفتها ، ولا يوصل البحث عنها إلى اليقين ، ولا إلى الوفاق ، ولا ظهرت للخوض فيها مع طوله ثمرة نافعة ، لا باليقين صادعة ولا للافتراق جامعة . وربما انقطع هذا العمر القصير في تلك الطرق البعيدة قبل البلوغ إلى المقصود بها ، وهو معرفة الحق الواجب من الباطل المهلك ومعرفة المحق من المبطل ، وليس الطلب لكل شيء بمحمود ولا كل مطلوب بموجود ولذا تعين طلب الطريق القريبة الممكنة التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها .

هذا ملخص ما أورده العلامة الطباطبائي في مفاتيح الأصول ، والسيد ابن المرتضى في إيثار الحق ، وهذا المطلب من المضمون به على غير أهله ، فخذه وكن من الشاكرين .

الزام الواقفة وأرباب الحيرة :

أذكر أني قرأت مقالة أعجب بها خطيبها المتفلسف زعم في خاتمتها السوسي تكافؤ الأدلة عنده [1] مما آل اتخاذ الحيرة مذهباً والتوقف والتردد نحلة — نعوذ بالله — وقد يظن قليل الاطلاع والتنقيب على مقالات الفرق وآرائهم أن هذا رأي جديد وفكر حديث والخبير يدري إن هذا السخف وجد من قال بمثله في العصور الخالية ، وان قد أبطله من لا يحصى من الأئمة . ويمر بالقارىء في مطولات الأصول شيء منه وأوسع من رأيته تكلم مع الفرقة الذاهبة اليه الامام ابن حزم رحمه الله في آخر الفصل حيث قسمهم إلى أقسام وأصناف متشعبة وكر بالنقض والالزام ، وإلقام الحجر لكل ، والافحام في عدة أوراق أودعها من الحقائق مارق أوراق . ولنقتطف لموضوعنا الموجز شذرة من عقوده .

قال رحمه الله : أما الطائفة المتحيرة ، فقد شهدت على أنفسها بالجهل ، وكفت خصومها مؤنتها في ذلك ، وليس جهل من جهل حجة على علم من علم ، ولا من لم يتبين له الشيء عياراً على من تبين له ، بل من علم ، فهو الحجة على من جهل . هذا هو الذي لا يشك أحد فيه في جميع العلوم والصناعات . وكل معلوم يعلمه قوم ويجهله قوم ، ولا أحمق ممن يقول لما جهلت أنا أمر كذا ولم أعرفه علمت أن كل أحد جاهل به كجهلي . وهذه صفة هؤلاء القوم نفسها . ولو ساغ هذا لأحد لبطلت الحقائق وجميع الصناعات إذ لكل شيء منها من يجهله من الناس نعم ، ومن لا يتحجج فيه ولا يفهمه وان طلبه . هذا أمر مشاهد بالحواس ، فهم قد أقروا بالجهل وندعي نحن العلم بحقيقة ما اعترفوا بجهلهم به . فالواجب عليهم أن ينظروا في براهين المدعين للمعرفة بما جهلوه نظراً صحيحاً متقصى بغير هوى ، فلا بد يقيناً من أن تلوح حقيقة قول المحق ، وبطلان قول المبطل ، فتزول عنهم الحيرة والجهل حينئذ ، فسقطت هذه المقالة بيقين .

---

(١) قال ابن حزم معنى تكافؤ الأدلة أنه لا يمكن نصر مذهب على مذهب ، وأن دلائل كل واحد مكافئة لغيرها وإن كل ما ثبت بالجدل فهو بالجدل ينقض اهـ .

وأما من قطع بأنه ليس هاهنا مذهب صحيح أصلاً ، فإن قوله ظاهر الفساد بيقين لا إشكال فيه ، لأنهم أثبتوا حقيقة وجود العالم بما فيه وحقيقة ما يدرك بالحواس ، وبأول العقل وبديهته ، ثم لم يصححوا حدوثه ولا أزليته ، ولا أبطلوا حدوثه وأزليته معاً ، فقد خرجوا يقيناً إلى المحال ، وإلى أقبح قول السوفسطائية ، وفارقوا بديهة العقل وضرورته التي قد حققوها وصدقوا موجبها إذ لا خلاف بين أحد له مسكة عقل[1] ، في أن كل ما لم يكن حقاً فهو باطل ، وما لم يكن باطلاً ، فإنه حق ، وان اثنين قال أحدهما في قضية واحدة في حكم واحد قال : نعم ، والآخر لا ، فأحدهما صادق بلا شك ، والآخر كاذب بلا شك . هذا يعلم بضرورة العقل وبديهته . وأما قول قائل هذا حق باطل معاً من وجه واحد في وقت واحد ، وقول من قال لا حق ولا باطل ، فهو بين باطل معلوم بضرورة العقل وبديهته ، فواجب باقرارهم إن من قال أن العالم لم يزل . وقال آخر هو محدث أن أحدهما صادق بلا شك فظهر بيقين وضرورة العقل يقيناً ، فساد هذه المقالة إلا أن يبطلوا الحقائق ويلحقوا بالسوفسطائية ، فيكلمون حينئذ بما تكلم به السوفسطائية .

وقوع الاشارة إلى الماديين في القرآن الكريم وأن الفلسفة الحقيقية رائد الحق :

لهؤلاء الماديين عدة أسماء سوء فيقال لهم المعطلة والملاحدة والدهرية والزنادقة والمهملة ، وهم أقل الناس عدداً وأفيلهم [2] رأياً ، وأشرهم حالاً ، وأوضعهم منزلة . ولهم في كل عصر صبغة وحلية ، وفي كل قرن رأي وفكرة ، كما يراه من وقف على كشف عوارهم في المؤلفات القديمة .

قال العلامة الشهرستاني في الملل والنحل في معطلة العرب : فصنف منهم أنكروا الخالق والبعث والاعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر

---

(١) في المصباح : والمسكة وزان غرفة من الطعام والشراب ما يمسك الرمق وليس لأمره مسكة أي أصل يعول عليه وليس له مسكة أي عقل وليس به مسكة أي قوة اه .

(٢) يقال فال رأيه يفيل فيولة أخطأ وضعف اه قاموس .

المفني ، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد : ﴿ وقالُوا ما هيَ إلاّ حيَاتُنَا الدُّنْيا نمُوتُ ونحْيا ﴾ (١) ، اشارة إلى الطبائع المحسوسة في العالم السفلي ، وقصر الحياة والموت على تركبها وتحللها ، فالجامع هو الطبع والمهلك هو الدهر : ﴿ ومَا يهْلكنْا إلاّ الدّهر وما لهُم بذلك منْ علْم إنْ هم إلاّ يظنُّون ﴾ (٢) ، فاستدل عليهم بضرورات فكرية وآيات فطرية في كم آية وكم سورة ، فقال تعالى : ﴿ أولَمْ يتَفكّروا ما بِصَاحبهم من جُنّة أنْ هو إلاّ نذيرٌ مبينٌ ﴾ (٣) . ﴿ أولَم ينْظروا في ملَكوتِ السّموات والأرض ﴾ (٤) . وقال : ﴿ أولَمْ يرَوا إلى ما خلَقَ الله ﴾ (٥) . وقال : ﴿ قلْ أئنّكم لتَكفُرون بالّذي خلقَ الأرضَ في يَومين ﴾ (٦) . وقال : ﴿ يا أيُّها النّاسُ اعبُدوا ربّكُم الذي خلَقَكُم ﴾ (٧) ، فثبتت الدلالة الضرورية من الخلق على الخالق ، فإنه قادر على الكمال ابتداء واعادة اه .

وقال الامام ابن القيم في اغاثة اللهفان في ذكر تلاعب الشيطان بالدهرية : هؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها ، وقالوا ما حكاه الله عنهم : ﴿ وقالُوا ما هيَ إلاّ حياتُنا الدُّنْيا نمُوتُ ونحْيا ومَا يَهْلكُنا إلاّ الدّهر ﴾ (٨) . وقالوا إن العالم دائم لم يزل ولا يزال لا يتغير ولا يضمحل ، وهذا العالم هو الممسك لهذه الأجزاء التي فيه ، وهؤلاء هم المعطلة حقاً ، وهم فحول المعطلة . وقد سرى هذا التعطيل إلى سائر فرق المعطلة على اختلاف آرائهم وتباينهم في التعطيل ، كما سرى داء الشرك تأصيلاً وتفصيلاً في سائر فرق المشركين على اختلاف مذاهبهم فيه ، وكما سرى جحد النبوات تأصيلاً وتفصيلاً في سائر فرق المشركين على اختلاف مذاهبهم فيه ، وكما سرى جحد النبوات تأصيلا وتفصيلا في سائر من جحد النبوة ، أو صفة من صفاتها ، أو أقر بها جملة ، وجحد مقصودها وزبدتها أو بعضه ، فهذه الفرق الثلاثة سرى داؤها وبلاؤها

(١) سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .
(٢) سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٤ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٥) سورة النحل ، الآية : ٤٨ .
(٦) سورة فصلت ، الآية : ٩ .
(٧) سورة البقرة ، الآية : ٢١ .
(٨) سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .

في الناس ، ولم ينج منه لا أتباع الرسل العارفون بحقيقة ما جاء به المتمسكون به دون ما سواه ظاهراً وباطناً ، فداء التعطيل وداء الاشراك وداء مخالفة الرسول ، وجحد ما جاء به أو شيء منه هو أصل بلاء العالم ، ومنبع كل شر ، وأساس كل باطل ، فليست فرقة من فرق أهل الالحاد والباطل والبدع ، إلا وقولها مشتق من هذه الأصول الثلاثة أو من بعضها .

فإنْ تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ　　وإلاَّ فأنِّي لا أظنُّــك ناجيـــا

ثم قال : فسرت هذه البلايا الثلاثة في كثير من طوائف الفلاسفة ، لا في جميعهم ، فإن الفلسفة من حيث هي لا تعطي ذلك ، فإن معناها محبة الحكمة ، والفيلسوف أصله فيلاسوفا أي محب الحكمة ، ففيلا هو المحب وسوفا هي الحكمة ، والحكمة نوعان : قولية وفعلية ، فالقولية قول الحق ، والفعلية فعل الصواب ، وكل طائفة من الطوائف لهم حكمة يتقيدون بها ، وأصح الطوائف حكمة من كانت حكمتهم أقرب إلى حكمة الرسل التي جاءوا بها عن الله تعالى . قال تعالى عن نبيه داود عليه السلام : ﴿ وآتيْناهُ الحِكْمةَ وفَصْلَ الخطاب ﴾ (١) . وقال عن المسيح عليه السلام : ﴿ويُعلِّمُه الكِتَابَ والحِكْمةَ والتّوراةَ والإنجيلَ﴾ (٢) . وقال عن يحيى عليه السلام : ﴿ وآتيْنَاهُ الحكمَ صبيّاً ﴾ (٣) . والحكم هو الحكمة ، وقال لرسوله محمد ﷺ : ﴿ وأنْزلَ الله عليْكَ الكِتابَ والحِكْمة ﴾ (٤) . وقال : ﴿ يُؤتي الحِكْمة مَنْ يشاء ومَنْ يؤتَ الحكمة فقَدْ أُوتيَ خيْراً كثيراً ﴾ (٥) . وقال لأهل بيت رسوله : ﴿ واذْكُرنَ ما يُتْلى في بيُوتكنّ منْ آياتِ الله والحِكْمة ﴾ (٦) . فالحكمة التي جاءت بها الرسل هي الحكمة الحق المتضمنة للعلم النافع ، والعمل الصالح للهدى ودين الحق لاصابة الحق اعتقاداً وقولا وفعلا . وهذه الحكمة فرقها الله سبحانه بين أنبيائه ورسله وجمعها لمحمد ﷺ ، كما جمع له من المحاسن ما فرقه في الأنبياء قبله ، وجمع في كتابه من العلوم والاعمال ما فرقه في الكتب

---

(١) سورة ص ، الآية : ٢٠ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٤٨ .
(٣) سورة مريم ، الآية : ١٢ .
(٤) سورة النساء ، الآية : ١١٣ .
(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٩ .
(٦) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٤ .

قبله ، فلو جمعت كل حكمة صحيحة في العالم من كل طائفة لكانت في الحكمة التي أوتيها صلوات الله وسلامه عليه جزءاً يسيراً جداً لا يدرك البشر نسبته .

والمقصود أن الفلاسفة اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها ، وقد صار هذا الاسم في عرف كثير من الناس مختصاً بمن خرج عن ديانات الأنبياء ، ولم يذهب إلا إلى ما يقتضيه العقل في زعمه ، إلا أن هذا عرف عامي لا عبرة به ، لأنــه لا يقتضيه وضع اللفظ ، ولا استعمال المحققين لهاه. كلام ابن القيم بزيادة ما .

وقال الشيخ الاكبر في مقدمة الفتوحات : إياك أن تبادر إلى انكار مسألة قالها فيلسوف أو معتزلي مثلا ، وتقول هذا مذهب الفلاسفة أو المعتزلة ، فإن هذا قول من لا تحصيل له إذ ليس كل ما قاله الفيلسوف مثلا يكون باطلا ، فعسى أن تكون تلك المسألة مما عنده من الحق ، ولا سيما إن كان الشارع ﷺ صرح بها أو أحد من علماء الأمة من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين . وقد وضع الحكماء من الفلاسفة كتباً كثيرة مشحونة بالحكم والتبرىء من الشهوات ، ومكائد النفوس ، وما انطوت عليه من خفايا الضمائر ، وكل ذلك علم صحيح موافق للشرائع ، فلا تبادر إلى الرد على مثل ذلك .

ثم قال ؛ فخذ ما أتاك به الفيلسوف أو المعتزلي مثلا ، ثم تربص واتئد على نفسك قليلا قليلا ، حتى يتضح لك معناه أحسن من أن تقول يوم القيامة : ﴿ يا وَيْلنا قَدْ كنّا في غَفْلة مِنْ هذا بلْ كنّا ظالمين ﴾ (١) .
وقال أيضاً في الباب (٢٢٦) أعلم أن الفلاسفة ما ذمت لمجرد هذا الاسم ، وإنما هو لما أخطأوا فيه من العلم المتعلق بالالهيات ، فإن معنى الفيلسوف هو محب الحكمة ، وكل عاقل يحب الحكمة غير أن أهل الافكار خطؤوهم في في الالهيات أكثر من اصابتهم سواء كان معتزلياً أو فيلسوفاً اه . نقله في اليواقيت .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٧ .

اعتراف الفلاسفة اليوم بالقصور عن بلوغ الحقائق وأن مقلديهم آفة العلم والدين :

ما أجلّ الوقوف على الآراء والمباحث ، وما أجمل العثور على ميدان التجالد فيها ، وما أهم ما يستفيده المنصف من مشهد ذلك لو لم يكن إلا ما يأخذه العقل من الحيطة عند تجالدها ، والبعد عن مشايعتها ، والعصمة من الانخداع في التحزب لبعضها ، حتى ينحسم الخلاف ويصطلح الفريقان لكفى .

كم من ناظر خدع برأي عزز بشبه حسبها أدلة ، ولم يشعر أن من ورائها آخر ينقضها ويهدمها ، ويبرهن أنها أوهام ، وطالما حججت من لج ممن أسكرتهم تلك المعرفة القليلة الضئيلة التي جعلتهم يتوهمون أنهم يعلمون كل شيء — أعني أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا تقليدهم الأعمى بدلا من العلم الصحيح — بأن الوقوف على حد واحد من القول قصور وتقصير ، وضلال وتضليل ، فما نسبة قول من كتيب أو رسالة إلى كتب ومصنفات أوسعت المقال ، وأطالت المجال ، فندت بعضها بعضاً ، وجعلت عالي أوهام آخرين سافلها . وما أغبى قوماً عقدوا على العناية برأي من آراء فاعتقدوه وامامهم لو بحثوا أو أعاروا النظر الصحيح ما ينكث كل ما اعتمدوه ، كيف لا ، وعند كل فرقة من الماديين غير ما عند غيرها ، ولكل منها أدلة تنفي آراء من سواها ولا تثبت رأيها[1] .

---

(١) كتب بعض الأفاضل مقالة تقرب مما قلناه هنا نذكرها تأييداً وتعضيداً . قال ما مثاله تحت عنوان أصل العالمين : نقم الماديون من الدينيين لنفيهم قليلا من الحقائق ثم رجوعهم اليهم كحركة الأرض ، وأوجبوا عليهم أن يصدقوا كل الآراء المادية قياساً على ذلك ، والجواب على هذا ان الدينيين نفوا بعض الأقوال أو الآراء العلمية إلى أن تحققوها بالبرهان، وهذا مما يستحقون عليه المدح ولكن العلماء من طبيعيين وماديين هم مثلهم في ذلك ، كما علم من تغييرهم أقوالهم فيما يتعلق بالأرض من الأحوال الفلكية ، فإن القول بحركة الأرض نفاه في أول أمره أكثر العلماء من الدينيين والطبيعيين والماديين ، فلماذا عابوا الدينيين في ذلك ، ولم يعيبوا أنفسهم عليه .

وإليك كثرة اختلافهم في أصل العالمين وانتقالهم من رأي إلى رأي على توالي العصور . فمن ذلك رأي طاليس وأتباعه وهو أن أصل العالمين الماء وأوضح ذلك بقوله : إن الماء قابل لكل صورة ، فمنه أبدع ـ

وقد اتفقوا على أن كثيراً من مزاعمهم لم يتبرهن منها شيء ، وبأن ما زعموه نتيجة مقدمات لم يسلم بها ، وبأن آراءهم فرض بلا إثبات ، ورأي من صور الوهم إلى غير ذلك مما لو جمع من كلام المتعقبين والمناقشين لبلغ مجلدات . ولم أعجب من أمر عجبي ممن يعتصر منهم جميع قواه، ويستفرغ في الخيالات كل مجهوده ثم لا يرى الواقف بعد رأياً مهذباً

ـ الجواهر كلها من السماء والأرض،وهو علة كل مبدع وعلة كل مركب من العنصر الجسماني، وإنه من جمود الماء تكونت الأرض ، ومن انحلاله تكون الهواء ، ومن صفوته تكونت النار ، ومن الدخان والأبخرة تكونت السماء ، ومن الاشتعال الحاصل من الأثير تكونت الكواكب ، فدارت حول المركز دوران المسبب على سببه بالشوق الحاصل فيها اليه ، فقوله يشبه قول الماديين في هذا العصر ، وقول النشوئيين من وجوه كثيرة ، كما يعلم من وقف على مذاهب هؤلاء وفهمها حق الفهم ، والظاهر أنه عبر بالشوق عن القوة المعروفة عندنا بالجاذبية . ولو عرف أن الماء ليس بعنصر بسيط كما عرفنا اليوم لأنه مركب من عنصرين هما : الأوكسجين والهيدروجين ما جعله أول مبادىء العالمين . ثم أبطل انكساغورس قوله في المبدأ الأول وقال : إن أصل العالمين شيء متشابه الأجزاء وأجزاؤه لطيفة لا يدركها الحس، ولا ينالها العقل منها كون الكون كله علوية وسفلية ، وهذا يشبه قول ماديي هذا العصر كثيراً . إذ قالوا أصل المادة عنصر بسيط ألطف من الهدروجين ، والظاهر من نقل الرواة غير رأيه مراراً، فنقل بعضهم عنه أنه قال : إن أصل الأشياء جسم واحد موضوع الكل لانهاية له ، ولم يبين ما ذلك الجسم أهو من العناصر أم خارج من ذلك . ونقل آخر أنه قال : إن المبدأ الأول العقل الفعال . ولو قال بدل العقل الفعال : إن أصل الوجود الله لخلص من كل ما لزمه من الخبط . وخالف طاليس أيضاً انكسيمانوس فقال : أصل العالمين الهواء . إذ لم يعلم أن الهواء ليس بعنصر بسيط ولا جسم مركب تركيباً كيمياً ، وانه مزيج من مختلفات معظمها النتروجين والأوكسجين . وأبطل انبذكلس كل هذه الآراء وقال : أصل العالمين العناصر الأربعة : التراب والماء والهواء والنار ، لأنه لم يعلم أن التراب مجموع عناصر كثيرة بين بسيطة ومركبة وأن الماء مركب والهواء مزيج كما ذكرنا وإن النار ليست بعنصر إنما هي من اعراض المادة أو ظاهرة من ظواهر التركيب . وقال بعضهم : إن أصل العالمين النار . والكلام على اختلافاتهم ورجوعهم عن مذهب إلى آخر يطول . وكذا كان من الفلاسفة بعدهم في العصور القديمة والحديثة . فبعضهم قال : إن النور أجسام صغيرة وآخر أنه تموج سيال يملأ العالمين وسماه بالأثير . وبعضهم قال بالجزء الذي لا يتجزأ وهو ما سموه بالجوهر الفرد . ثم رجع بعض القائلين به إلى أن المادة منقسمة إلى غير النهاية . ثم رجع الجمهور إلى اثبات الجوهر الفرد ، ثم نفاه جمهور العلماء في عصرنا ، وبيان رجوع عن مذهب كانوا يسلمون به إلى مذهب آخر ينافيه يطول كثيراً . وما ذكرناه كاف لإثبات أن العلماء غير الدينيين يخطئون في الآراء أكثر من علماء الدين ، وأنهم لم يأتوا إلى الآن بمذهب في أصل العالمين تطمئن به نفوس المحققين اهـ .

ولا مذهباً مصفى إلا انتقاضاً وتهافتاً وتكلفاً وانتحال ما يأباه العقل السليم والطبع المستقيم ، كما قال قائل منهم : « كل ما نقدر أن نعرف من هذا الوجود هو صور ومظاهر ، وكل رأي عن حقيقة المادة فاسد لا يمكن للعقل قبوله » ، العاقل يحظر عليه عقله القطع بصحة ما فرض قبل تحققه. وتحصيل العلوم اليقينية بالاستقراء صعب جداً وأعقل العقلاء عرضة للخطأ فيه ، وإنه ليس بتكرار المشاهدة والامتحان إذ ليس ذلك إلا طريقاً لإدراك السوابق والتوابع ، فلا وصول بعده وبعد الفرض إلى المطلوب إلا بالاستدلال ، ومن الصعب العزيز المنال والسفر البعيد الوصال فهم الكليات قبل الجزئيات وفقه النهاية بدون علم البداية ، والوقوف على السرائر مع جهل الظواهر ، وتطلاب المراد ، على غير استعداد ، ولا غرو فإن استنباط أوليات الأمور شرط في إدراك أخرياتها ، وما أجمل قول ابن رشد : إذا تكلم الانسان في شيء قبل أن يعلم طبيعته كان كلامه أشبه بمن يهذي اه .

ومما يجب أن يعلم أن الفرض إذا خالف شيئاً من المحققات بطل ، وإلا لزم نفي الحق اليقيني بموهوم أو مظنون ، وهو محال . وإذا وافق قليلا مما يلزم بالاستدلال ، ولم تتبين موافقته أو مخالفته لسائره توقف فيه . وإذا وافق كثيراً من ذلك اللازم ، ولم تتبين الموافقة أو المخالفة للسائر ظن أو رجح بحسب ذلك الموافق ، ودون ذلك لا مأمن من خطأ .

إذا تبين هذا ظهر أن ما يطيل به الماديون أضغاث أحلام ، وفرض بلا اثبات ، ورأي من صور أوهام لم يثبت وقوعها ، فهي مفتقرة للتحقيق ودفع ما عليها من الاعتراض والتزييف ، وكل عاقل إذا اعتزل الهوى يتوقف في دعوى لا برهان على اثباتها ولا دليل على نفيها ، فما قولك بفرض لم يثبت ببرهــان ، وتعليلاته بتراء ، وتفسيراته ناقصة أو مبهمة ، وكيف يستجيز العاقل النهم في الحقائق الولع بالانصاف أن يتشبع من هذه الظنون ما يهدم فضائل المعرفة من لبه ، ويودي بحياة صحيح عقده من قلبه ، لا جرم أن المخدوع بذلك يناقض ضميره ، ويكابر

شعوره ، ويعادي فطرته ، فحاشا ثم حاشا أن يكون الالحاد نتيجة العلم ، بل كلما رسخ العلم رسخت العقيدة على ما سنبينه .

قال بعض المحققين : « طالب الحقيقة هو الذي لا يشتبه في الحق إلا لعارض يصرفه عن الدليل ، فإذا نبه إليه تنبه ورجع ، ومن الناس من يسهل تنبيهه وهم أصحاب الأفكار المستقلة . ومنهم من يتعذر أو يتعسر تنبيهه على حسب بعده من التقليد ، وقربه من استقلال الفكر ، وفي المشتغلين بالعلم والفلسفة من المقلدين نحو ما في المشتغلين بعلم الدين ، فإن أحدهم يسمع أو يقرأ أن فلاناً الفيلسوف — الذي يعجب به — قال إنه لم يثبت عندي دليل على كذا ، فيقول هذا المقلد له المفتون ببهرجه لو كان هناك دليل قطعي لما خفي على ذلك الفيلسوف ، ويكلف نفسه بأن تشك أو ترتاب أو تنكر وتفند كل دليل » .

ولقد صدق ، فإنك ترى المقلد لهؤلاء الملحدين الذي أصبح آفة العلم والدين يخبط خبط عشواء ، ولا يدري النور من الظلماء ، وقصارى تفقيهه حفظه للآراء على علاتها ، وتبجحه بالمزاعم على سوءاتها .

قال الرازي في شرح الاشارات في صنف مقلدة الفلاسفة ما مثاله . المقلدة لا ينتفعون بشيء من العلوم ، وإن كانوا في غاية الذكاء ، لأن حبهم المفرط لما هم عليه من المذاهب يعميهم ويصمهم عن الوقوف على الحق ، وأخس الناس مقلدة هؤلاء الفلاسفة لنظرهم المتدينين بعين الاستخفاف الخ .

وقال حجة الاسلام الغزالي في الاقتصاد في بيان أمثالهم : إنهم لم يفارقوا العوام في أصل التقليد ، بل أضافوا إلى تقليد المذهب تقليد الدليل فهم في نظرهم لا يطلبون الحق بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة ما اعتقدوه حقاً بالسماع والتقليد، فإن صادفوا في نظرهم ما يؤكد عقائدهم قالوا : قد ظفرنا بالدليل ، وإن ظهر لهم ما يضعف مذهبهم قالوا قد عرضت لنا شبهة فيضعون الاعتقاد المتلقف بالتقليد أصلاً وينبذون بالشبهة كل ما يخالفه، وبالدليل كل ما يوافقه وإنما الحق ضده . وهو أن ينظر إلى الدليل ويسمى مقتضاه حقاً ونقيضه باطلاً اهـ .

وقال الغزالي أيضاً في محك النظر : من الاذهان ما فطر فطرة تسارع إلى قبول كل مسموع ، ثم تنصبغ به انصباغاً لا يمكن البتة انجلاؤه عنه ، ويكون مثاله كالكاغد الرخو الذي يغوص الحبر في عمقه ، فإن أردت محوه لزمك افساد الكاغد وخرقه ، وما دام الكاغد موجوداً كان السواد فيه موجوداً ، فهؤلاء أيضاً ما دامت أدمغتهم موجودة كانت هذه الضلالات فيها موجودة لا يقدر البشر على ازالتها اه .

وبالجملة ؛ فهؤلاء المقلدة المردة الملحدين كان تعلمهم وتعليمهم شراً على المجتمع الانساني ، فقد أصبح تطوحهم في الالحاد خارجاً عن الحد ، ونشأ من أمرهم ما كان أشد خطراً من بقائهم في ظلمات الجهالة ، بل حبذا الجهل عنده ، وقد ملك حب التقليد الأعمى عليهم نفوسهم وأهواءهم محاكاة لمن زعموا فيه التفوق من غير تحكيم الروية ، والتقليد فعل غريب في الأخلاق والعادات والأفكار وسائر الشؤون الانسانية وقلب أحوالها ، فهؤلاء الذين أشربت قلوبهم تقليد المعطلة استهانوا بفضائل سلفهم ، واستخفوا بها ، وودوا لو تجردوا عنها وما يتجردون إن تم لهم ذلك إلا من الفضيلة ومذاهبها والانسانية وكمالاتها . وليس الذنب في ذلك ذنب العلم ، بل الذنب ذنب التعليم الفاسد ، لأن العلم يوصل إلى الحق ولا يثمر إلا الفضيلة والصلاح ، ولا حيا الله شجرة لا تمد ظلاً ولا تثمر ثمراً، فهي بالقطع أولى منها بالبقاء ، حتى لا تكون عقبة كؤوداً في طريق السائرين . عجيب أمر من يدرك النقص من هؤلاء المقلدة ، ويقف عنده ولا يعلم أن وراءه كمالاً محضاً يجب أن يسعى له ، ويضرب بيد العزائم ليصل اليه . ولقد أنصف من قال : الخلاف الفلسفي أعظم خطراً من الخلاف العلمي وأشد صعوبة وكل الأقوال التي تقوم بشأنه ينقض بعضها بعضاً . والعلم الطبيعي مبني على الامتحان والتجربة والمشاهدة . والعلماء أنفسهم يقولون اليوم إنهم أطفال على شاطىء بحر العلم العظيم . وكأنه عناهم من قال :

أليس عجيباً بأنَّ امـرأ لطيف الخصام دقيقُ الكَلِمِ
يموتُ وما حصَّلت نفسه سوى عِلْمه إنّه ما علم

وأما سبب الاختلاف ، فناشيء أولاً عن أن الانسان لا يزال جاهلا . وثانياً أن الأمور التي لا تقع تحت حواسه لا يمكنه أن يحكم فيها حكماً واحداً ، لتشعبها وتناقضها ، ولذا فلا يجوز أن يسمى العلم الحاضر – يعني الفلسفي – علماً حقيقياً ، لأن العلم المطلق يقتضي أن يكون صاحبه قد أدرك كنه كل شيء وأتى به ، فلا وظيفة للعلم العصري المذكور إلا البحث عن ظواهر الأشياء وقشورها ، ومستخرجاته مستعدة للتغيير كلما اتسع نطاق العلم ، وانفرج مدى الاكتشاف كما انقلبت كثير من مسائل الهيئة وقواعدها الأولى بما حدث بعدها ظهراً لبطن ، فإذا كانت هذه حالة العلم الجديد أمامهم ، أفليس من الهوس اتخاذه آلة لنفي رواسخ الأصول ، ورواسي قضايا العقول ، وموقفه في الاضطراب ما رأيت أو الافتراء عليه بأنه ينقض ذلك ويبطله في حال كونه على العكس من ذلك ، فإنه يرشد إلى أسرار وحكم وبدائع تؤيد العقد الصحيح ، وتقرب اليه في مجال الحق الصريح . ﴿ ربّنا لا تُزغْ قلُوبنا بعْدَ إذْ هَدَيْتنا وهَبْ لنَا منْ لَدُنْكَ رحْمةً إنّكَ أنْتَ الوهّاب ﴾ (١) .

مطابقة الشرع للعقل ومؤاخاة العلم للدين

قال حكيم : العقل حجة الله القاطعة البالغة . وأصل براهينه الساطعة الدامغة ، وبواسطته استعبد عباده الكملة . وإلى من خصه به أرسل رسله . ثم العقل جوز إرسال الرسل . ولا يرد ما تقوى به لتوضيح السبل . والنقل لا يأتي بما يناقض العقل . وإنما يرد بما يزكي قضاءه ويصقل مرائي أحكامه أحسن صقل . ونظير ما حصل للعقل بالشرع من الاستئناس . ما حصل للكتاب من معاضدة السنّة والاجماع والقياس . ولو ورد المنقول بما يناقض المعقول . لاشبه فرعاً يوجد ما له من أصول . إذا أقبلت مواكب الأوامر الالهية على لسان الرسول . خضعت جماجم العقول منقادة زمام الانقياد والقبول . سامعة لما يرد منها . مطيعة لما يصدر عنها . فتارة يظهر للعقل ما للأوامر الشرعية من الحكم ، كنار على علم . وتارة يعجز عن

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٨ .

الاطلاع على ما تضمنته الأحكام النقلية من الحكم . فإذا ورد الشرع بحكم وكان للعقل في حكمته ادراك ، آثره وأكده واستمسك به في تصرفاته أقوى استمساك . وإن لم يكن له في ادراكه مدخل . نادى بلسان العجز والتسليم سبحان من لا يسئل عما يفعل . [1] .

وقال الامام الغزالي : يستحيل على الوحي الالهي والشرع الحق أن يرد بما ينبو عنه العقل بمعنى أن يكون برهان العقل يدل على استحالته . نعم ليس بمحال أن يرد بما يقصر العقل عن ادراكه ، ولا يستقل بالاحاطة بكنهه . وليس كل ما لا يدركه العقل محالا في نفسه ، بل لو لم نشاهد قط النار واخراجها ، فأخبرنا مخبر وقال : اصك خشبة بخشبة واستخرج منهما شيئاً أحمر بمقدار عدسة ، فتأكل كل هذه البلدة وأهلها ، حتى لا يبقى منهم شيء من غير أن ينتقل ذلك إلى جوفها ، ومن غير أن يزيد في حجمها بل تأكل نفسها ، فلا تبقى هي ولا البلد لكنا نقول هذا الشيء ينبو عنه العقل ، ولا يقبله ، وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك ، وكذلك قد يشتمل الشرع على مثل هذه العجائب التي ليست مستحيلة ،

---

(١) الذي عليه المحققون أن جميع الأحكام المشروعة أصولها وفروعها كلياتها وجزئياتها معقولة بالمعنى ، وإن حكمها وأسرارها إما مذكورة بالعبارة أو الاشارة أو بالتنبيه على أمثالها أو مطوية احالة على اقتضاء العقل السليم ، أو الفطرة أو رعاية المصلحة . وإن عدم العلم ليس علماً بالعدم . وقد حض الغزالي في الاحياء على تعرف الأسرار في الباب السادس من الجزء الأول في أسباب اليقين وعبارته : ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره ، وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله ، فاذا قلده في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول ، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره ، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله . وفعله لا بد وإن يكون لسر فيه ، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوام ، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالماً ، ولذلك كان يقال فلان من أوعية العلم ، فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار اه .

وقال في أواخر كتاب أسرار الطهارة ؛ واعلم أن العالم لا يكون وارثاً للنبي صلى الله عليه وسلم، إلا إذا اطلع على جمع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي إلا درجة واحدة وهي درجة النبوة .

وإنما هي مستبعدة وفرق بين البعد والمحال ، فإن البعيد هو ما ليس بمألوف والمحال ما لا يتصور كونه اه .

وقال الامام ابن تيمية : العقل الصريح موافق للرسول دائماً لا يخالفه ، فإن الميزان مع الكتاب ﴿ والله أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ [١] لكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به ، فيأتيهم الرسول بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه ، لا بما يعلمون بعقولهم بطلانه . فالرسل صلوات الله عليهم تخبر بمحيرات العقول لا تخبر بمحالات العقول اه .

ولذا اتفق العلماء على أنه إذا تعارض العقل والنقل أول النقل بالعقل [٢] إذ لا يمكن حينئذ الحكم بثبوت مقتضى كل منهما لما يلزم عنه من اجتماع

---

(١) قال الامام ابن رشد (فصل المقال،في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) ما مثاله : إن كان ظاهر النطق في الشريعة مخالفاً لما أدى اليه بالبرهان طلب تأويله . قال : ومعنى التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية.إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنة أوغير ذلك من الأشياء التي عددت في تعريف أصناف الكلام المجازى وإذا كان الفقيه يفعل هذا في كثير من الأحكام الشرعية فكم بالحري ؛ أن يفعل ذلك صاحب العلم بالبرهان ، فإن الفقيه إنما عنده قياس ظني . والعارف عنده قياس يقيني ، ونحن نقطع قطعاً إن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي .

قال وهذه القضية لا يشك فيهـا مسلم ولا يرتاب بها مؤمن ، وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول ، بل نقول أنه ما من منطوق به في الشرع وجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل ، أو يقارب أن يشهد ولهذا المعنى أجمع المسلمون على أنه ليس أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ، ولا أن تخرج كلها من ظاهرها بالتأويل اه . كلام ابن رشد رحمه الله .

وأقول : قاعدة تأويل النقل بالعقل إذا أوهم ظاهره خلافه قاعدة اتفق عليها الأئمة كافة بلا استثناء فمنهم من طردها حتى في باب الصفات ، وهم الجهمية والمعتزلة ونحوهم ، ومنهم من لم يطردها في باب الصفات وطردها في غيرها ، أو رأى أن الصفات ليست مما يوهم ظاهرها محالا ذهابا إلى أن الظاهر الذي هو الحقيقة الوضعية يعتبر بحسب المنسوب اليه ، فليس ظاهر ما يضاف اليه تعالى حقيقة هو ظاهر ما ينسب إلى البشر حقيقة ، حتى يؤول بالمجاز ، فيلزم التعطيل كما أن ذاته لا تشبه الذوات ، فكذلك صفاته ، فالكلام في الصفات فرع الكلام . في الصفات اثبات بلا تشبيه وتمثيل، وتنزيه بلا تأويل وتعطيل ، وهو مذهب ـ

النقيضين ، ولا بانتفاء ذلك لاستلزامه ارتفاع النقيضين لكن بقي أن يقدم النقل على العقل أو العقل على النقل ، والأول باطل ، لأنه إبطال للأصل بالفرع وإيضاحه أن النقل لا يمكن إثباته إلا بالعقل ، وذلك لأن إثبات

ـــ السلف الذي عول عليه معظم المحققين فانهم في باب الصفات على الاثبات المذكور ،وأما في غير باب الصفات مما ورد ظاهره يوهم محالا عند العقل فانهم جنحوا إلى التأويل فيه أي تأويل النقل بالعقل ورده اليه كما أول السلف آية (وهو معكم أينما كنتم) بالعلم . وآية (مايكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم) بالعلم ، وآية (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد) بالعلم أو الملائكة . ورجح الثاني الامام ابن تيمية في كتابه شرح حديث النزول ، وكتأويل حديث « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن » رواه مسلم وغيره كما في الجامع الصغير — بمعنى أنها تحت تصرفه وقدرته لا يفوته ما وراءه ، كما يقال : فلان في قبضتي لا يراد أنه حال في كفه ، وكتأويل حديث « الحجر يمين الله فمن مسحه فقد بايع الله » — رواه الديلمي والأزرقي كما في الجامع الصغير — بالحمل على التشبيه لتشريف الملموس واللامس ، وكتأويل حديث « اني لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن » وفي رواية أجد نفس ربكم بالانصار لأنهم من الأزد . وقد نفس الله بهم الكرب ، وكتأويل حديث « لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به » إلى آخره بحفظ حواسه عن المآثم والمعاصي . وكتأويل حديث « من تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً » الخ بأنه على التشبيه والتمثيل بالمتقرب بالطاعة والمتقرب اليه بالثواب وتأويل حديث « لو دليتم بحبل لهبط علي الله بالعلم » . وتأويل حديث « مرضت فلم تعدني » بمرض عبده وتأويل تتمته « انك لو عدته لوجدتني عنده » أي وجدت رحمتي ورضواني وأمثال هذا مما لا يحصى كثرة ، وقد حصل الاجماع على تأويله بالعقل ، وهذه القاعدة لم نوردها في بحث الصفات حتى يلزم منه ترجيح مذهب الخلف ، وإنما ذكرناها لبيان العناية بالعقل في نظر الشرع وإنها مراد السلف والخلف على الوجه الذي ذكرنا . وبما أوضحناه يجاب عن نقد بعض السلفيين على إيرادنا هذه القاعدة بأن فيها ذهاباً إلى ترجيح مذهب الخلف ، وبأنا لم نطلع على ما كتبه شيخ الاسلام ابن تيمية في نقضها في كتابه (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) ، وإيضاح الجواب إن بحثنا ليس في باب الصفات حتى يفهم ترجيحنا لمذهب الخلف ، ولم نقصد منها ما يفهم منها على اطلاقها الذي رد ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية ، وإنما أردنا بيان قيمة العقل في نظر الشرع ليعلم من يدعي أن العقل لا يلتئم مع الدين أنه مفتر عليه لأن العقل أصل النقل . أي أصل علمنا بصحته وإنه مرد كثير من متشابهاته ، وذلك في مثل ما أوردناه من الأمثلة لا في باب الصفات ولا في باب تقديم العقل مطلقاً ، فإن القول بذلك مردود بداهة ، ولذا قال شيخ الاسلام في كتابه المذكور ما مثاله . وفي هذا الكتاب « يعني كتابه رحمه الله » كلام في بيان انتفاء المعارض العقلي وإبطال قول من زعم تقديم الأدلة العقلية مطلقاً .

وقال أيضاً ثم نذكر وجوهاً أخر لبيان فساد هذا الأصل الذي يتوسل به أهل الالحاد إلى رد ما قال الله ورسوله اه . فما أردناه من هذه القاعدة غير ما أراده من رد عليهم ابن تيمية ، ولذلك نقلنا عبارة ابن رشد في طليعة المقالة لايضاح المراد ،حينئذ ارتفع الخلاف —

الصانع ومعرفة النبوة وسائر ما تتوقف صحة النقل عليه لا يتم إلا بطريق العقل[1] ، فهو أصل للنقل الذي تتوقف صحته عليه ، فإذا قدم على العقل وحكم بثبوت مقتضاه وحده ، فقد بطل الأصل بالفرع ، ويلزم منه إبطال الفرع أيضاً إذ تكون حينئذ صحة النقل متفرعة على حكم العقل الذي يجوز فساده وبطلانه ، فلا يقطع بصحة النقل فلزم من تصحيح النقل بتقديمه على العقل عدم صحته ، وإذا كان تصحيح الشيء منجراً إلى إفساده كان مناقضاً لنفسه ، فكان باطلاً وإذا لم يمكن تقديم النقل على العقل بالدليل السابق ، فقد تعين تقديم العقل على النقل وهو المطلوب ، هذا خلاصة ما في المواقف للعضد وشرحه ، وهكذا يقال في كل ما عارضه العلم الصحيح القطعي أعني لزوم تأويله به ، على أن الاطلاق والاستعمال العربي لا ينحصر في الحقيقة ، بل المجاز أبلغ وأوسع وأكثر كما تقرر في محله[2] .

وبالجملة ، فالعلم والدين أليفان متحابان يتفرعان من أصل واحد ، ولذلك لا يمكن أن يسلب أحدهما ما يوجبه الآخر ، قال بعضهم : ما أحرى من عثر على ظاهر اختلاف أن يعزو ذلك إلى جهله وضعفه . وقدمنا

ــ إذ لا يتوقف أحد فيما ذكرناه لا سلفي ولا خلفي ، ومتى علم المراد ،اندفع الايراد، ولنا على هذه القاعدة مقالة مطولة كتبناها جواباً لسؤال جاءنا من بغداد عام ١٣٢٤ وقد طبعت المقالة مع السؤال في مجلة المنار الاسلامية في مصر في سلخ شعبان عام ١٣٢٨ في الجزء الثامن من المجلد الثالث عشر فليراجع اليها فان فيها من الفوائد ما لا يستغنى عنها اه .

(١) أي فهو أصل في معرفتنا بالسمع ودليل لنا على صحته وحاصل المراد بكون العقل أصلا للنقل إنه أصل في علمنا بصحته لا في ثبوته في نفسه ، لأن ما هو ثابت في نفس الأمر بالسمع أو بغيره هو ثابت سواء علمنا بالعقل ثبوته أو لا . إذ عدم العلم ليس علماً بالعدم ، وعدم علمنا بالحقائق لا ينفي ثبوتها في أنفسها فما أخبر به الصادق المعصوم هو ثابت في نفس الأمر سواء علمنا صدقه أو لم نعلم . وبالجملة فالعقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته وأن خبره مطابق لمخبره اه .

(٢) راجع ما جاء في المثل السائر في الفصل السابع في الحقيقة،والمجاز من أن المجاز أولى بالاستعمال من الحقيقة في باب الفصاحة والبلاغة . وما جاء في المزهر في النوع الرابع والعشرين من أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة . وما جاء في دلائل الأعجاز في فضول تحقيق الفصاحة والبلاغة من كون الكناية والمجاز بأنواعه أبلغ من الحقيقة .

أنه لم يزل كثير من المسائل التي قررها أئمة الفن الطبيعي هم منها في شك ، وما غاب عنهم من أسرارها أكثر بكثير مما أشرفوا عليه .

قُلْ للذي يدّعي في العلم معْرفةً — حَفِظْتَ شيئاً وغابتْ عنكَ أشياءُ

فليس من الحكمة أن لا يصدق الانسان إلا بما يراه بنفسه فإن عمره لا يكفي لسبر غور فن واحد فما بالك بمجموع المحاولات الانسانية . ولذا كان مما يؤخر في تقدم الناظر ، ويرجعه القهقري أن يضيق دائرة بحثه ويقيد نفسه من غير بحث بعدم تصديق الأشياء التي يزعم أنها لا تنطبق عليها النواميس الطبيعية المعروفة الآن ، فإن هذا عار فاضح لا يغتفر لذوي العقول السليمة ، لأن النواميس لم تكتشف كلها بعد ، والعلوم ناقصة لم يوقف لها على حد . ولذلك ترى أساطين الفلسفة هم أول المعترفين في كل نوع من فروع العلم بأنهم لم ينالوا من العلم إلا جزءاً محدوداً ، وأكثرهم علماً أوفرهم تواضعاً ، وكلهم يقرون بأن ما حصلوه للآن من الاكتشافات وما درسوه من هذا الجزء من الكون ليس إلا عدماً بالنسبة لما يجهلونه . وكل من عود قلبه التشكك اعتراه الضعف والنفس عزوف فما عودتها من شيء جرت عليه ، والمتحيز إلى تقوية قلبه ورد قوته عليه وإفهامه موضع رأيه ، وتوقيفه على الأمر الذي أشغل صدره أحوج منه إلى المنازعة ، ومن زينت له نفسه أنه ارتقى أرق الحكمة وأدق الفلسفة ، فهو في وادي الوهم وأسير الحسبان،أو به غلبة من مرة،أو فساد من خلط،ولعل تقليد من قبله قد أضله وأعماه وأصمه ، لأن الحكمة بارزة والأساس محكم والشواهد ناطقة والأدلة حاضرة .

اضطرار الانسان إلى الايمان وآفات الماديين على العمران :

اتفقت كلمة الفلاسفة والحكماء العقلاء على أنه لا كمال للانسان مطلقاً ، بل ولا وصول له إلى التمسك بأهداب الآداب ، واقتباس أنوار الاستبصار إلا باقتفاء آداب الدين ، والأخذ بهديه القويم ، والسلوك على صراطه المستقيم . ذلك لأن الانسان وإن تثقف عقله بالعلوم المادية والآداب العرفية ، لا تزال فيه نزعة من حب الاثرة والميل عن جادة الوسط المطلوب

بين الإفراط والتفريط في الأمور سيما إذا أمن اللائم ، وبَعُدَ عن الرقيب ، وانفسح له مجال التأويل ، فقد يصل إلى الدرك الأسفل من هاوية الفساد وسوء الحال ، وهو يظنه اقتراباً من الكمال المطلوب ، وقد عميت بصيرته بما غشيها من أنواع التساهل ، ونزعات التأويل الباطل ، وقد تمضي عليه الأحقاب في التجارب ليختار لنفسه ما يجده أوفق بمطلوبه من الكمال ، وأمس بحاجته من الآداب ، ثم يرى بعد كل هذا الفساد أنه لا يزال كما كان حيث ابتدا . ولم يستشرف بعد على شيء من معالم الاهتداء ، فهو كمن أجهد نفسه بالسير حول دائرة يطلب طرفها ، فلا يرى أمامه إلا البعد الغير المتناهي . وماذا عساه يتحصل بعد ذلك على شيء من مطلوبه . اللهم إلا أن يكون زيادة الحيرة وكثرة القلق، أو ربما استحوذ عليه اليأس المهلك ، فلا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى .

وأما المسترشد بهدي الدين الآلهي ، فقد كفى هذا العناء واستراح من تلك الحيرة ، حيث تكفل له من لا ينطق عن الهوى ببيان طريق الوصول إلى السعادة المطلوبة على أحسن ما يرام ، من كل ما فيه كمال النظام ، فالدين هو الداعي إلى سبيل الرشد وطرق السعادة البشرية ، ليهتدوا بها إلى المصالح التي تقوم بها حياتهم : ويقوم معوج عملهم وينتظم في الحياة الدنيا شأنهم . ويظهر جوهر كمالهم الذي يهيئهم للترقي في سلم المدنية . والتوصل إلى السعادة الأبدية ، وقد أخذ دين الاسلام من ذلك بأوفر سهم إذ كان أجمع الأديان لما تمس إليه حاجة الانسان ، وتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمي دين الفطرة . ثم لم يدع حكمة ولا كمالاً ولا أدباً ولا هدياً ولا علماً ولا مطلباً لقوام البشر إلا وقد نبه عليه ، أو أشار إليه ، فاستقل بأمره ، ولم يبق حاجة لغيره ، وبذلك صار لبنة التمام ، وفاح به مسك الختام ، وكملت النعمة على الأنام .

وبالجملة فدين الأمة هو مدرسة أخلاقها . ودستور عقولها . ومصباح حياتها . وقانون وجودها . فلا تشرف عواطف الأمة وتتهذب أميالها . وتتزكى سرائرها إلا بالعقائد الصحيحة ، ولا يصان نظامها من الخلل والتفرق إلا بالدين ، ولا يندفع خطر الفوضى التي تهوي بالشعوب من

الهلكة إلى مكان سحيق إلا بالإيمان الصحيح ، فبقدر تمكن العقيدة من نفوس أفراد الأمة تكون سعادتهم وقوام حياتهم والعكس بالعكس .

أنظر إلى من ألم الإلحاد بقلوبهم ، وتولت الأهواء نفوسهم كيف يكونون أجراء على الرذيلة ، وأجرى في سبيلها إذ لا زاجر من الإيمان يؤنبهم . ولا وازع يمنعهم من اقتراف المنكرات والسعي بالفساد واجتراح السيئات أين هؤلاء ممن إذا تمثلت أمامهم الموبقات . وزينت لهم نفوسهم الشهوات ، كان لهم من الفضيلة زاجر ، ومن قوة اليقين وازع لصحة إيمانهم بالله وما جاءه من عنده . وصدق يقينهم بوعيد الله ووعده ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١) .

وقد بيّن كثير من الأعلام آفات الماديين ، وما ألحقوا بالنوع الإنساني من المضار التي خبث أثرها وساء ذكرها ، ويكفي أن مقصودهم محو الأديان ، ووضع أساس الإباحة والاشتراك في الأموال والإيقاع بين الناس عامة (نعوذ بالله) ، وكيفما وجدوا في أمة أفسدوا أخلاقها ، وأيما ذاهب ذهب في غور مقاصد الآخذين بطريقتهم تجلى له أن لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية ، وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الانسانية إذ لا ريب في أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين ألبتة ، فإن الدين يقيد النفوس عن التدهور في التأثم ، وعن الاندفاع إلى أنواع العدوان من قتل وسلب ، وهتك عرض ويحجز عن الغدر والخيانة وفعل كل خبيثة ، وعن الوقوع في كل رذيلة ، ويحمل العقول على كسب الكمال البشري ، وأعمال الهمة في كشف الحقائق وتعرف أسرار الكون . هذا يسير مما نبه عليه حكماء الأمة الخبيرون ، كما يعلم ذلك من وقف على حكمهم التي اقتطفنا منها هذه الشذرة وبالله التوفيق (٢) .

---

(١) سورة محمد (ص) ، الآية : ١٤ .

(٢) في مجلة المقتطف في الجزء السادس من المجلد السابع والثلاثين صحيفة (١٨٩٨) : والتعطيل أي إنكار وجود الله ونسبة الانسان اليه من مقوضات دعائم العمران ، ولا عبرة بثبوت ـ

رسوخ العقيدة بالرسوخ في العلم :

كلما ازداد المرء علماً بالفنون الكونية ورسخت قدمه في العلوم الطبيعية ازداد بموجد الكون معرفة وبالآيات الدالة عليه بصيرة . وكلما قلت معارفه ابتعد عن الخالق بنسبتها . وهكذا كلما راجت أسواق العلوم الحكمية وتبينت أسبابها كان الاعتقاد بوجود الله أشد وأقوى ، وسقطت لدى براهينها شبهات الخراصين(١) ، وشاهده ما يأتي به مهرة المدققين في العلوم الطبيعية من الأدلة القاطعة المنوعة التي تؤيد وجود اللهسبحانه. وبالضرورة معرفة العلل والأسباب تؤدي إلى الأذعان بموجدها ومسببها ، وقد جاء في مقالة لأحد الأئمة الحكماء ما يؤيد هذا المعنى حيث قال :

كلما ارتقى الانسان في العلم . ولطف وجدانه بالفهم . ونفذ عقله في أسرار الكون تمزقت دون روحه حجب المادة ، وانجلى له الوجود الأعلى على تفاوت ، كذلك في درجات الظهور والانجلاء تنتهي إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة ، لأن ما لأحد له محال أن تحيط وجوده الحدود ، وقد كان هذا شأن اليونانيين نشأوا وثنيين ، ولا زالت الوثنية ترق وتدق وترث بارتقائهم في العلوم وبحث

— العمران الآن بين الأقوام الذين شاع التعطيل عندهم ، لأنهم تربوا تربية دينية ، فرسخ في نفوسهم عمل الواجب وكراهة الكذب والاعتداء على الغير ونحو ذلك من الشرور ولكن إذا أنزع مبدأ الحلال والحرام الديني تعذر وضع مبدأ آخر يقوم مقامه ويرسخ رسوخه ، ولذلك يوجس المفكرون شراً مما ستصير اليه حال أوروبا وأمريكا في أواخرهذا القرن إذا انتشر التعطيل فيها، هذا فضلا عن أن التعطيل غير معقول لذاته ، ففرضه خطأ علمياً ، كما هو ضرراً اجتماعياً، والمجاهرة به تفضي إلى أكبر المضار على نوع الانسان اه .

وجاء في أول هذا الجزء تحت عنوان (آياته في خلقه) : رد على من يرى أن التعطيل أي إنكار وجود الخالق لا يضر أحداً . قالت المجلة : ونحن نرى أنه يأتي بأكبر المضار ولكن هب أنه لا يضر ، فهل هو معقول . ثم ضربت أمثلة جميلة من عالم النبات والحيوان في نموها وتوالدها وأسهبت في تفصيل أطوارها وشؤونها . ثم قالت : هذه هي بعض الآيات البينات التي لا يغضي عقل الانسان عنها وعما تدل عليه إلا إذا تكلف الأغضاء تكلفاً أو كان خاملا لا يفكر ولا يقيس ولا يستنتج اه .

(١) ما ألطف ما قاله الامام ابن تيمية في هذا المعنى : كلما ظهر الاسلام وعرفوا حقيقته قلت آثار الشياطين فيهم .

فلاسفتهم في طبائع الكائنات ، حتى انتهوا ، وهم في ذرى مدنيتهم إلى التوحيد وتنزيه واجب الوجود عن مخالطة المادة .

وقف فيثاغورس على عتبة التقديس ، وجاء بعده سقراط وأفلاطون وأرسطو مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم باذلين الوسع في محو ما غشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى . ومن قرأ جمهورية أفلاطون — التي نقلت إلى العربية أيام المأمون تحت اسم المدنية الفاضلة — علم كيف يقارع أفلاطون ما بقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة والعادات الرديئة التي كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التي كان يطمع الفيلسوف أن تكون عليها . وبعد أن أوصلهم العلم إلى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه إلى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قروناً متعددة ، وكانت أشد صفاء وأبهر سطوعاً . كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى ، وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه استئثاراً منهم بشرف العقيدة على من دونهم ، فترى ضعف العقل وقلة العلم ، ونقص الادراك تقف بصاحبها عند الوسائط وقوة العقل ، ونفوذ البصيرة وسعة العلم تصعد بأهلها إلى مشهد الوجود الأعلى وتشرق بهم من هناك على العالم بأسره ، فيرونه عظيمه وحقيره سواء في النسبة إلى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة . الفاضل والمفضول والفروع والأصول . وما ظهر للأبصار وما نفذت إليه العقول . كل يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكمة ، وتمت بها النعمة فأي مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهداً على الكون بجملته ما فصل منه في فهمه وما أجمل في كليات علمه يحكم عليه بأنه مربوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لا سلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لا في الإيجاد ولا في الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع أن يصل بنفسه إلى تلك الحضرة ، وأن يستمد منها المعونة في كل شؤونه اهـ .

وبالجملة ، فالعلم الصحيح أعظم باعث للاعتقاد والإيمان ، وأكبر سائق إليه ، وأن الانسان كلما ازداد علماً ازداد يقيناً وجزما .

طرف للسلف مع الدهرية :

روى أنه خاصم جماعة من الدهرية أبا حنيفة رضي الله عنه ، فقال لهم ما تقولون في رجل يقول لكم أني رأيت سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة . ورياح مختلفة . وهي من بينها تجري مستوية ليس لها ملامح يجريها . ولا متعهد يدفعها . هل يجوز ذلك في العقل ؟ قالوا : لا . هذا شيء لا يقبله العقل ، فقال أبو حنيفة : يا سبحان الله ! إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ : فقالوا له : صدقت . وتابوا .

وسئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى مرة أخرى ، فاستدل بأن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس ، فدل على الصانع .

وسئل الشافعي رضي الله عنه ! ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال : ورقة الفرصاد[١] طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد تأكلها دودة القز ، فيخرج منها الابريسم ، والنحل فيخرج منها العسل ، والشاة فيخرج منها البعر ، ويأكلها الظباء فينعقد في نوافجها المسك ، فمن الذي جعل هذه الأشياء ، كذلك مع أن الطبع واحد . قال الرازي : فاستحسنوا منه ذلك ، وأسلموا على يده وهم سبعة عشر .

وحكى عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه تمسك بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ظاهرها كالفضة المذابة ، وباطنها كالذهب الابريز ،

---

(١) بكسر الفاء شجر التوت . قال الأسود بن يعفر :

ولقد لهوت وللشباب بشاشة ... بسلافة مزجت بماء غوادي
يسعى بها ذو تومتين منطق ... فنأت أنامله من الفرصاد

التومة : الحبة من الدر ؛ والسلافة أول الخمر ، والغوادي السحائب تأتي غدوة (تاج) .

ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير فلا بد من الفاعل : عنى بالقلعة البيضة وبالحيوان الفرخ .

وسئل مالك رضي الله عنه ، فاستدل باختلاف الأصوات ، وتردد النغمات ، وتفاوت اللغات .

وقال رجل لجعفر بن محمد رضي الله عنهما : ما الدليل على الله تعالى ، ولا تذكر لي العالم والعرض والجوهر ، فقال له : هل ركبت البحر ؟ قال : نعم . قال : هل عصفت بكم الريح حتى خفتم الغرق ؟ قال : نعم . قال : فهل انقطع رجاؤك من المركب والملاحين ؟ قال : نعم . قال : هل تتبعت نفسك أن ثمّة من ينجيك ؟ قال : نعم . قال : فإن ذاك هو الله .

وسئل حكيم فأجاب : لو لم يكن للعالم صانع ، لكان أضيع ضائع . هل رأيت مصنوعاً بلا صانع . وسقفاً مرفوعاً بلا رافع . وهل نفى الصانع إلا مكابرة . وما يجحده إلا النفوس الكافرة .

وسئل ابن هانئ فقال :

تأمّل في رياض الأرض وانظُر إلى آثارِ ما صَنَعَ المليكُ
عيونٌ من لُجَيْنٍ شاخصاتٌ وأزهارٌ كما الذهب السبيكُ
على قُضُبِ الزبُرجدِ شاهداتٌ بأن اللهَ ليس له شريكُ

وسئل أعرابي عن الدليل فقال : البعرة تدل على البعير . وآثار الأقدام على المسير . فسماء ذات أبراج . وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ألا تدل على العليم الخبير .

وسئل صوفي عن الدليل فقال : أغنى الصباح عن المصباح .

وقال آخر عرفته بالنحلة في أحد طرفيها عسل ، وفي الآخر سم ، وفي رواية بأحد طرفيها تعسل ، وبالآخر تلسع ، والعسل مقلوب اللسع .

ويحكى أن الفخر الرازي مرّ في طريق تحف به تلامذته وأتباعه ،

فهدأت الأصوات إجلالاً له . وكان ثمة امرأة عابدة ، فقالت : ما دعا لهدوء أصوات الناس؟ فقالوا : إجلالاً لمن يقيم على وجود الله ألف دليل . فقالت لهم : ويحه لو عرفه ما احتاج إلى دليلٍ واحد ، فبلغه فقال : نحن نعلم من وراء الحجاب ، وهم ينظرون من غير حجاب .

وقيل لطبيب : بم عرفت ربك؟ قال : بإهليلج مجفف أطلق ، ولعاب ملين أمسك . والنوادر في هذا الباب تفوت الحصر يمر منها كثير بالمطالع كتب المحاضرات[1] .

موازنة بديعية بين دليلين في هذا الباب :

قال الشيخ الحسن بن عبد الله العسكري في التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم : أحسن الألفاظ في البلاغة ما يزيد في كشف المعنى مع اختصاره بأقل ما يمكن من العبارة بأعذب الألفاظ وأخفها على الأسماع . والبلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة ، ولا على لسان دون لسان ، بل هي مقسومة على أكثر الألسنة ، فهم فيها مشتركون وهي موجودة في كلام اليونانية ، وكلام العجم ، وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها في العرب أكثر لكثرة تصرفها في النظم والنثر والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز .

ثم قال الشيخ : وسأذكر في هذا الموضع صدراً من الفصول المختارة من غير اللسان العربي ، ثم أذكر بعده صدراً من الفصول العربية مما يصلح للمذاكرة ، ويبعث على النشاط ، فإذا قرأها قارئٌ دلت على أنفسها في الإيجاز والحذف ، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة . فمن ذلك قول سقراط « دل الجسم على صانعه » ، فجمع بثلاث لفظات خفاف معاني كثيرة جليلة القدر ، لأن الجسم يدل على أنه لم يصنع نفسه ، وأن له صانعاً حكيماً ، كما يدل البناء على الباني والكتاب على الكاتب . فانظر

(١) فن المحاضرات من أهم الفنون التي تتحلى بها الأماثل وتتزين بها الصدور في المحافل– من تضلع منها رق طبعه ووفر فهمه وزاد لطفه وظرفه وأدرك المخرج من كل شيء وقد أهمله – وأسفاه – الناس ولا غرو ان يهمل الكماليات . من فرط في الحاجيات :

كم بين هذا وبين ما يحكى عن بعض ملوكهم أنه سئل ما الذي يدل على معرفة الله ، ويثبت العلم بالغيب ، فقال : إن لكل ظاهر من صغير أو كبير علماً ، فهو يصرفه ويحوطه ، فمن كان معتبراً بالجليل من ذلك ، فلينظر إلى السماء ، فيعلم أن لها بارئاً يجري فلكها ويدبر أمرها ، ومن اعتبر بالصغير ، فلينظر إلى حبة الخردل ، فيعلم أن لها مدبراً ينشئها ويركبها ، ويقدر لها أقواتاً من الأرض والماء ويوقت لها زماناً لهشمها ، وأمر النبوة والآيات وما يحدث في أنفس الناس من حيث لا يعلمون ، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على ذكر الله تعالى ، وتعظيمه واجتماع من شك في الله وكذب به على أنهم لم يحدثوا أنفسهم ، فكل ذلك يهديك إلى الله ، ويدل على أنه أنشأ الخلق ودبر هذه الأمور .

قال الشيخ : وهذا الكلام على طوله قد انتظم أكثر معانيه في قول سقراط (دل الجسم على صانعه) .

المطلب الرابع

في مسائل مهمات من علم النبوات

بيان أن من تمام العناية بالموجودات بعثة الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات :

قال الشيخ الرئيس : من المعلوم أن نوع الانسان محتاج إلى اجتماع وشركة في ضروريات حاجاته مكفياً في آخر من نوعه يكون ذلك الآخر أيضاً مكفياً به ، ولا تتم الشركة إلا بمعاملة ومعاوضة يجريان بينهما يفرغ كل واحد منهما صاحبه عن مهم لو تولاه بنفسه لازدحم على الواحد كثير ، ولا بد في المعاملة من سنّة وعدل ، ولا بد من سانّ معدل ولا بد من أن يكون بحيث يخاطب الناس ، ويلزمهم السنة فلا بد من أن يكون إنساناً ، ولا يجوز أن يترك الناس وآراءهم في ذلك ، فيختلفون ويروي كل واحد منهم ما له عدلاً وما عليه جوراً وظلماً ، فالحاجة إلى هذا الانسان في أن يبقى نوع الانسان أشد من الحاجة إلى إنبات الشعر على الأشفار والحاجبين ، فلا يجوز أن تكون العناية الأولى تقتضي أمثال تلك المنافع ولا تقتضي هذه التي هي أثبتها ، ولا أن يكون ما يعلمه في نظام الأمر الضروري حصوله لتمهيد نظام الخير لا يوجد ، بل كيف يجوز أن لا يوجد وما هو متعلق بوجوده مبني على وجوده . فلا بد إذن من « نبي » هو إنسان متميز من بين سائر الناس بآيات تدل على أنها من عند ربه يدعوهم إلى التوحيد ، ويمنعهم من الشرك ، ويسن لهم الشرائع والأحكام ، ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن التباغض والتحاسد ، ويرغبهم في الآخرة وثوابها ، ثم يكرر عليهم العبادات ليحصل لهم تذكر

المعبود بالتكرير ، واستفادة ملكة الالتفات إلى الحق والإعراض عن الباطل اه .

وقال الجاحظ : او ترك الناس وقوي عقولهم ، وغلبة شهواتهم ، وكثرة جهلهم ، وشدة نزوعهم إلى ما يرديهم ويطغيهم ، حتى يكونوا هم الذين يحتجرون من كل ما أفسدهم بقدر قواهم ، وحتى يقفوا على حد الضار والنافع ، ويعرفوا فضل ما بين الداء والدواء ، والأغذيـــة والسموم . كان قد كلفهم شططاً ، وأسلمهم إلى عدوهم وشغلهم عن طاعته التي هي أجدى الأمور عليهم وانفعالهم ، ومن أجلها عدل التركيب وسوي البنية ، وأخرجهم من حد الطفولية والجهل إلى البلوغ والاعتدال والصحة وتمام الإرادة والآلة ، ولذلك قال عز ذكره ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونَ ﴾[1] فلما كان ذلك كذلك علمنا أن الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم إلا لصلاحهم ، ولا يجوز صلاحهم إلا بتبقيتهم ، ولولا الأمر والنهي ما كان للتبقية وتعديل الفطرة معنى . ولما أن كان لا بد العباد من أن يكونوا مأمورين منهيين بين عدو عاص ، ومطيع ولي . علمنا أن الناس لا يستطيعون مدافعة طبائعهـــم ومخالفة أهوائهم ، إلا بالزجر الشديد والتوعد بالعقاب الأليم في الآجل إذ كان شأنهم إيثار الأدنى وتسويف الأقصى ، وإذا كانت عقول الناس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم ، فهم عن مصالح دينهم أعجز ، فلما كان ذلك كذلك علمنا أنه لا بد للناس من إمام يعرفهم جميع مصالحهم وذلك هو « الرسول » . فالرسول هو الذي يشرع الشريعة ، ويبتدئ الملة ، ويقيم الناس على حمل مراشدهم اه .

وقال النصير الطوسي في فوائد البعثة : ضرورة وجود الأنبياء لتكميل الأشخاص بالعقائد الحقة ، والأخلاق الفاضلة ، والأفعال المحمودة النافعة لهم في عاجلهم وآجلهم ، وتكمين النوع باجتماعهم على الخير والفضيلة ، وتساعدهم في الأمور الدينية وسياسة الخارجين عن جادة الخير والصلاح اه .

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦ .

ثم إن بديهة الفطرة تتقاضى الناس باتباع الأنبياء قال الرازي : إعلم أن أكثر الخلق ناقصون ، ولا بد لهم من مكمل يكملهم ، ومرشد يرشدهم وهاد يهديهم وما ذاك إلا الأنبياء عليهم السلام وبديهة الفطرة شاهدة بأنه يجب على الناقص الاقتداء بالكامل اه .

آيات النبوة :

قال الامام الراغب الأصفاني في الذريعة : لكل نبي آيتان إحداهما عقلية يعرفها أولوا البصائر من الصديقين ومن يجري مجراهم ، والثانية حسية يدركها أولوا الأبصار من العامة ، فالأولى ما لهم من أصولهم الزكية وصورهم المرضية ، وعلومهم الباهرة، ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصحبة وأنوارهم الساطعة التي لا تخفى على أولي البصائر ، كما قال الشاعر في مدح النبي ﷺ :

لو لم يكن فيه آياتٌ مبيّنــــةٌ كانت بداهته تُغْنيكَ عن خبَره

وذلك أن حق النبي أن يكون من أكرم تربة في العالم . وحيث يكون عقل ربابها أوفر ولهذا لم يبعث نبي من الأطراف التي تضعف عقول أصحابها . ويجب أن يكون من عنصر كريم من بيت الفضل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبْراهيمَ وآلَ عُمرانَ عَلى العَالمينَ * ذُرِّيةً بَعْضُها مِنْ بعْض ﴾ (١) ونبه بقوله ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ أنه جعل النبوة في بيت واحد ، ولا تخرج عنه لكونه أشرف . ويجب أن يكون عليهم أنوار تروق من رآها وأخلاق تتملك من ابتلاها ، كما قال تعالى لنبينا ﴿ وإنّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ (٢) . ويجب أن يكون كلامه ذا حجة وبيان يشفي سامعه إذا كان متخصصاً بنور العقل ، ولذلك قال تعالى ﴿ وكَذَلكَ أوْحَيْنا إليْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا﴾ (٣) الآية . وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو البصيرة معها

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣٣ .
(٢) سورة القلم ، الآية : ٤ .
(٣) سورة الشورى ، الآية : ٥٢ .

إلى معجزة ولا يطلبها كما لا تطلب الأنبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ، ولهذا لما عرض النبي ﷺ على الصديق رضي الله عنه الاسلام تلقاه بالقبول .

وأما الآية الثانية فهي المعجزة التي تدركها الحواس من الأنبياء ، وذلك يطلبه أحد رجلين إما ناقص عن الفرق بين الكلام الإلهي وبين الكلام البشري ، وعن إدراك سائر ما تقدم ذكره ، فيحتاج إلى ما يدركه حسه لقصوره عن إدراك ذلك . وإما ناقص ومع نقصه هو معاند ، فقصده بما يطلبه العناد كما قال تعالى حكاية عن الكفار ﴿ وقَالُوا لَنْ نؤمِنَ لَكَ حَتّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأرْضِ ينْبوعاً ﴾ [(١)] إلى قوله ﴿ قُلْ سُبْحانَ ربِّي هَلْ كُنتُ إلاَّ بَشَراً رَسُولا ﴾ [(٢)] اه .

وقال الفارابي : النبوة مختصة في روحها بقوة قدسية تذعن لها غريزة عالم الخلق الأكبر ، كما تذعن لروحك غريزة عالم الخلق الأصغر ، فتأتي بمعجزات خارجة عن الجبلة والعادات ، ولا تصدأ مرآتها ، ولا يمنعها شيء عن انتقاش ما في اللوح المحفوظ من الكتاب الذي لا يبطل ، وذوات الملائكة التي هي الرسل ، فتبلغ مما عند الله إلى عامة الخلق اه .

وقال ابن رشد في إثبات الخوارق علماً : إذا صح الوجود وأمكن أن يتغير جسم عما ليس بجسم ولا قوة في جسم تغير استحالة ، فإن ما أعطي من ذلك السبب الممكن إذ ليس كل ما كان ممكناً في طبيعته يقدر الانسان أن يفعله فإن الممكن في حق الانسان معلوم . وأكثر الممكنات في أنفسها ممتنعة عليه ، فيكون تصديق النبي أن يأتي بالخارق ، وهو ممتنع على الانسان ممكن في نفسه . وليس يحتاج في ذلك أن نضع الأمور الممتنعة في العقل ممكنة في حق الأنبياء . وإذا تأملت المعجزات التي صح وجودها وجدتها من هذا الجنس . وأبينها في ذلك كتاب الله العزيز الذي لم يكن كونه خارقاً من طريق السماع ، كانقلاب العصا حية ، وإنما ثبت كونه

---

(١) سورة الاسراء ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة الاسراء ، الآية : ٩٣ .

معجزاً بطريق الحس والاعتبار لكل إنسان وجد ويوجد إلى يوم القيامة ، وبهذا فاقت هذه المعجزة سائر المعجزات .

ثم قال وطريق الخواص في تصديق الأنبياء طريق آخر قد نبه عليه أبو حامد في غير ما موضع ، وهو الفعل الصادر عن الصفة التي بها سمي النبي نبياً ، وهو الإعلام بالغيوب ، ووضع الشرائع الموافقة للحق والمفيدة من الأعمال ما فيه سعادة جميع الخلق .

ثم قال : والذي يقول القدماء في أمر الوحي والرؤيا إنما هو عن الله تعالى بتوسط موجود روحاني ، ليس بجسم ويسميه الحذاق منهم العقل الفعال ، ويسمى في الشريعة ملكاً اه .

وقال النصير الطوسي . أما انخراق العادة ، فليس مما ينكره المتكلمون لأنه جائز مع القول بالفاعل المختار ، ولا مما ينكره الحكماء لأنهم يقولون بأن للنفوس الزكية قوى ربما تؤثر في أكثر الأجسام التي في عالم الكون والفساد اه .

بيان أن العلوم التي تخبر بها الأنبياء ماتت بحسرتها قدماء الفلاسفة والحكماء :

يظهر لكل من سبر ما للفلاسفة المتقدمين والمتأخرين من التخالف والتظنن والافتراض وإجهاد الأفكار ، لقطع المفاوز العلمية أن كلامهم في الآلهيات والكوائن العلوية كلام قاصر جداً ، وفيه تخليط كثير ، وأن إجادتهم للمباحث غالباً في الأمور الطبيعية وفي كلياتها : على أنهم كثيراً ما يصرحون بأنهم لم يزالوا بعد في دور الطفولية : وأما طرائق الوحي الرباني ، والفيض الصمداني ، فلم تشرق عليهم أنواره ، ولم تبرق نحوهم أسراره ، لذا كان الغيب الذي تخبر به الأنبياء ، والكليات العقلية التي تعم الموجودات كلها ، وتقسم الكائنات قسمة صحيحة لا يعرفونها ألبتة ، فإن هذا لا يكون مصدره إلا الوحي ، وجلي أن ما لا يشهده الفلاسفة من الموجودات أعظم قدراً وصفة مما يشهدونه فضلاً عما لم تصل إليه مداركهم من حقائق الكائنات . وحينئذ فنفيهم لما يخبر

به الوحي الذي قام البرهان على صحته لا دليل عليه ، وليس لهم بهذا النفي علم ولا حجة ، فإن عدم العلم ليس علماً بالعدم ، إلا أن هذا مرض أكثر من عرف نوعاً من العلم وامتاز به عمن لا يعرفه ، فتراه لجهله نافياً لما لا يعلمه . وضلال بني آدم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوا وصدقوا به قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبوا بمَا لَمْ يُحيطُوا بعِلْمِهِ ولمّا يأتِهِمْ تأويلُهُ ﴾(١) ، هذا ما أشار له الامام ابن تيمية في تفسير سورة الاخلاص .

وقال صاحب رسائل أخوان الصفا في القسم الرابع من الرسالة السابعة في بيان محاسن الدين الحنيف والموازنة بينه وبين ما للفلاسفة ما مثاله : إن الأنبياء عليهم السلام كلهم مع تباعد أزمانهم ، واختلاف لغاتهم ، وموضوعات شرائعهم ، وافتنان سننهم هم متفقون على رأي واحد ، ومقصد واحد فيما يشيرون إليه في دعوتهم الأمم ، وأما الفلاسفة فليس شريعتهم واحدة ، ولا دينهم واحد ، بل آراءهم مختلفة ، وأقاويلهم متناقضة تورث لأتباعهم حيرة لا تنجلي غمرتها ، فكيف يرضى العاقل عن مذهب الفلاسفة مع اختلافهم ، ويعرض عن البحث والنظر في كتب الأنبياء عليهم السلام مع اتفاقها . واعلم أنه إنما ذهب على أكثر المتفلسفين والباحثين عن حقائق الأشياء معرفة كتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتركهم البحث عنها ، وإعراضهم عن النظر فيها ، ولقصور فهمهم عن تصورها اه .

وما أصدق ما قيل : إن ما أتى به الأنبياء هو الذي مات في حسرة الوقوف عليه الفلاسفة الأول والحكماء . فكم خبطوا في الوجود والموجد خبط عشواء ، وكم تاهوا في بيداء الجهالة والحيرة قروناً وأجيالاً فلما رحمت الأمم – والحمد لله – ببعثة الأنبياء لاسيما خاتمهم صلوات الله عليهم تمهدت السبل لحل العويصات ، واستنارت المدارك بطلعة الحق وتبين أن ما يدعون اليه من أظهر الأشياء وأجلاها ، وأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها إلا أن غموضه لضعف العقول ، وجهلها لعدم هاد لها

(١) سورة يونس ، الآية : ٣٩ .

ومرشد ، ولذلك لا يعدم الوحي على المدا منصفاً من أعدائه ، بل لا يزالون يتقربون إلى حكمته كلما تنورت مداركهم وتنبهت مشاعرهم .

بيان المنة على العالمين ببعثة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلامه :

كل من أوى إلى حرم الانصاف ، وتنكب عن شعاب الهـوى والاعتساف ، علم حاجة الناس كافة إلى رسالة خاتم النبيين ، وأكبر منة الله به على العالمين ، فقد بعث ﷺ – وأهل الأرض يومئذ – كما قال علي رضي الله عنه ملل متفرقة . وأهواء منتشرة . وطوائف متشتتة بين مشبه لله بخلقه أو ملحد في اسمه . أو مشير إلى غيره . ضلال في حيرة . وخابطون في فتنه قد استهوتهم الأهواء . واستزلتهم الكبرياء . واستخفتهم الجاهلية الجهلاء حيارى في زلزال من الأمر . وبلاء من الجهل ، فهداهم به من الضلالة . وأنقذهم بمكانه من الجهالة . اه .

وقد عظم الله به المن . وبسط بمكانه عليهم الأمن . وعرفهم بطلعته اليمن . فجرى مجرى الغيث إذا عم وطبق . وقرن الشمس إذا ذر وأشرق . فسطعت مصابيح الحق وأنواره . وطلعت شموس العلم وأقماره . وبرز به الحق في أحسن ملابسه . ونجم العرفان في أزكى مغارسه . وفاض الخير ودواعيه . وحسم الشر وعواديه . وأخمد جمر الفتنة .وجمع شمل الألفة . وأقام قناة الدين . وبسط باع العدل وأطال عنان الاحسان . لم يدع للباطل علماً إلا وضعه . ولا ركناً إلا ضعضعه . اجتث أصول الضلالة وفروعها . وحصد نجومها وزروعها . وأبطل الباطل وأحق الحق . وأحل النقمة بمن فارق العصا وشق . ما لجأ إليه لاجئٌ إلاسعد جده ووری زنده . ونفذ حده ، ولم يفارق الاعتصام بحبله مفارق الا حالفه الخسران . وعانقه الخذلان . ورصدت له المنون . وطحنته الحرب الطحون . من أخلص له إضماراً وإظهاراً فاز بنجاته . ومن ألحد في موالاته إعلاناً وأسراراً خسر في محياه ومماته . ولا غرو فهو ﷺ خيرة الله وخاصته . وأثرته وخالصته أخلص الأخلصين . وأخص الأخصين . ورحمة المدانـين والقاصين . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الأكرمين .

بيان كون القرآن أعظم خوارق الأنبياء :

أول معجز دعا به النبي ﷺ إلى نبوته . وصدع فيه برسالته هو القرآن الكريم والذكر الحكيم . فقهرت شواهده من باين وعاند . وحجت دلائله من ناكر وجاحد . وقد بين غير واحد من الأئمة[1] سر كون القرآن أعظم آيات النبيين إعجازاً . وأوضحها طريقة وامتيازاً . فمن ذلك ما قاله أبو القاسم الراغب الأصفهاني في آخر فصل من مقدمة تفسيره في فصل إعجاز القرآن : المعجزات التي أتى بها الأنبياء عليهم السلام ضربان : حسي وعقلي ، فالحسي ما يدرك بالبصر كطوفان نوح ، وعصا موسى عليهما السلام . والعقلي ما يدرك بالبصيرة كالأخبار عن الغيب تعريضاً وتصريحاً ، والإتيان بحقائق العلوم التي حصلت من غير تعلم .

فأما الحسي ، فيشترك في إدراكه العامة والخاصة ، وهو أوقع عند طبقات العامة وآخذ بمجامع قلوبهم ، وأسرع لإدراكهم ، إلا أنه لا يكاد يفرق بين ما يكون معجزة في الحقيقة ، وبين ما يكون كهانة أو شعبذة أو سحراً أو سبباً اتفاقياً ، أو مواطأة واحتيالا هندسياً ، أو تمويهاً وافتعالا إلا ذو سعة في العلوم التي يعرف بها هذه الأشياء ، وأما العقلي فيختص بإدراكه كملة الخواص من ذوي العقول الراجحة ، والأفهام الثاقبة ، والرؤية المتناهية الذين يعنيهم إدراك الحق .

وجعل تعالى أكثر معجزات بني إسرائيل حسياً لبلادتهم وقلة بصيرتهم . أو أكثر معجزات هذه الأمة عقلياً لذكائهم ، وكمال إفهامهم التي صاروا بها كالأنبياء ولذلك قال عليه السلام « كادت أمتي أن تكون أنبياء »[2] ، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على وجه الدهر غير معرضة للنسخ ،

---

(١) راجع فصول الجاحظ ، وما كتبه الامام ابن حزم في الفصل ، والماوردي في أعلام النبوة ، والقاضي عياض في الشفا ، وتقي الدين ابن تيمية في آخر الجواب الصحيح ، وهو أوسعها وأجمعها وغيرهم ، ولسهولة الوقوف عليها لم نطل الكلام بايرادها .

(٢) لينظر من خرجه فاني لم أظفر له فيما بين يدي من الأصول بأصل ، نعم روى « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » و « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد » و « الشيخ في قومه كالنبي في أمته » . وقد تكلم فيها من صنف في الموضوعات .

وكانت العقليات باقية غير متبدلة جعل أكثر معجزاتها مثلها باقية .

وما أتى به النبي ﷺ من معجزاته الحسية ، كتسبيح الحصا في يده ، ومكالمة الذئب له ، ومجيء الشجرة اليه ، فقد حواها وحصاها أصحاب الحديث ، وأما العقليات فمن تفكر فيما أورده عليه السلام من الحكم التي قصرت عن بعضها إفهام حكماء الأمم ، بأوجز عبارة اطلع على أشياء عجيبة .

ومما خصه الله به من المعجزات « القرآن » وهو آية حسية عقلية صامتة ناطقة . باقية على الدهر مبثوثة في الأرض . ولذلك قال تعالى ﴿ وقالوا لَوْلا أُنْزِلَ عليْهِ آياتٌ مِن رَبِّهِ قُلْ إنّما الآياتُ عِندَ اللهِ وإنّما أنا نَذيرٌ مُبينٌ * أوَ لَم يَكفِهِم أنّا أنْزَلْنا علَيْكَ الكِتابَ يُتْلى علَيْهِم ﴾ [1] ودعاهم ليلا ونهاراً مع كونهم أولى بسطة في البيان إلى المعارضة بنحو قوله ﴿ وإنْ كُنْتُم في رَيْبٍ ممّا نَزّلْنا عَلى عَبْدِنا فأتُوا بِسورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَداءَكُم مِنْ دونِ اللهِ ﴾ [2] وفي موضع آخر ﴿ وادْعوا مَن استَطَعْتُم مِن دونِ اللهِ إنْ كُنْتُم صادِقينَ ﴾ [3] وقال ﴿ قُلْ لَئِنْ اجتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلى أن يأتوا بمِثْلِ هَذا القُرآنَ لا يَأتونَ بمِثْلِهِ ولَوْ كانَ بَعضُهُم لِبَعْضٍ ظَهيراً ﴾ [4] فجعل عجزهم علماً للرسالة ، فلو قدروا ما قصروا وبذلوا أرواحهم في إطفاء نوره وتوهين أمره ، فلما رأيناهم تارة يقولون ﴿ لا تَسْمَعوا لِهَذا القُرْآنِ والْغُوا فيهِ ﴾ [5] وتارة يقولون ﴿ لَوْ شِئْنا لَقُلْنا مِثْلَ هَذا ﴾ [6] وتارة يصفونه بأنه ﴿ أساطيرُ الأوَّلِينَ ﴾ [7] .

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٥٠ ، ٥١ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .
(٣) سورة يونس ، الآية : ٣٨ .
(٤) سورة الاسراء ، الآية : ٨٨ .
(٥) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .
(٦) سورة الأنفال ، الآية : ٣١ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ٢٥ . الأنفال ، آية : ٣١ . النحل ، آية : ٢٤ وغيرها كثير .

وتارة يقولون ﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنَ جُمْلَةً واحِدةً ﴾ [1] وتارة يقولون ﴿ أئتِ بِقُرْآنٍ غيرِ هَذَا أوْ بَدِّلْهُ ﴾ [2] كل ذلك عجزا عن الإتيان بمثله علمنا قصورهم عنه . ومحال أن يقال أنه عورض فلم ينقلَ فالنفوس مهتزة لنقل ما دق وجل .

وهذه الجملة المذكورة وإن كانت دالة على كون القرآن معجزاً فليس بمقنع إلا بتبيين فصلين :

أحدهما أن نبين ما الذي هو معجز هو اللفظ أم المعنى أم النظم أم ثلاثتها ، فإن كل كلام منظوم مشتمل على هذه الثلاثة .

والثاني أن المعجز هو ما كان نوعه غير داخل تحت الإمكان ، كإحياء الموتى ، وإبداع الأجسام ، فأما ما كان نوعه مقدوراً فمحله محل الأفضل ، وما كان من باب الأفضل في النوع ، فإنه لا يحسم نسبة ما دونه إليه ، وإن تباعدت النسبة حتى صار جزأ من ألف ، فإن النجار الحاذق ، وإن لم يبلغ شأوه لا يكون معجزاً إذا استطاع غيره جنس فعله ، فنقول وبالله التوفيق .

إن الإعجاز قد ذكر في القرآن على وجهين :

أحدهما إعجاز متعلق بفصاحته .

والثاني : بصرف الناس عن معارضته .

فأما الإعجاز المتعلق بالفصاحة فليس يتعلق ذلك بعنصره — الذي هو اللفظ والمعنى — وذاك أن ألفاظه ألفاظهم ولذلك قال تعالى ﴿ قُرْآناً عَرَبِياً ﴾ [3] وقال ﴿ ألم * ذَلِكَ الكِتابُ ﴾ [4] تنبيهاً أن هذا الكتاب مركب من هذه الحروف التي هي مادة الكلام — ولا يتعلق أيضاً بمعانيه ، فإن كثيراً منها موجود في كتب المتقدمين ولذلك قال تعالى ﴿ وإنّه لَفي زُبُرِ الأوَّلينَ ﴾ [5] وقال ﴿ أوَلَم تَأتِيهِم بَيِّنَةُ ما في الصُّحُفِ الأولى ﴾ [6]

---

(1) سورة الفرقان ، الآية : ٣٢ .
(2) سورة يونس ، الآية : ١٥ .
(3) سورة يوسف ، الآية : ٢ .
(4) سورة البقرة ، الآية : ١ ، ٢ .
(5) سورة الشعراء ، الآية : ١٩٦ .
(6) سورة طه ، الآية : ١٣٣ .

وما هو معجز فيه من جهة المعنى كالأخبار بالغيب ، فإعجازه ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه مخبراً بالغيب ، وذلك سواء كونه بهذا النظم أو بغيره وسواء كان مورداً بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى أو بإشارة أو بعبارة . فإذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرآناً كما أنه بالنظم المخصوص صار الشعر شعراً والخطبة خطبة . فالنظم صورة القرآن ، واللفظ والمعنى عنصره ، وباختلاف الصور يختلف حكم الشيء واسمه ، لا بعنصره كالخاتم والقرط والخلخال ، اختلف أحكامها وأسماؤها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة . فإذا ثبت هذا ثبت أن الاعجاز المختص بالقرآن متعلق بالنظم المخصوص .

وبيان كونه معجزاً هو أن نبين نظم الكلام ، ثم نبين أن هذا النظم مخالف لنظم سائره فنقول :

لتأليف الكلام خمس مراتب :

الأولى نظم وضم حروف التهجي بعضها إلى بعض حتى يتركب منها الكلمات الثلاث . الاسم والفعل والحرف .

والثانية : أن يؤلف بعض ذلك مع بعض حتى يتركب منها الجمل المفيدة ، وهو النوع الذي يتداوله الناس جميعاً في مخاطباتهم وقضاء حوائجهم ، ويقال له المنثور من الكلام .

والثالثة : أن يضم بعض ذلك إلى بعض ضماً له مبادئ ومقاطع ومداخل ومخارج ، ويقال له المنظوم .

والرابعة : أن يجعل في أواخر الكلام مع ذلك تسجيع ، ويقال له المسجع .

والخامسة : أن يجعل له مع ذلك وزن مخصوص ويقال له الشعر وقد انتهى .

وبالحق صار كذلك فإن الكلام إما منثور فقط أو مع النثر نظم . أو مع النظم سجع . أو مع السجع وزن ، والمنظوم إما محاورة ويقال لها

الخطابة ، وإما مكاتبة ويقال لها الرسالة . وأنواع الكلام لا تخرج عن هذه الجملة . والقرآن حاو لمحاسن جميعه بنظم ليس هو نظم شيء منها بدلالة أنه لا يصح أن يقال القرآن رسالة أو خطابة أو شعر ، كما يصح أن يقال هو كلام ، ومن قرع سمعه فصل بينه وبين سائر النظم . ولهذا قال تعالى ﴿ وإنّه لَكتابٌ عَزيزٌ * لا يأتيهِ الباطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [1] تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر ، فيمكن أن يزاد فيه كحال الكتب الأخر .

فإن قيل ولم لم يبلغ بنظم القرآن الوزن الذي هو الشعر ، وقد علم أن للموزون من الكلام مرتبة أعلى من مرتبة المنظوم غير الموزون إذ كل موزون منظوم وليس كل منظوم موزوناً .

قيل إنما جنب القرآن نظم الشعر ، ووزنه لخاصية في الشعر منافية للحكمة الإلهية ، وهو أن القرآن مقر الصدق ، ومعدن الحق ، وقصوى الشاعر تصوير الباطل في صورة الحق ، وتجاوز الحد في المدح والذم دون استعمال الحق في تحري الصدق ، حتى أن الشاعر لا يقول الصدق ، ولا يتحرى الحق إلا بالعرض ، ولهذا يقال (من كانت قوته الخيالية فيه أكثر . كان على قرض الشعر أقدر . ومن كانت قوته العاقلة فيه أكثر . كان في قرضه أقصر) ولأجل كون الشعر مقر الكذب نزه الله نبيه عليه السلام عنه لما كان مرشحاً لصدق المقال ، وواسطة بين الله وبين العباد فقال : ﴿ وما علّمناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبغي لَهُ ﴾ [2] فنفى انبغاءه له وقال ﴿ وَما هُوَ بقَوْلِ شاعِرٍ ﴾ [3] أي ليس بقول كاذب ، ولم يعن أن ذلك ليس بشعر ، فإن وزن الشعر أظهر من أن يُشتبه عليهم ، حتى يحتاج إلى أن ينفى عنه . ولأجل شهرة الشعر بالكذب سمي أصحاب البراهين الأقيسة المؤدية في أكثر الأمر إلى البطلان والكذب شعرية . وما وقع في القرآن من الألفاظ متزنة فذلك بحسب ما يقع في الكلام على سبيل العرض بالاتفاق وقد تكلم الناس فيه .

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٤١ ، ٤٢ .
(٢) سورة يس ، الآية : ٦٩ .
(٣) سورة الحاقة ، الآية : ٤١ .

وأما الاعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته فظاهر أيضاً إذا اعتبر ، وذلك أنه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة كانت أو مذمومة ، إلا وبينها وبين قوم مناسبات خفية واتفاقات إلهية بدلالة أن الواحد فالواحد يؤثر حرفة من الحرف ، فينشرح صدره بملابستها وتطيعه قواه في مزاولتها ، فيقبلها باتساعٍ قلب ، ويتعاطاها بانشراح صدر . وقد تضمن ذلك قوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُم شِرْعَةً ومِنْهاجاً ﴾[1] وقول النبي ﷺ « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ، فلما روى أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم ، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن وعجزهم عن الإتيان بمثله ، ولم تهتز غرائزهم به للتصدي لمعارضته لم يخف على ذي لب أن صارفا إلهياً صرفهم عن ذلك ، وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه ومجبرة في الباطن عن ذلك ، وما أليقهم بإنشاد ما قال أبو تمام :

فإنْ يكُ أهملنا فاضعفُ بسعينا وإن يك أجبرنا فَفيمَ نتعتــعُ

اه كلام الراغب .

وقال القاضي ابن رشد : إن خارق النبي ﷺ الذي تحدى به الناس وجعله دليلاً على صدقه فيما ادعى من رسالته هو الكتاب العزيز .

فإن قيل من أين يظهر أن الكتاب العزيز معجز وأنه يدل على كونه رسولا ؟

قلنا : كون القرآن دلالة على صدق نبوته عليه السلام ينبني على أصلين قد نبه عليهما الكتاب .

أحدهما أن الصنف الذين يسمون رسلاً وأنبياء معلوم وجودهم بنفسه ، وأن هذا الصنف من الناس هم الذين يضعون الشرائع للناس بوحي من الله لا بتعلم إنساني .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٤٨ .

وثانيهما أن كل من وجد عنه هذا الفعل الذي هو وضع الشرائع بوحي من الله تعالى ، فهو نبي ، وهذا الأصل أيضاً غير مشكوك فيه في الفطر الإنسانية ، فإنه كما أن من المعلوم بنفسه إن فعل الطب هو الابراء وأن من وجد منه الابراء ، فهو طبيب . كذلك أيضاً من المعلوم بنفسه أن فعل الأنبياء عليهم السلام هو وضع الشرائع بوحي من الله ، وأن من وجد منه هذا الفعل فهو نبي .

فإن قيل من أين يعلم الأصل الأول ، وهو أن ههنا صنفاً من الناس يضعون الشرائع بوحي من الله ، وكذلك من أين يعلم الأصل الثـــاني ، وهو أن ما تضمن القرآن من الاعتقادات والأعمال بوحي من الله ؟

قيل : أما الأصل الأول ، فيعلم بما ينذرون به من وجود الأشياء التي لم توجد بعد ، فتخرج إلى الوجود على الصفة التي أنذروا بها ، وفي الوقت الذي أنذروا ، وبما يأمرون به من الأفعال ، وينبهون عليه من العلوم التي ليست تشبه المعارف والأعمال التي تدرك فتعلم . وذلك أن الخارق المعتاد إذا كان خارقاً في المعرفة بوضع الشرائع دل على أن وضعها لم يكن بتعلم ، وإنما كان بوحي من الله وهو المسمى نبوة . وأما الخارق الذي هو ليس في نفس وضع الشرائع مثل انفلاق البحر وغير ذلك ، فليس يدل دلالة ضرورية على هذه الصفة المسماة نبوة ، وإنما يدل إذا اقترنت إلى الدلالة الأولى ، وأما إذا أتت مفردة ، فليس تدل على ذلك ، ولذلك ليس تدل في الأولياء على هذا المعنى إن وجدت لهم ، لأن الصنف الآخر من الخارق ، وهو الدال دلالة قطعية ليس هو موجوداً لهم ، فعلى هذا ينبغي أن تفهم الأمر في دلالة المعجز على الأنبياء . أعني أن المعجز في العلم والعمل هو الدلالة القطعية على صفة النبوة ، وأما المعجزة في غير ذلك من الأفعال ، فشاهد لها ومقو .

فإن قيل : فمن أين يدل القرآن على أنه خارق ومعجز من نوع الخارق الذي يدل دلالة قطعية على صفة النبوة — أعني الخارق الذي في فعل النبوة الذي يدل عليها كما يدل الإبراء على صفة الطب الذي هو فعل الطب .

قلنا : يوقف على ذلك من وجوه .

أحدها أن يعلم أن الشرائع التي تضمنها من العلم والعمل ليست مما يمكن أن يكتسب بتعلم ، بل بوحي .

والثاني : ما تضمن من الاعلام بالغيوب .

والثالث : من نظمه الذي هو خارج عن النظم الذي يكون بفكر وروية . أعني أنه يعلم أنه من غير جنس[1] ما للبلغاء المتكلمين بلسان العرب ، سواء من تكلم منهم بذلك بتعلم وصناعة ، وهم الذين ليسوا بأعراب ، أو من تكلم بذلك من قبل المنشأ عليه وهم العرب الأول . والمعتمد في ذلك على الوجه الأول .

فإن قيل : فمن أين يعرف أن الشرائع التي فيها العلمية والعملية هي بوحي من الله تعالى ، حتى استحق بذلك أن يقال فيه أنه كلام الله ؟

قلنا : يوقف على هذا من طرق : إحداها أن معرفة وضع الشرائع ليس تنال إلا بعد المعرفة بالله ، وبالسعادة الانسانية ، والشقاء الانساني ، وبالأمور التي يتوصل بها إلى السعادة ، وهي الخيرات والحسنات ، وبالأمور التي تعوق عن السعادة وتورث الشقاء الأخروي ، وهي الشرور والسيئات ، ومعرفة السعادة الانسانية والشقاء الانساني تستدعي معرفة ما هي النفس ، وما جوهرها ، وهل لها سعادة أخروية وشقاء أخروي ، أم لا ؟ وإن كان ، فما مقدار هذه السعادة وهذا الشقاء ؟ وأيضاً فبأي مقدار تكون الحسنات سبباً للسعادة ، فإنه كما أن الأغذية ليست تكون سبباً للصحة بأي مقدار استعملت ، وفي أي وقت استعملت ، بل بمقدار مخصوص

(١) كتب إلى عالم نحرير هو صديق مخلص يقول : إن أردتم بالجنس غير الألفاظ ، فذاك . وإلا فهو من الجنس ولذلك كان التحدي به لعجزهم عن الإتيان بمثله ، وهو مثل كلامهم حتى ظننت أن لفظة غير زائدة بل غلط من الكاتب اه . والجواب : أن مراد ابن رشد بالجنس النوع والأسلوب ، أي أنه مخالف لما جرو عليه نوعاً وأسلوباً فلا يدخل في شعر ولا رجز ، ولا يشاكل خطاباتهم ، ولا سجعهم ، ولا يشبه غريب أمثالهم ، كما سيأتي لنا نقله عن المعري في حاشية قريبة .

ووقت مخصوص ، كذلك الأمر في الحسنات والسيئات ، ولذلك نجد هذه كلها محدودة في الشرائع ، وهذا كله أو معظمه ليس يتبين إلا بوحي ، أو يكون تبيينه بالوحي أفضل .

وأيضاً : فإن معرفة الله على التمام إنما تحصل بعد المعرفة بجميع الموجودات ثم يحتاج إلى هذا كله واضع الشرائع أن يعرف مقدار ما يكون به الجمهور سعيداً من هذه المعرفة ، وأي الطرق هي الطرق التي ينبغي أن تسلك بهم في هذه المعارف ، وهذا كله ، بل أكثره ليس يدرك بتعلم ولا بصناعة ولا حكمة . وقد يعرف ذلك على اليقين من زاول العلوم ، وبخاصة وضع الشرائع ، وتقرير القوانين ، والإعلام بأحوال المعاد . ولما وجدت هذه كلها في الكتاب العزيز على ما يمكن علم أن ذلك بوحي من عند الله ، وأنه كلامه ألقاه على لسان نبيه ، ولذلك قال تعالى منها على هذا ﴿ قُلْ لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ على أنْ يأتوا بِمِثْلِ هَذا القُرآنِ لا يأتونَ بِمِثْلِه ﴾[1] الآية .

ويتأكد هذا المعنى ، بل يصير إلى حد القطع واليقين التام إذا علم أنه ﷺ كان أمياً نشأ في أمة أمية عامية بدوية[2] لم يمارسوا العلوم قط ، ولا نسب إليهم علم ، ولا تداولوا الفحص عن الموجودات على ما جرت به عادة اليونانيين وغيرهم من الأمم الذين كملت الحكمة فيهم في الأحقاب الطويلة ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلو مِن قَبْلِهِ مِن كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمينِكَ إذاً لارْتابَ المُبْطِلونَ ﴾[3] ولذلك أثنى الله تعالى على عباده بوجود هذه الصفة في رسوله في غير ما آية من كتابه فقال تعالى ﴿ هُوَ الّذي بَعَثَ في الأمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم ﴾[4]

---

(١) سورة الاسراء ، الآية : ٨٨ .

(٢) كتب إلى ذاك الصديق النحرير يقول : لعل الصواب حضرية إذ منشؤه (ص) أم القرى ومحل دعوته اهـ . والجواب : أن مراد ابن رشد بكونها بدوية ما بينه بقوله لم يمارس العلوم قط ، ولا نسب إليهم علم الخ . لا أنهم سكان الأخبية وقطان الدور .

(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨ .

(٤) سورة الجمعة ، الآية : ٢ .

الآية . وقال ﴿ الّذينَ يتّبعونَ الرّسولَ النبيَّ الأمّيَّ ﴾[1] الآية . وقد يوقف على هذا المعنى بطريق آخر ، وهو مقايسة هذه الشريعة بسائر الشرائع ، وذلك أنه إن كان فعل الأنبياء الذين هم به أنبياء إنما هو وضع الشرائع بوحي من الله تعالى على ما تقرر الأمر في ذلك من الجميع . أعني القائلين بالشرائع بوجود الأنبياء صلوات الله عليهم ، فإنه إذا تؤمل ما تضمنته سائر الكتب والشرائع وجدت تفضل في هذا المعنى سائر الشرائع بمقدار غير متناه .

وبالجملة ؟ فإن كانت ههنا كتب واردة في شرائع استأهلت أن يقال أنها كلام الله لغرابتها وخروجها عن جنس كلام البشر ، ومفارقته بما تضمنت من العلم والعمل ، فظاهر أن الكتاب العزيز الذي هو القرآن هو أولى بذلك وأحرى أضعافاً مضاعفة . ولو ذهبنا لنبين فضل شريعة على شريعة ، وفضل الشريعة المشروعة لنا معشر المسلمين على سائر الشرائع ، وفضل التعليم الموضوع لنا في معرفة الله ، ومعرفة المعاد ومعرفة ما بينهما لاستدعى ذلك مجلدات كثيرة مع اعترافنا بالقصور عن استيفاء ذلك ، ولهذا قيل في هذه الشريعة أنها خاتمة الشرائع .

ولعموم التعليم الذي في الكتاب العزيز ، وعموم الشرائع التي فيها أعني كونها مستعدة للجميع كانت هذه الشريعة عامة لجميع الناس ، ولذلك قال تعالى ﴿ قُلْ يا أيُّها النّاسُ إنّي رَسولُ اللهِ إليْكُم جميعاً ﴾[2] وقال عليه السلام : « بُعِثتُ إلى الأحمر والأسود[1] فإنه يشبه أن يكون الأمر في الشرائع كالأمر في الأغذية ، وذلك أنه كما أن من الأغذية أغذية تلائم الناس أو الأكثر ، كذلك الأمر في الشرائع ، فلهذا المعنى كانت الشرائع التي قبل شريعتنا هذه إنما خص بها قوم دون قوم ، وكانت شريعتنا هذه عامة لجميع الناس .

وإذا كان هذا كله كما وصفنا ، فقد تبين لك أن دلالة القرآن على نبوته ﷺ ليست هي مثل دلالة انقلاب العصا حية ، ولا أحياء الموتى

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٧ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ .

وإبراء الأكمة والأبرص ، فإن تلك ، وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء ، وهي مقنعة عند الجمهور ، فليست تــدل دلالة قطعيــة إذا انفردت إذ كانت ليست فعلاً من أفعال الصفة التي بها سمي النبي نبياً . وأما القرآن فدلالته على هذه الصفة هي مثل دلالة الابراء على الطب ، ومثال ذلك : لو أن شخصين ادعيا الطب ، فقال أحدهما : الدليل على أني طبيب أني أسير على الماء ، وقال الآخر : الدليل على أني طبيب أني أبرئ المرضى ، فمشى ذلك على الماء وأبرأ هذا المرضى ، لكان تصديقنا بوجود الطب الذي أبرأ المرضى ببرهان ، وتصديقنا بوجود الطب للذي مشى على الماء مقنعاً ، وكذلك وجه الارتباط الذي بين المعجز الذي ليس هو من أفعال الصفة ، والصفة التي استحق بها النبي أن يكون نبياً التي هي الوحي اهـ . كلام الامام ابن رشد ملخصاً .

وقال الامام تقي الدين ابن تيمية في الجواب الصحيح : ولما كان محمد ﷺ رسولاً إلى جميع الثقلين ، جنهم وإنسهم ، عربهم وعجمهم ، وهو خاتم الأنبياء لا نبي بعده كان من نعمة الله على عباده ، ومن تمام حجته على خلقه أن تكون آيات نبوته ، وبراهين رسالته معلومة لكل الخلق الذي بعث إليهم ، وقد يكون عند هؤلاء من الآيات والبراهين على نبوته ما ليس عند هؤلاء ، وكان يظهر لكل قوم من الآيات النفسية والأفقية ما يبن به أن القرآن حق ، كما قال تعالى ﴿ قُلْ أرأيْتُم إنْ كانَ مِن عِند الله ثُمَّ كَفَرْتُم به مِن أضَلّ ممّنْ هُوَ في شِقاقٍ بَعيد سنُريهِم آياتنا في الآفاق وفي أنْفُسِهِم حتّى يتَبَيّنَ لهم أنّه الحَقّ أوَلَمْ يَكْفِ بربّكَ أنّه على كُلّ شيْءٍ شَهيد ﴾[1] وشهادته وحده كافية بدون ما ينتظر من الآيات ، كما قال تعالى ﴿ قُلْ كَفَى بالله شَهيداً بَيْني وبَيْنَكُم ومَنْ عِندَهُ عِلمُ الكِتاب ﴾[2] وشهادته للقرآن ولمحمد تكون بأقواله التي أنزلها قبل ذلك على أنبيائه ، كما قال تعالى عن أهل الكتاب ﴿ ومَنْ أظْلَمُ ممّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِندَهُ مِنَ

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٢ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ٤٣ .

الله ﴾[1] وتكون بأقواله التي أنزلها على محمد ﷺ ، فإن القرآن نفسه آية بينة ومعجزة قاهرة. وتكون بأفعاله وهو ما يحدثه من الآيات والبراهين الدالة على صدق رسله فإنه صدقهم بها فيما أخبروا به عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون . والقرآن نفسه هو قول الله وفيه شهادة الله بما أخبر به الرسول . وإنزاله على محمد ﷺ ، وإتيان محمد به آية وبرهان ، وذلك من فعل الله إذ كان البشر لا يقدرون على مثله ، كما قال تعالى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يأتوا بِمِثْلِ هذا القرآن لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[2] ومحمد ﷺ أخبر بهذا في أول أمره إذ كانت هذه الآية في سورة (سبحان) ، وهي مكية صدرها بذكر الإسراء الذي كان بمكة باتفاق الناس . وقد أخبر خبراً وأكده بالقسم عن جميع الثقلين أنسهم وجنهم أنهم إذا اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، بل يعجزون عن ذلك . وهذا فيه آيات لنبوته . منها إقدامه على هذا الخبر العظيم عن جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة ، بأنهم لا يفعلون هذا بل يعجزون عنه . وهذا لا يقدم عليه من يطلب من الناس أن يصدقوه ، إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك إذ لو كان عنده شك في ذلك ، لجوز أن يظهر كذبه في هذا الخبر ، فيفسد عليه ما قصده ، وهذا لا يقدم عليه عاقل مع اتفاق الأمم — المؤمن بمحمد والكافر به — على كمال عقله ومعرفته وخبرته . إذ ساس العالم سياسة لم يسسهم أحد بمثلها ، ثم جعله هذا في القرآن المتلو المحفوظ إلى يوم القيامة الذي يقرأ به في الصلوات ، ويسمعه العام والخاص ، والولي والعدو دليل على كمال ثقته بصدق هذا الخبر . ولا يصور أن بشراً يجزم بهذا الخبر ، إلا أن يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق إذ علم العالم بعجز جميع الانس والجن إلى يوم القيامة ، هو من أعظم دلائل كونه معجزاً ، وكونه آية على نبوته ، فهذا من دلائل نبوته في أول مره عند من سمع هذا الكلام ، وعلم أنه من القرآن الذي أمر ببلاغه إلى جميع الخلق ، وهو وحده كاف في العلم بأن القرآن معجز . دع ما سوى ذلك من الدلائل

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٤٠ .

(٢) سورة الاسراء ، الآية : ٨٨ .

الكثيرة على أنه معجز مثل عجز جميع الأمم عن معارضته مع كمال الرغبة والحرص على معارضته . وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة ، فلما كان دواعي العرب وغيرهم عن المعارضة تامة ، وانتفت المعارضة علم عجز جميع الأمم عن معارضته ، وهذا برهان بيّن يعلم به صدق هذا الخبر ، وصدق هذا الخبر آية لنبوته غير العلم بأن القرآن معجز ، فذلك آية مستقلة لنبوته وهي آية ظاهرة باقية إلى آخر الدهر معلومة لكل أحد ، وهي من أعظم الآيات ، فإن كونه معجزاً يعلم بأدلة متعددة . والاعجاز فيه من وجوه متعددة ، فتنوعت دلائل إعجازه ، وتنوعت وجوه إعجازه ، وكل وجه من الوجوه ، فهو دليل على إعجازه ، وهذه جمل لبسطها تفصيل طويل : ولهذا قال تعالى : ﴿ وقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنَ رَبِّهِ قُلْ إِنّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وإنّما أنا نذيرٌ مبينٌ *أوَلَم يَكْفِهِم أنَّا أنزَلْنا عليْكَ الكِتابَ يُتْلَى علَيْهِم إنَّ في ذَلِكَ لَرَحْمَةً وذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ ﴾[1] فهو كاف في الدعوة والبيان . وهو كاف في الحجج والبرهان اه .

وقال بعض الأئمة : للاسلام في الحقيقة دعوتان : دعوة إلى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة إلى التصديق برسالة محمد ﷺ .

فأما الدعوة الأولى ، فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشري ، وتوجيهه إلى النظر في الكون ، واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الأسباب والمسببات ، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعاً واجب الوجود ، عالماً حكيماً قادراً ، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الأكوان .

وأما الدعوة الثانية ، فهي التي يحتج بها الاسلام بخارق العادة ، وما أدراك ما هو الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الاسلام . هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره . ولم ينقطع أثره . هذا هو الدليل وحده ، وما عداه مما ورد في الأخبار ، فهو فضل من التأكيد . ذلك الخارق المتواتر المعول

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٥٠ ، ٥١ .

عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة تدل على أن موحيه والله وحده، هو ليس من اختراع البشر ، هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ، ولم يمارس العلوم . وقد نزل على وتيرة واحدة هادياً للضال مقوماً للمعوج . كافلاً بنظام عام لحياة من يهتدي به من الأمم . منقذاً لهم من خسران كانوا فيه . وهلاك كانوا أشرفوا عليه ، وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله ، فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم . وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل ، وظهور شمس الاسلام تمدّ عالمها بأضوائها وتنشر أنوارها في أجوائها أه .

قال الامام الماوردي : وقد أظهر الله تعالى لرسوله ﷺ من أعلام نبوته بعد ثبوتها بمعجز القرآن . واستغنائه عما سواه من البرهان . ما جعله زيادة استبصار يحج بها من قلت فطنته . ويذعن لها من ضعفت بصيرته . ليكون إعجاز القرآن مدركاً بالخواطر الثاقبة تفكراً واستدلالاً . وإعجاز العيان معلوماً ببداية الحواس احتياطاً واستظهاراً . فيكون البليد مقهوراً بوهمه وعيانه . واللبيب محجوجاً بفهمه وبيانه . لأن لكل فريق من الناس طريقاً هي عليهم أقرب . ولهم أجذب . فكان ما جمع انقياد الفرق أوضح سبيلاً . وأعم دليلاً[١] .

(١) وما ألطف ما قاله المعري في رسالة الغفران : اجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن الحجة ومقتد ، إن هذا الكتاب الذي جاء به محمد (ص) كتاب يبهر بالإعجاز ، ولقي عدوه بالارجاز ، ما حذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو القصيد الموزون ، ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ذوي الارب ، وجاء كالشمس اللائحة ، نوراً للمسرة والبائحة ، لو فهمه الهضب الراكد لتصدع ، أو الوعول المعصمة لراق الغادرة والصدع ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، وأن الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق ، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق ، فتبارك الله أحسن الخالقين اه .

برهان ضروري لنبوة خاتم النبيين ﷺ :

قال الامام تقي الدين ابن تيمية : كل من دعا الخلق إلى متابعته وطاعته على سبيل الحتم ، والايجاب بأن يصدقوه فيما أخبر ، ويطيعوه فيما أوجبه ، وأمر به باطناً وظاهراً ، ولا يسوغ مخالفته بوجه من الوجوه ، لا في الباطن ولا في الظاهر ، فأما أن يكون عالماً بكل ما يخبر به من الغيوب ، جازماً بصدق نفسه جزماً لا يحتمل النقيض ، عالماً بأن ما يأمر به هو عدل لا يجوز لمن أمره أن يعصيه بوجه من الوجوه . وإما أن لا يكون جازماً بذلك . فإن كان جازماً بذلك كان هذا هو « النبي المعصوم » الذي لا يخبر إلا بحق وصدق ولا يأمر بعدل بخلاف القسم الذي يتحرى العدل والصدق باجتهاده ورأيه ، فإن هذا قد يأمر بأشياء يجوز أن تكون المصلحة والعدل في خلافها ويخبر بأشياء باجتهاده يجوز أن يكون الأمر فيها بخلاف ذلك ، ولا بد أن يغلط في بعض ما يخبر به من العلميات وما يأمر به من العمليات ، فإنه لا معصوم إلا الأنبياء ، ولهذا لم يجب الإيمان بكل ما يقوله بشر إلا أن يكون نبياً .

وإذا كان كذلك فمعلوم بالتواتر أن محمداً ذكر أنه رسول كابراهيم وموسى وعيسى ، بل أخبر أنه سيد ولد آدم ، وأن آدم فمن دونه تحت لوائه يوم القيامة ، وأنه لما أسري به ، وعرج إلى ربه علا على الأنبياء كلهم على ابراهيم وموسى وهارون وعيسى ويحيى وغيرهم . وأخبر أنه لا نبي بعده . وأن أمته هم الآخرون في الخلق ، السابقون يوم القيامة . وأن الكتاب الذي أنزل إليه أحسن الحديث ، وأنه مهيمن على ما بين يديه من الكتب مع تصديقه لذلك ، وقد علم بالاضطرار من سيرته أنه كان يتحرى الصدق والعدل ، وأنه ما جرت عليه كذبة قط ، وعلم أنه كان جازماً بما يخبر به مع كثرة ما يخبر به من الغيوب الماضية والمستقبلة ، وأنه وحده قام يدعو الناس إلى ما جاء به ومن عادة طالب الملك والرياسة ، ولو كان عادلاً أن يستعين بمن يعينه كأقاربه وأصدقائه ونحوهم ، وأن يبذل للنفوس من العاجل ما يرغبها به كالمال والرياسة ، ويرهب من

خالفه . ومحمد ﷺ دعا الناس وحده وهو بمكة ، فآمن به المهاجرون ، ثم آمن به الأنصار بالمدينة ، ثم آمن به أهل البحرين ، ولم يعط أحداً منهم درهماً ، ولا كان معه ما يخيفهم به لا سيف ولا غيره ، بل أقام بمكة بضع عشرة سنة وهو والمؤمنون به مستضعفون لم يكن له مال يبذله لهم ، ولا سيف يخيفهم به .

ثم قال تقي الدين : والأخبار المأثورة في أصناف آياته وبراهينه كثيرة جداً ، وهي مشتملة على جنسي العلم والقدرة ، وعلى أنواع من الأخبار بالغيوب المستقبلة مفصلة كأنما رآها بعينه لم يأت منها خبر ، إلا كما أخبر به ، وهذا أمر لم يكن قط إلا لنبي . أما الكاهن والمنجم ونحو هؤلاء فيكذبون كثيراً ويخبرون بجمل غير مفصلة . وأما أهل الولاية والصلاح ، فأعظمهم كشفاً يخبر من ذلك بأمور قليلة لا تبلغ عشر معشار ما أخبر به النبي ﷺ ، ولا يخبرون بها مفصلة كخبره .

وفي القرآن من الأخبار بالمستقبلات شيء كثير كقوله تعالى ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ الرومُ في أدْنى الأرضِ وهُم مِن بَعدِ غَلَبِهِم سيُغْلَبون * في بِضْعِ سِنينَ لله الأمْرِ مِن قبلُ ومِن بَعدُ ﴾[١] فغلبت الروم فارس في بضع سنين وكقوله ﴿ وعَدَ اللهُ الّذين آمَنوا مِنكُم وعمِلوا الصّالحات لَيَستخْلِفنّهُم في الأرضِ كما استَخْلَفَ الّذينَ من قبلِهِم وليُمكّنَنّ لهُم دينَهُم الذي ارتَضى لهُم وليُبدّلَنّهُم مِن بعدِ خوفهِم أمناً يعبُدونني لا يُشركونَ بي شَيئاً ﴾[٢] وكما كان أخبر وقال تعالى ﴿ هُوَ الّذي أرسَلَ رسولَه بالهُدى ودينِ الحقّ ليُظهرَه على الدّين كُلّه وكَفَى باللهِ شهيداً ﴾[٣] وكان كما أخبر ووعد وقال تعالى ﴿ قُلْ لَئنِ اجتمعَتِ الإنسُ والجِنّ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِه ﴾[٤] وكان كما أخبر وقال تعالى ﴿ وإن كنتُم في ريب مما نزّلنا على عبدِنا فأتوا بسورة مِن مثلِه ﴾ إلى قوله ﴿ فإن لَم تفعَلوا ولَن تفعَلوا فاتّقوا

---

(١) سورة الروم ، الآية : ١ — ٤ .
(٢) سورة النور ، الآية : ٥٥ .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٣٣ .
(٤) سورة الاسراء ، الآية : ٨٨ .

النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ ﴾[1] فأخبر أنهم لن يفعلوا وكان كما أخبر . وأخبر أنه قال للمسيح ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعني اليهود ﴿ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ﴾[2] وكان كما أخبر وأنزل في مكة ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾[3] فكان كما أخبر هزم الجمع وولوا الدبر . وقال ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً ﴾[4] فكان كما أخبر . وقال ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا ﴾[5] الآية فكان كما أخبر . وقال عن اليهود ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ﴾[6] فكان كما أخبر وقال ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ﴾[7] وكان كذلك ، فلم يقاتلوهم بعد نزول الآية إلا انتصر عليهم المسلمون ، وما زال الإسلام في عز وظهور ، حتى ظهر على أهل المشرق والمغرب . وقال تعالى خطاباً لليهود ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾[8] فاخبر عن اليهود أنهم لن يتمنوا الموت أبداً ، وكان كما أخبر وقال عن الوليد ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾[9] وعن أبي لهب ﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾[10] فكان كما أخبر ، مات الوليد كافراً ومات أبو لهب كافراً . وقال في سورة الفتح ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلمُؤْمِنِينَ ﴾[11] وقال

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٥٥ .
(٣) سورة القمر ، الآية : ٤٤ ، ٤٥ .
(٤) سورة الفتح ، الآية : ٢٢ .
(٥) سورة المائدة ، الآية : ١٤ .
(٦) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .
(٧) سورة آل عمران ، الآية : ١١١ .
(٨) سورة الجمعة ، الآية : ٦ ، ٧ .
(٩) سورة المدثر ، الآية : ٢٦ .
(١٠) سورة المسد ، الآية : ٣ .
(١١) سورة الفتح ، الآية : ٢٠ .

﴿ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرامَ إن شاءَ اللهُ آمنينَ مُحَلِّقِينَ رؤوسَكُم ومُقَصِّرينَ لا تخافونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَموا فَجَعَلَ مِن دون ذلكَ فَتْحاً قريباً ﴾[1] وقال ﴿ قُل للمخَلَّفينَ مِنْ الأعْراب سَتُدْعَوْنَ إلى قوْمٍ أولي بأسٍ شديدٍ تُقاتِلونهُم أو يُسْلِمونَ ﴾[2] وهذا كله وقع كما أخبر ، فحصلت لهم الغنائم الكثيرة ، ودخلوا المسجد الحرام آمنين ودعيت الأعراب إلى قتال الروم ، والفرس يقاتلونهم أو يسلمون وقال تعالى ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ * ورأيْتَ النّاسَ يَدْخُلونَ في دينِ اللهِ أفْواجاً * فسَبِّحْ بحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ إنّه كانَ تَوّاباً ﴾[3] فدخل الناس في دين الله أفواجاً بعد الفتح ، فما مات النبي ﷺ وفي بلاد العرب موضع لم يدخله الاسلام اه . وانظر بقيـــة كلامه في أخباره ﷺ عن الغيوب المروية في الأحاديث الصحيحة في الجواب الصحيح .

برهان آخر ضروري أيضاً لنبوته صلوات الله عليه :

قال الامام ابن حزم في الفصل : وبرهان ضروري لمن تدبر ، حسي لا محيد عنه ، وهو أن النبي ﷺ أتى إلى قوم لقاح[4] لا يطيعون لأحد ، ولا ينقادون لرئيس نشأ على هذا آباؤهم وأجدادهم وأسلافهم منذ ألوف من الأعوام . قد سرى الفخر والعز والنخوة والكبر والظلم والأنفة في طباعهم ، وهم أعداد عظيمة ملئوا جزيرة العرب ، وهي نحو شهرين في شهرين قد صارت طباعهم طباع السباع ، وهم ألوف الألوف قبائل وعشائر يتعصب بعضهم لبعض أبداً ، فدعاهم بلا مال ولا أتباع – بل خذله قومه – إلى أن ينحطوا من ذلك العزِّ إلى غرم الزكاة . ومن الحرية والظلم إلى جري الأحكام عليهم . ومن طول الأيدي بقتل من أحبوا ، وأخذ مال من أحبوا إلى القصاص من النفس ، ومن قطع الأعضاء ،

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٧ .
(٢) سورة الفتح ، الآية : ١٦ .
(٣) سورة النصر ، الآيات : ١ – ٣ .
(٤) اللقاح كسحاب الحي الذين لا يدينون للجبابرة كما ذكره.

ومن اللطمة من أجل من فيهم لأقل علج[1] غريب دخل فيهم . وإلى إسقاط الأنفة والفخر إلى ضرب الظهور بالسياط أو بالنعال إن شربوا خمراً أو قذفوا إنساناً . وإلى الضرب بالسوط والرجم بالحجارة إلى أن يموتوا إن زنوا ، فإنقاذ أكثرهم لكل ذلك طوعاً بلا طمع ولا غلبة ولا خوف ، ما منهم أحد أخذ بغلبة إلا مكة وخيبر فقط ، وما غزا قط غزوة يقاتل فيها إلا تسع غزوات بعضها عليه وبعضها له . فصح ضرورة أنهم إنما آمنوا به طوعاً لا كرهاً . وتبدلت طبائعهم بقدرة الله تعالى من الظلم إلى العدل . ومن الجهل إلى العلم . ومن الفسق والقسوة إلى العدل العظيم الذي لم يبلغه أكابر الفلاسفة . وأسقطوا كلهم أولهم عن آخرهم طلب الثأر ، وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وأبيه ، وأعدى الناس له صحبة الأخوة المتحابين دون خوف يجمعهم ، ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم ، ولا مال يتعجلونه ، فقد علم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وكيف كانت طاعة العرب لهما بلا رزق ولا عطاء ولا غلبة . فهل هذا إلا بغلبة من الله تعالى على نفوسهم كما قال تعالى ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[2] ثم بقي عليه الصلاة والسلام كذلك بين أظهرهم بلا حارس ولا ديوان جند ولا بيت مال محروساً معصوماً . فهل يصح من أعلام الأنبياء ما نقل عنه عليه الصلاة والسلام . كلا وهذا لا ينكره أحد من الناس .

وقال ابن حزم رحمه الله أيضاً قبل ذلك : كانت العرب بلا خلاف قوماً لقاحاً لا يملكهم أحد كمضر وربيعة وأياد[3] وقضاعة أو ملوكاً في بلادهم يتوارثون الملك كابراً عن كابر ، كملوك اليمن وعمان[4] وشهر ابن بارام ملك صفا[5] والمنذر بن ساوي ملك البحرين . والنجاشي ملك

(١) العلج هو الكافر من العجم .
(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٦٣ .
(٣) أياد ككتاب حي من معد .
(٤) كغراب في القاموس : بلد في اليمن ، وقال ابن الأثير : على البحر تحت البصرة ، وقال غيره عند البحرين .
(٥) الصفا حصن بالبحرين وهجر كما في المعجم.

الحبشة ، وجيفر وعياذ ابني الجلندي ملكي عمان[1] فانقادوا كلهم لظهور الحق وبهوره ، وآمنوا به ﷺ طوعاً ، وهم آلاف آلاف ، وصاروا أخوة كبني أب وأم ، وانحل كل من أمكنه الانحلال عن ملكه منهم إلى رسله طوعاً بلا خوف غزو ولا إعطاء مال ، ولا طمع في عز ، بل كلهم أقوى جيشاً من جيشه ، وأكثر مالاً وسلاحاً منه ، وأوسع بلداً من بلده كذي الكَلاع[2] . وكان ملكاً متوجاً ابن ملوك متوجين تسجد له جميع رعيته . يركب أمامه ألف عبد من عبيده سوى بني عمه من حمير وذي ظليم[3] وذي زُود[4] وذي مَرّان[5] وذي عمرو وغيرهم ، كلهم ملوك متوجون في بلادهم . هذا كله أمر لا يجهله أحد من حملة الأخبار ، بل هو منقول كنقل كون بلادهم في مواضعها[6] وهكذا كان إسلام جميع العرب أولهم كالأوس والخزرج ، ثم سائرهم قبيلة قبيلة لما ثبت عندهم من آياته وبهرهم من معجزاته،وما اتبعه الأوس والخزرج إلا وهو فريد نابذه قومه حسداً له إذ كان فقيراً يتيماً أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والجاهلية يرعى غنم قومه يتقوت بها فعلمه الله الحكمة دون معلم وعصمه من كل من أراده بلا حرس ولا حاجب ولا بواب ، ولا قصر يمتنع فيه على كثرة من أراد قتله من شجعان العرب وفتاكهم ، كعامر بن الطفيل ، وأربد بن جزء وغَوْرث بن الحارث وغيرهم مع

(١) جيفر كجعفر من أسماء الأسد الشديد والجلندي بضم الجيم وفتح اللام وسكون النون وفتح الدال آخره ألف مقصورة قال في القاموس أسلم هو وأخوه على يد عمرو بن العاص لما وجهه رسول الله (ص) إليهما وهما على عمان .

(٢) بفتح الكاف .

(٣) كزبير موضع باليمن .

(٤) بضم الزاي .

(٥) بفتح الميم وتشديد الراء .

(٦) إشارة إلى أن انقياد الملوك المذكورين له صلوات الله عليه وإيمانهم به منقول بالنقل الذي لا يشوبه شائبة تردد ، وهو خبر التواتر ، وهو ما رواه جمع عن جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب ، وقد اتفق الأصوليون على إفادته القطع ومنه المرويات المذكورة . وقد روى إسلام النجاشي من طرق كثيرة وروايات متنوعة ، وكلها متجاوبة الأطراف في تحقيق إسلامه ، ولو لم يكن منها إلا ما صح عنه (ص) من صلاته عليه لما جاءه نعيه لكفى ، وذلك متفق على ثبوته اتفاقاً يزيل كل ريبة .

إقرار أعدائه بنبوته كمسيلمة[١] وسجاح[٢] وطليحة[٣] والأسود[٤] وهو مكذب لهم . فهل بعد هذا برهان أو بعد هذه الكفاية من الله تعالى كفاية وهو لا يبغي دنيا ولا يمنى بها من اتبعه بل أنذر الأنصار بالاثرة عليهم بعده ، وتابعوه على الصبر على ذلك[٥] .

قام له أصحابه على قدم ، فمنعهم وأنكر ذلك عليهم وأعلمهم أن القيام لله تعالى لا لخلقه . ورضوا بالسجود له فاستعظم ذلك وأنكره إلا لله وحده . ولا شك في أن هذه ليست صفة طالب دنيا قط أصلاً ، ولا صفة راغب في غلبة ولا بعد صوت[٦] بل هذه حقيقة النبوة الخالصة لمن كان له أدنى فهم .

---

(١) مسيلمة رجل من بني حنيفة كان قدم مع جماعة من قومه على النبي (ص) ، وصار يقول : إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته ! فقال له النبي (ص) ، وكان في يده قطعة جريد : لو سألتني هذه القطعة ماأعطيتكها .ولن تعدوأمر الله فيك وإن أدبرت ليعقرنك الله . ثم رجع بمن معه إلى منازلهم وهي اليمامة بين نجد والبحرين ، وادعى أنه اشترك مع النبي في النبوة ، وكتب كتاباً للنبي (ص) : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله سلام عليك ، فاني قد أشركت في الأمر معك ، وإنا لنا نصف الأرض الخ ، فكتب له صلوات الله عليه : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين : ثم قتل في عهد الصديق كما تراه مفصلا في التاريخ .

(٢) امرأة من بني تميم تنبأت ، وخطبها مسيلمة الكذاب ، وتزوجته ولهما حديث مشهور .

(٣) هو طليحة بن خويلد الأسدي كان كاهناً ادعى النبوة في حياة النبي (ص) ، فتبعه أفاريق ونزل سميراء من بلاد بني أسد شرقي نجد ، ثم أسلم في عهد الصديق رضي الله عنه ، وله ذكر جميل في فتح العراق وقصته معروفة في التاريخ .

(٤) الأسود رجل من عنس ادعى النبوة في آخر حياة النبي (ص) لما رأى الاسلام انتشر في اليمن وأثار على دعوته رجالا ، ثم قتل وكانت مدته إلى أن هلك قريباً من أربعة أشهر وجاءت البشارة بقتله إلى المدينة وقد توفي النبي (ص) .

(٥) قال ابن أبي الحديد في شرح النهج أن الدنيا خلصت صفواً عفواً بعد لبني أمية الذين كانوا من قبل أعدائه ، وأخرجوه عن أوطانه، وقاتلوه كما قال أبو سفيان : لما مر بقبر حمزة رضي الله عنه : يا أبا عمارة إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به اه ويمر بقارئ الصحيحين من الأخبار بالغيوب عن مثل هذا كثير من الأخبار فصدق رسول الله (ص) .

(٦) الصوت كالصيت هو الذكر الحسن كما في القاموس .

ثم قال الامام ابن حزم : وأيضاً فإن سيرة محمد ﷺ لمن تدبرها تقتضي تصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله ﷺ حقاً ، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ ، لكفى وذلك أنه عليه الصلاة والسلام نشأ كما قلنا في بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ، ولا خرج عن تلك البلاد قط إلا خرجتين إحداهما إلى الشام وهو صبي مع عمه إلى أول أرض الشام[1] . ورجع . والأخرى أيضاً إلى أول الشام ، ولم يطل بها البقاء ولا فارق قومه قط ، ثم أوطأه الله تعالى رقاب العرب كلهم فلم تتغير نفسه ولا حالت سيرته إلى أن مات ودرعه مرهونة في شعير لقوت أهله أصواع ليست بالكثيرة . ولم يبت قط في ملكه دينار ولا درهم . وكان يأكل على الأرض ما وجد ويخصف نعله بيده ، ويرفع ثوبه ، ويؤثر على نفسه ، وقتل رجل من أفاضل أصحابه ، مثل فقده يهد عسكراً قتل بين أظهر أعدائه من اليهود ، فلم يتسبب إلى أذى أعدائه بذلك إذ لم يوجب الله تعالى له ذلك ، ولا توصل بذلك إلى دمائهم ، ولا إلى دم واحد منهم ، ولا إلى أموالهم ، بل فداه من عند نفسه بمائة ناقة ، وهو في تلك الحال محتاج إلى بعير واحد يتقوى به ، وهذا أمر لا تسمح به نفس ملك من ملوك الأرض وأهل الدنيا من أصحاب بيوت الأموال بوجه من الوجوه ، ولا يقتضي هذا أيضاً ظاهر السيرة والسياسة ، فصح يقيناً بلا شك أنه إنما كان متبعاً ما أمر به ربه عز وجل ، كان ذلك مضراً به في دنيا غاية الإضرار ، أو كان غير مضر به[2] وهذا عجيب لمن تدبره ، ثم حضرته

---

(١) يعني بصرى من بلاد حوران .

(٢) يشير الامام ابن حزم إلى قصة قتيل بني حارثة من الأنصار في خيبر ، وذلك أنه خرج عبد الله بن سهل الأنصاري وابن عمه محيصة بن مسعود ابن زيد في نفر إلى خيبر يمتارون تمراً فتفرقوا فيها وهي يومئذ صلح ثم أن محيصة وجد عبد الله قتيلا يتشحط في دمه في ناحية من نواحي خيبر فأتى محيصة إلى اليهود فقال أنتم والله قتلتموه . قالوا ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ثم انطلق أخو القتيل وأبناء عمه إلى النبي (ص) فذكروا شأنه حيث قتل فقال لهم النبي (ص) تأتون بالبينة على من قتله قالوا ما لنا بينة قال فتحلفون خمسين يميناً على رجل منهم فيدفع برمته قالوا كيف نحلف على ما لا نعلم قال فيحلفون لكم خمسين يميناً قالوا لا نرضى بأيمان اليهود فكره رسول الله (ص) أن يبطل دمه فوداه بمائة من الابل من عنده . هذا ما رواه البخاري في صحيحه وكل من صنف في الصحاح . وهذا القضاء النبوي يمثل عدله (ص) وإنصافه وكرم أخلاقه وسخاءه وجوده وعدم محاباته في الحق ـــ

ﷺ المنية ، وأيقن بالموت وله عم أخو أبيه هو أحب الناس إليه ، وابن عم هو من أخص الناس به وهو أيضاً زوج ابنته ، وكلاهما عنده من الفضل والدين والسياسة في الدنيا والبأس والحلم ، وخلال الخير ما كان كل واحد منهما حقيقاً بسياسة العالم كله ، فلم يحابهما وهما من أشد الناس محبة فيه ، وهو من أحب الناس فيهما إذ كان غيرهما متقدماً لهما في الفضل قاصداً اتباع ما أمر به ﷺ . ولم يورث ورثته ابنته ونساءه وعمه فلساً ، فما فوقه ، وهم كلهم أحب الناس إليه وأطوعهم له ، وهذه أمور لمن تأملها كافية مغنية في أنه إنما تصرف بأمر الله تعالى له لا بسياسة

ـ ولياً له أو صاحباً. ويمثل قيامه بحسن العهد ووفاء الذمة لليهود حالتئذ لأن هذه وقعت في خيبر بعد فتحها وإقرار النبي (ص) أهلها فيها على أن يعملوا في المزارع بالشطر مما يخرج منها ، وقول ابن حزم هنا في إعجابه بهذه المكارم النبوية أن أمر القضاء فيها لا يقتضي ظاهر السيرة والسياسة : أي لأن ظاهر سيرة القتيل تقتضي إلصاق اللوث والشبهة في جانب المدعى عليهم البته لأنه قتل في دارهم وبين أظهرهم وهم أعداؤه فكان ظاهر الحال يقتضي أن لا يبرؤا أصلا وأن يحملوا على الاقرار والاعتراف لقوة جانب المدعي باللوث الذي يقوي دعواه وكذلك كان يقتضي ظاهر السياسة أعمال الصارم البتار في ناحية الشبهة جزاء وفاقاً وتأديباً وزجراً وحفظاً للأمن وحسماً لإثارة الفتن أو أخذ الدية من جهة اللوث إرضاء لذوي الحق وصوناً من هدر الدم المعصوم فلم يكن هذا ولا ذاك بل كان قضاء آخر وهو قضاء الحق العدل وحكم الحكيم الفصل . وذلك لأن الأصل البينة وهي شهادة من شاهد القتل وكان عدلا يوثق به فان فقدت فخمسون يميناً يحلفها المدعون على رجل يسمونه وإنما غلظت القضية بوفرة إيمانها المذكورة ليحتاط المقتحم لليميـــن وليتبصر أن الأمر ليس بالسهل لحرمة الدماء وكان الأصل فيها العصمة، فان أبوا الحلف ترد الإيمان على المدعى عليهم فيستحلفون خمسين يميناً ما قتلناه ولا علمنا من قتله فان حلفوا برئوا إذ ليس غير هذا منهم لجهالة القاتل وسعة مكان اللوث وإمكان أن ذلك من عمل يد أجنبية مجتازة . فاذا أبى أولياء القتيل ذلك فما بقي إلا الحكمة والدرء بالتي هي أحسن وطفء غليان الصدور وذلك بما رآه النبي (ص) من الصلح والإحسان والطول والامتنان فوداه من ماله رحمة بذوي ذمته وعهده وإحساناً إلى أصحابه وأنصاره . فيأيها الواقف على هذه المكارم والمراحم النبوية بأهل الذمة والعهد من يهود خيبر إذا تأملت هذا وعرفته تعلم أن الحكم الذي قضى به سعد بن معاذ على مواليه من يهود بني قريظة من إبادة خضرائهم وأقره النبي (ص) إنما هو لجنايتهم على الدين وأهله جناية لا تغتفر بوجه ما كما ستراه موضحاً في تعليقة آتية إن شاء الله تعالى وكما أن لكل مقام مقالا فلكل قضية حكم . ومن نظر إلى القضايا النبوية فلينظر بعين الإنصاف ليرى كيف يظهر نور العدل وقصد الحق وليمثل نفسه مشاهداً لذاك الجهاد الأكبر جهاد كسح الفساد من طريق الحق فصلوات الله على الرحمة المهداة للعالمين ، في كل وقت وحين .

ولا بهوى فوضح بما ذكرنا « ولله الحمد كثيراً » أن نبوة محمد ﷺ حق وأن شريعته التي أتى بها هي التي وضحت براهينها واضطرت دلائلها إلى تصديقها والقطع على أنها الحق الذي لا حق سواه . وأنها دين الله تعالى الذي لا دين له في العالم غيره اهـ كلامه بحروفه رحمه الله تعالى .

استدلال هرقل عظيم الروم على نبوته ﷺ :

روى الامام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل اليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام(١) في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادّ فيها أبا سفيان(٢) فأتوه بأيليا(٣) ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ودعا ترجمانه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : قلت أنا أقربهم نسباً ، قال : أدنوه مني وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه قل لهم أني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه قال(٤) فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي(٥) كذباً لكذبت عليه ، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قبله قط ؟ قلت : لا . قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قلت : لا . قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون . قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا . قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم . قال : كيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه . قال : ماذا يأمركم ؟

(١) في رواية بغزة وكانت وجه متجرهم .
(٢) يعني مدة الصلح الذي عقد بالحديبية سنة ست من الهجرة قبل إسلام أبي سفيان لأن إسلامه عام فتح مكة سنة ثمان من الهجرة .
(٣) هي مدينة بيت المقدس .
(٤) أي أبو سفيان .
(٥) قال الدماميني على فيه بمعنى عن ويحتمل التضمين .

قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والصدقة والعفاف والصلة[1] . فقال : للترجمان قل له :

سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا . قلت : فلو كان من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا . فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا . وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد .

وسألتك : هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر .

---

(١) وفي هذا المعنى يقول حكيم الشعراء أبو العلاء المعري في مدح النبي (ص) :

دعاكم إلى خير الأمور محمد ... وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحا ... وشهب الدجا من طالعات وآفل
وألزمكم ما ليس يعجز حمله ... أخا الضعف من فرض له ونوافل
وحث على تطهير جسم وملبس ... وعاقب في قذف النساء الغوافل
وحرم خمراً خلت أرباب شربها ... من الطيش أرباب النعام الجوافل
يجرون ثوب الملك جراً . آنس ... لدى البدو أذيال الغواني الروافل
فصلى عليه الله ماذر شارق ... ومافت مسكاً ذكره في المحافل

وسألتك : هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمت أن قد فعل وأن حربكم وحربه تكون دولاً يدال عليكم المرة وتدالون عليه الأخرى وكذلك الرسل تبتلى وتكون لها العاقبة(١) .

وسألتك : بمَ يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً ، فسيملك موضع قدمي هاتين(٣) ،

---

(١) قال الامام ابن القيم في مفتاح دار السعادة في هذا المعنى فاذا تأملت سيرة النبي (ص) مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن أقامة في وطنه وظعن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والكذب والافتراء عليه والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أوذي ولم يحتمل في الله ما احتمله ولم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً وأسمعهم عنده شفاعة وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلا وساقه بها إلى أعلى المقامات وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو يأكل منها رغداً ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو في أهله مسرور له شأن ولهم شأن وهو في واد وهم في واد همه ما يقيم جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه وأن تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لا غيره ورسوله المطاع لا سواه فلله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته .وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء .

كذا المعالي إذا ما رمت تدركها فاعبر إليها على جسر من التعب

(٢) وفي هذا المعنى كتب حكيم من المتأخرين مقالة جاء منها : أرسل طرفك إلى نشأة الأمة وتبين أسباب نهوضها الأول فترى أن ما جمع كلمتها وانهض همم آحادها ولحم بين أفرادها وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رءوس الأمم وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها إنما هو (دين) قويم الأصول محكم القواعد شامل لأنواع الحكم باعث على الألفة داع إلى المحبة مزك للنفوس مطهر للقلوب من إدران الخسائس منور للعقول باشراق الحق من مطالع قضاياه كافل لكل ما يحتاج إليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية أنظر إلى تاريخ

وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظنه منكم فلو أني أعلم أني خلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، قال أبو سفيان : ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرئ : الحديث .

وفي رواية في الصحيح في كتاب الجهاد بعد أن سأله عن هذه الصفات العشر قال هرقل : وهذه صفة النبي : أي المشار إليه والمرموز له في كتب العهدين .

قال الامام ابن تيمية رحمه الله : وما استدل به هرقل من العلم بصفاته هو الاستدلال على عينه فإن الناس في النبوة على ثلاث درجات : منهم من يحتاج إلى أن يعلم جنس النبوة كالذين كذبوا الرسل ، وقالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء . ومنهم من يقر بالرسل في الجملة لكن لا يؤمن من بما يجب حقيقة إرسالهم ، كالملاحدة أهل البدع الذين يعظمون الأنبياء مع اعتقادهم في الباطن ما يناقض بعض ما جاءوا به لشبهات انعقدت في قلوبهم ظنوها مناقضة لما أخبرت به الرسل ، فيحتاجون أن يوفقوا بينها .

إلى أن قال : وهرقل لم يكن محتاجاً إلى الإيمان بجنس النبوات ، فإنه كان من أهل الكتاب وأهل الكتاب يقرون بجنس النبوة ، فإنهم يقرون بنبوة نوح والخليل وأنبياء بني إسرائيل ، والذين يحتاجون إلى معرفة النبي المعين نوعان : نوع عرفوا أنه يبعث نبي وقد يعرفون بعض نوعته فيحتاجون أن يعرفوا عينه . وهرقل وأمثاله من أهل الكتاب كانوا من هذا النوع ، فكانوا يعلمون أن نبياً سيبعث ، وإنما كان حاجتهم إلى أن

ـ الأمة قبل بعثة الدين وما كانت عليه من الهمجية والشتات، وإتيان الدنايا والمنكرات ، حتى إذا جاءها الدين وحدها وقواها وهذبها ونور عقولها وقوم أخلاقها وسدد أحكامها فسادت على العالم وساست من تولته بالعدل والإنصاف وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها ونقلوا إلى بلادها طب بقراط وجالينوس وهندسة أقليدس وهيئة بطليموس وحكمة أفلاطون وأرسطو وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها اهـ .

يعرفوا هل هو هذا النبي المذكور أم غيره ، فيكون ما يحتاجون إليه من دلائل صدقه أيسر مما يحتاج إليه من لا يؤمن بالرسل أو لا يعرف أن نبياً سيبعث (إلى آخر ما ذكره في آخر الجواب الصحيح فانظره)[1] .

---

(١) ومما يجدر بنا ذكره هنا تأييداً لهذا المقام من شهادة غير المسلمين ما تناقلته صحف بيروت أن جريدة (الوطن) سألت فريقاً من الأفاضل عمن هو أعظم رجل في العالم ولماذا . فورد إليها جواب داود أفندي مجاعص – من كتاب المسيحيين ونوابغهم – بما مثاله : أعظم رجال العالم على الاطلاق رجل وضع في عشر سنين ديناً وفلسفة وشريعة إجتماعية وقوانين مدنية وغير شريعة الحرب وأنشأ أمة ودولة طاولت الدهر وكان أمياً ذلك هو (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشي العربي نبي المسلمين) وقد تدارك النبي لمشروعه العظيم كل حاجاته فوفر لأمته ولتابعيه وللملك الذي أنشأه أسباب الانتشار والخلود بحيث إذا انقطع المسلم إلى القرآن والحديث وجد فيهما ما يهمه من أمر دينه ودنياه وجعل للمسلمين مؤتمراً ينعقد كل عام في مكة ، ومن تنبه إلى فرض الحج على من يملك الراحلة والنفقة وإسقاطه عمن لا يملكها أدرك أن الغاية من الحج اجتماع الموسرين والوجوه من الأمة للبحث في شؤون جامعتهم وأمور سياستها واجتماعها وتعاونها .

وتدارك أمر الفقير بالزكاة المفروضة على كل مسلم بحيث إذا أداها المسلمون على حقها لم يبق في الأمة فقير . وجعل نواة أبدية للاسلام بكون القرآن كتاباً عربيـــاً يتحتم على كل مسلم أن يتفهمه بلغة العرب وإذا لم يكن في هذا غير أن فهم العربية حتم على كل عالم وإمام لكفى به جامعة لسان للمسلمين .

ومهد طريق النبوغ لأفراد الأمة بكون المسلم لا يفضل المسلم إلا بالتقوى فكان الاسلام جمهورية حقيقية يختار المسلمون رئيسها الذي هو الخليفة وقد ساروا على هذه السنة حيناً من الدهر ولن تزال المبايعة بالخلافة رمزاً من رموزها .

وسهل اعتناق الاسلام لغير العرب بقوله : لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي .

ويسر لغير المسلمين العيش برخاء في بلاد الاسلام بقوله : الخلق كلهم عباد الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله .

ونظر في أمر (العائلة) فرتب أمور الزواج والتناسل والتوارث ورفع من شأن المرأة .

وعاد إلى الأمور المدنية فوضع قوانين وقضاء للنظر في شؤون الأفراد .
ولم يهمل مالية الدولة بل وضع سنناً لبيت المال .

وكان للعلم من همه نصيب وافر فجعل الحكمة ضالة المؤمن .

وأوصاهم بأن يطلبوا العلم ولو بالصين فكان لهذه الوصية شأن عظيم في اقتباس المسلمين العلم من كل أبوابه وازدهاره في أيامهم أفلا يكون الذي فعل كل هذا أعظم الرجال اهـ . ومثله من شهادات علماء أهل الكتاب كثير والحق يعلو .

بيان خصائصه ﷺ وفضائله ، وشرف أخلاقه وشمائله ، المؤيدة لنبوته ، والمبرهنة على عموم رسالته

قال الامام الماوردي رحمه الله تعالى : المهيأ لأشرف الأخلاق وأشرف الأفعال . المؤهل لأعلى المنازل وأفضل الأعمال . لأنها أصول تقود إلى ما ناسبها ووافقها . وتنفر مما باينها وخالفها . ولا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده تبعث على مصالح الخلق وطاعة الخالق ، فكان أفضل الخلق بها أخص . وأكملهم بشروطها أحق بها وأمس . ولم يكن في عصر الرسول وما داني طرفيه من قاربه في فضله ولا داناه في كماله خَلْقاً وخُلُقاً وقولاً وفعلاً وبذلك وصفه الله تعالى في كتابه بقوله ﴿ وإنّك لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم ﴾ [١] والفضل وإن لم يكن من معجزات النبوة ، فهو من إماراتها وتكامل الفضل معوز فصار كالمعجز . وكمال الفضل موجب للصدق والصدق موجب لقبول القول ، فجاز أن يكون من دلائل الرسل .

فإذا وضح هذا ، فالكمال المعتبر في البشر يكون من أربعة أوجه : كمال الخلق ، وكمال الخلق ، وفضائل الأقوال ، وفضائل الأعمال .

فأما الوجه الأول في كمال خلقه بعد اعتدال صورته فيكون بأربعة أوصاف :

أحدها السكينة الباعثة على الهيبة والتعظيم ، الداعية إلى التقديم والتسليم . وكان أعظم مهبب في النفوس حتى ارتاعت رسل كسرى من هيبته حين أتوه مع ارتياعهم بصولة الأكاسرة ومكاثرة الملوك الجبابرة فكان ﷺ في نفوسهم أهيب وفي أعينهم أعظم وإن لم يتعاظم بأهبة ولم يتطاول بسطوة بل كان بالتواضع موصوفاً وبالوطأة[٢] معروفاً .

والثاني في الطلاقة الموجبة للاخلاص والمحبة الباعثة على المصافاة والمودة وقد كان صلوات الله عليه محبوباً استحكمت محبة طلاقته في

---

(١) سورة القلم ، الآية : ٤ .

(٢) الوطأة السهولة .

النفوس ، حتى لم يقله مصاحب . ولم يتباعد منه مقارب . وكان أحب إلى أصحابه من الآباء والأبناء . وشرب البارد على الظماء .

والثالث حسن القبول ، الجالب لممايلة القلوب ، حتى تسرع إلى طاعته . وتذعن بموافقته وقد كان قبول منظره ﷺ مستولياً على القلوب ، ولذلك استحكمت مصاحبته في النفوس ، حتى لم ينفر منه معاند . ولا استوحش منه مباعد إلا من ساقه الحسد إلى شقوته . وقاده الحرمان إلى مخالفته .

والرابع ميل النفوس إلى متابعته . وانقيادها لموافقته . وثباته على شدائده ومصابرته . فما شذ عنه معها من أخلص . ولا ند عنه فيها من تخصص . وهذه الأربعة من دواعي السعادة ، وقوانين الرسالة ، وقد تكاملت فيه فكمل لما يوازيها ، واستحق ما يقتضيها .

وأما الوجه الثاني في كمال خلقه فيكون بست خصال .

إحداهن ، رجاحة عقله ، وصحة وهمه وصدق فراسته ، وقد دل على وفور ذلك فيه صحة رأيه وصواب تدبيره ، وحسن تألفه ، وأنه ما استغفل في مكيدة ولا استعجز في شديدة ، بل كان يلحظ الاعجاز في المبادئ فيكشف عيوبها ويحل خطوبها ، وهذا لا ينتظم إلا بأصدق وهم وأوضح جزم .

والخصلة الثانية ، ثباته في الشدائد وهو مطلوب وصبره على البأساء والضراء ، وهو مكروب ومحروب[1] ، ونفسه في اختلاف الأحوال ساكنة لا يخور في شديدة ، ولا يستكين لعظيمة ، وقد لقي بمكة من قريش ما يشيب النواصي ، ويهد الصياصي ، وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي ، ويثبت ثبات المتسولي .

والخصلة الثالثة زهده في الدنيا وإعراضه عنها ، وقناعته بالبلاغ منها ،

---

(١) أي مطلوب يقال حربه حرباً كطلبه طلباً فهو محروب وحريب .

فلم يمل إلى غضارتها[1] ولم يله[2] لحلاوتها ، وقد ملك من أقصى الحجاز إلى عذار العراق ومن أقصى اليمن إلى شحر عمان[3] وهو أزهد الناس فيما يقتني ويدخر ، وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر ، لم يخلف عيناً ولا ديناً ، ولا حفر نهراً ، ولا شيد قصراً ، ولم يورث ولده وأهله متاعاً ولا مالاً ، ليصرفهم عن الرغبة في الدنيا كما صرف نفسه عنها ، فيكونوا على مثل حاله في الزهد فيها ، وحقيق بمن كان في الدنيا بهذه الزهادة حتى اجتذب أصحابه إليها ألا يتهم بطلبها ويكذب على الله تعالى في ادعاء الآخرة بها ويقنع في العاجل وقد سلب الآجل بالميسور النزر ، ورضي بالعيش الكدر .

والخصلة الرابعة ، تواضعه للناس وهم أتباع ، وخفض جناحه لهم وهو مطاع ، يمشي في الأسواق ويجلس على التراب ، ويمتزج بأصحابه وجلسائه ، فلا يتميز عنهم إلا بإطراقه وحيائه ، فصار بالتواضع متميزاً ، وبالتذلل متعززاً ، ولقد دخل عليه بعض الأعراب فارتاع من هيبته فقال خفض عليك فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة وهذا من شرف أخلاقه وكريم شيمه فهي غريزة فطر عليها وجبلة طبع بها لم تندر فتعد ، ولم تحصر فتحد .

والخصلة الخامسة : حلمه ووقاره عن طيش يهزه ، أو خرق يستفزه ، فقد كان أحلم في النفار من كل حليم . وأسلم في الخصام من كل سليم . وقد مني بجفوة الأعراب فلم يوجد منه نادرة . ولم يحفظ عليه بادرة . ولا حليم غيره إلا ذو عثرة ولا وقور سواه إلا ذو هفوة ، فإن الله تعالى عصمه من نزع الهوى وطيش القدرة بهفوة أو عثرة ليكون بأمته رؤوفاً . وعلى الخلق عطوفاً قد تناولته قريش بكل كبيرة وقصدته بكل جريرة ، وهو صبور عليهم ومعرض عنهم ، وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم ،

---

(١) الغضارة : النعمة والسعة والخصب اه قاموس.

(٢) مضارع وله كفرح بمعنى تحير أي لم يتحير في شأنه لما خضعت له البلاد ودانت له العباد وحبيت إليه الأموال الزكوية والخراج والجزى كما هو معلوم من سيرته .

(٣) ساحل البحر بين عمان وعدن .

ولا أرذالهم دون عظمائهم ، بل تمالأ عليه الجلة والدون ، فكلما كانوا عليه من الأمر ألح ، كان عنهم أعرض وأصفح ، حتى قهر فعفا ، وقدر فغفر .

وقال لهم حين ظفر بهم عام الفتح ، وقد اجتمعوا إليه : ما ظنكم بي ؟ قالوا : ابن عم كريم ، فإن تعف فذاك الظن بك ، وإن تنتقم فقد أسأنا . فقال : بل أقول كما قال يوسف لإخوته ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُم وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[١] .

وقال : « اللهم قد أذقت أول قريش نكالاً فأذق آخرهم نوالاً » .

وأتته هند بنت عتبة ، وقد بقرت بطن عمه حمزة ولاكت كبده ، فصفح عنها وأعطاها يده لبيعتها[٢] .

فإن قيل فقد ضرب رقاب بني قريظة صبراً[٣] في يوم واحد وهم نحو سبعمائة[٤] فأين موضع العفو والصفح .

قيل : إنما فعل ذلك في حقوق الله تعالى ، وقد كانت بنو قريظة رضوا بتحكيم سعد بن معاذ عليهم ، فحكم أن من جرت عليه الموسى قتل ، ومن لم تجر عليه استرق ، فقال رسول الله ﷺ : « هذا حكم الله من فوق سبعة أرقعة » . فلم يجز أن يعفو عن حق وجب لله تعالى عليهم وإنما يختص عفوه بحق نفسه[٥] .

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ٩٢ .

(٢) كناية عن أنه بايعها بدون تردد وليس المراد أنه صافحها فانه (ص) كان لا يصافح النساء . ع

(٣) كل من قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ فانه مقتول صبراً اه تاج ، وكل من حبس لقتل أو حلف فقد صبر اه أساس .

(٤) في حديث جابر عند الترمذي والنسائي وابن حبان إسناد صحيح أنهم كانوا أربعمائة مقاتل اه فتح الباري .

(٥) ملخص جواب الماوردي رحمه الله هنا وتوضيحه أن عفوه عليه السلام المستفيضة أخباره والمتواترة أنباؤه إنما هو فيما كان لخاصة نفسه إذ لم ينتصر لنفسه ولم يغضب لها في واقعة قط وأما ما كان حقاً من حقوق الله وحداً من حدوده التي شرعها وأمر بها فلا عفو ولا هوادة. وما كان من أمر بني قريظة فهو من حقوق الله الواجب إقامتها لأنهم كانوا ـ

والخصلة السادسة : حفظه للعهد ، ووفاؤه بالوعد ، فإنه ما نقض لمحافظ عهداً ولا أخلف لمراقب وعداً . يرى الغدر من كبائر الذنوب . والاخلاف من مساوئ الشيم . فيلتزم فيهما الأغلظ . ويرتكب فيهما

— من المحاربين لله ولرسوله ومن السعاة في الأرض بالفساد ومعلوم ما نزل في مثلهم من قوله تعالى « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا » إلى آخر الآية . وهؤلاء يهود قريظة فعلوا من الغدر ونكث العهد ونقض الميثاق الذي واثقهم به عليه الصلاة والسلام وعاهدهم عليه ما لا يفعله إلا عدو ماكر وخائن غادر فقد والوا أعدائه من كفار قريش وغطفان وعاقدوهم على حربه وعلى استباحة المدينة المنورة وعلى إبادة المسلمين والإسلام كما يعلم ذلك من وقف على تعاقدهم مع كفار قريش في مكة لذا أوحي إليه أن يطهر أرضه من قوم لم تعد تنفع معهم العهود ولا تربطهم المواثيق ولا يأمن المسلمون جانبهم في شدة . ولما سار عليه الصلاة والسلام إليهم ونزل بساحتهم أبوا أن يسلموا أنفسهم حتى يحكم فيهم من أصحابه صلوات الله عليه من كان أقرب إليهم مودة وأرعى لهم جواراً وهو سعد بن معاذ رضي الله عنه فانهم كانوا حلفاءه في الجاهلية ومواليه فلما أتى به للحكم قال : آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ثم حكم بقتل رجالهم فاذا كان هذا حكم من هو سيدهم ومولاهم وهو أبر الناس بهم أفليس إلا لأن جريمتهم لا تغتفر وجريرتهم لا تحتمل بلى ولأجل ذلك قال (ص) له : تضيت بحكم الله : فانه تعالى كان شرع جزاء المحاربين في الآية السالفة . والآية تشملهم شمولا جلياً . ويدخلون في حكمها دخولا أولياً فقضاء سعد رضي الله عنه قضاء بالنص وصدع بالحق في إمضاء الحد . على من خان وغدر وتعدى الحد . ومن المعلوم بالضرورة أنه لم تخل شريعة موحاة ولا قانون عادل ولا نظام مدني بلغ من الرقي والتعديل أقصاه من سن القصاص والعقوبة بالتدمير لمثل من شملتهم الآية الكريمة . وكل من فسدت ملكته . وخبثت طينته ومرنت على الضرر والإضرار نفسه فما دواء العضو المجذم إلا البتر . ولا الشجر الشائك إلا النار . ولا العثرة في الطريق إلا الإزاحة بأي وجه كان ، معروف ذلك في قوانين العدل وسنن المصالح العامة . وقد أجمع الأخلاقيون على وجوب إزالة الفساد من جادة الصلاح وكسح عقبات الضلال من وجه الهدى ليسير الاصلاح سيره ويبلغ ما قدر له . وما مثل بني قريظة إلا كمثل من قال :

يقولون لي دار العدا تنج منهمو فقلت مدارة العدا ليس تنفع
ولو أنني داريت دهري حية إذا مكنت يوماً من اللسع تلسع

ومن درس السيرة النبوية حق دراستها وسبر مجرياتها مع خصومها فانه لا يجد فيها إلا الحكم العدل والقضاء الفصل . ومن أخذته الحيرة في مسألة فليأت البيوت من أبوابها وليسأل أهل الذكر . وليس توقف من توقف بحجة ولا سند كما أن عدم العلم ليس علماً بالعدم « وفوق كل ذي علم عليم » والله العليم الحكيم .

الأصعب . حفظاً لعهده . ووفاء بوعده حتى يبتدئ معاهدو بنقضه . فيجعل الله تعالى له مخرجاً . كفعل اليهود من بني قريظة وبني النضير وكفعل قريش بصلح الحديبية فجعل الله تعالى له في نكثهم الخيرة .

فهذه ست خصال تكاملت في خلقه . فضله الله تعالى على جميع خلقه .

وأما الوجه الثالث في فضائل أقواله فمعتبر بثمان خصال :

إحداهن : ما أوتي من الحكمة البالغة . وأعطى من العلوم الجمة الباهرة . وهو أمي من أمة أمية لم يقرأ كتاباً . ولا درس علماً . ولا صحب عالماً ولا معلماً . فأتى بما بهر العقول . وأذهل الفطن . من إتقان ما أبان . وأحكام ما أظهر . فلم يعثر فيه بزلل في قول أو عمل . وقد شرع من تقدم من حكماء الفلاسفة سنناً حملوا الناس على التدين بها حين علموا أنه «لا صلاح للعالم إلا بدين ينقادون له ويعملون به» (١) فما راق لها أثر . ولا فاق لها خبر . وهم ينبوع الحكم . وأعيان الأمم . وما هذه الفطرة في الرسول إلا من صفاء جوهره وخلوص مخبره .

والخصلة الثانية حفظه لما أطلعه الله تعالى عليه من قصص الأنبياء مع الأمم وأخبار العالم في الزمن الأقدم . حتى لم يعزب عنه منها صغير ولا

---

(١) تأمل هذه الحكمة الجامعة للماوردي ولا تنس ما أسلفناه في هذا المعنى ولقدتذكرت لبعض الأئمة الحكماء جملة من مقالة لـه في ذلك قال رحمه الله : فعلاج الأمة التي خملت النباهة وضيمت بعد المنعة إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق وإيقاد نيران الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثة من أحقاب طويلة والقلوب مطمئنة إليه وفي زواياها نور خفي من محبته فلا يحتاج القائم بأحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة يسري نفثها في جميع الأرواح لأقرب وقت فاذا قاموا لشؤونهم ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنساني ومن طلب إصلاح أمة بوسيلة سوى هذه فقد ركب بها شططاً وجعل النهاية بداية وانعكست التربية وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة إلا بخساً ولا يكسبها إلا تعساً . فالدين سبب يجمع الأسباب ووسيلة تحيط بالوسائل اهـ .

كبير . ولا شذ عنها قليل ولا كثير . وهو لا يضبطها بكتاب يدرسه . ولا يحفظها بعين تحرسه . وما ذاك إلا من ذهن صحيح وصدر فسيح . وقلب شريح وهذه الثلاثة آلة ما استودع من الرسالة ، وحمل من أعباء النبوة ، فجدير أن يكون بها مبعوثاً . وعلى القيام بها محثوثاً .

والخصلة الثالثة : أحكامه لما شرع بأظهر دليل . وبيانه بأوضح تعليل . حتى لم يخرج منه ما يوجبه معقول . ولا دخل فيه ما تدفعه العقول . ولذلك قال ﷺ أتيت جوامع الكلم واختصرت لي الحكمة اختصاراً . لأنه نبه بالقليل على الكثير فكف عن الإطالة . وكشف عن الجهالة . وما تيسر ذلك إلا وهو عليه معان وإليه مقاد .

والخصلة الرابعة ما أمر به من محاسن الأخلاق . ودعا إليه من مستحسن الآداب . وحث عليه من صلة الأرحام . وندب إليه من التعطف على الضعفاء والأيتام . ثم ما نهى عنه من التباغض والتحاسد . وكف عنه من التقاطع والتباعد لتكون الفضائل فيهم أكثر . ومحاسن الأخلاق بينهم أنشر . ومستحسن الآداب عليهم أظهر . وتكون إلى الخير أسرع . ومن الشر أمنع . فيتحقق فيهم قول الله تعالى ﴿ كُنْتُم خَيْرَ أمّة أخْرِجَتْ للنّاسِ تَأمُرونَ بالمَعْروفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾[1] فلزموا أوامره . واتقوا زواجره . فتكامل بهم صلاح دينهم ودنياهم حتى عز بهم الاسلام بعد ضعفه . وذل بهم الشرك بعد عزه . فصاروا أئمة إبرارا . وقادة أخيارا .

والخصلة الخامسة وضوح جوابه إذا سئل . وظهور حجاجه إذا جودل . لا يحصره عي. ولا يقطعه عجز . ولا يعارضه خصم في جدال إلا كان جوابه أوضح وحجاجه أرجح .

والخصلة السادسة أنه محفوظ اللسان من تحريف في قول واسترسال في خبر يكون إلى الكذب منسوباً . وللصدق مجانبا . فإنه لم يزل مشهوراً بالصدق في خبره فاشياً وكثيراً حتى صار بالصدق مرقوماً . وبالأمانة

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠ .

مرسوماً . وكانت قريش بأسرها تتيقن صدقه قبل الاسلام فجهروا بتكذيبه في استدعائهم إليه فمنهم من كذبه حسداً ومنهم من كذبه عناداً ومنهم من كذبه استبعاداً أن يكون نبياً أو رسولاً . ولو حفظوا عليه كذبة نادرة في غير الرسالة لجعلوها دليلاً على تكذيبه في الرسالة . (ومن لزم الصدق في صغره كان له في الكبر ألزم ، ومن عصم منه في حق نفسه كان في حقوق الله تعالى أعصم) وحسبك بهذا دفعاً لجاحد ، ورداً لمعاند .

والخصلة السابعة : تحرير كلامه في التوخي به أبان حاجته ، والاقتصار منه على قدر كفايته ، فلا يسترسل فيه هدراً[١] ولا يحجم عنه حصراً[٢] ، وهو فيما عدا حالتي الحاجة والكفاية أجمل الناس صمتاً ، وأحسنهم سمتاً . ولذلك حفظ كلامه حتى لم يختل . وظهر رونقه حتى لم يعتل . واستعذبته الأفواه . حتى بقي محفوظاً في القلوب مدوناً في الكتب . فلن يسلم الإكثار من زلل . ولا الهذر من ملل .

والخصلة الثامنة أنه أفصح الناس لساناً . وأوضحهم بياناً ، وأوجزهم كلاماً وأجزلهم ألفاظاً . وأصحهم معاني . لا يظهر فيه هجنة التكلف . ولا يتخلله فيهقة التعسف[٣] . وقد دون كثير من جوامع كلمه ، ومن كلامه الذي لا يشاكل في فصاحته وبلاغته . ومع ذلك فلا يأتي عليه إحصاء . ولا يبلغه استقصاء . ولو مزج كلامه هذه لتميز بأسلوبه . ولظهر فيه آثار التنافر فلم يلتبس حقه من باطله ولبان صدقه من كذبه هذا ، ولم يكن متعاطياً للبلاغة . ولا مخالطاً لأهلها من خطباء أو شعراء أو فصحاء وإنما هو من غرائز طبعه . وبداية جبلته . وما ذاك إلا لغاية تراد . وحادثة تشاد .

وأما الوجه الرابع في فضائل أفعاله فمختبر بثمان خصال :

---

(١) بفتح الدال المهملة أي باطلا وأما الهذر بالمعجمة مفتوحة فمعناه الهذيان إلا أن الأصل بالمهملة .

(٢) بفتح الصاد أي عجزاً عن البيان .

(٣) في القاموس : تفيهق في كلامه تنطع وتوسع كأنه ملأ به فمه . والفيهق الواسع من كل شيء وفيهق الاناء امتلأ .

إحداهن : حسن سيرته . وصحة سياسته . في دين نقل به الأمة عن مألوف وصرفهم به عن معروف إلى غير معروف . فأذعنت به النفوس طوعاً . وانقادت خوفاً وطمعاً . وشديد عادة منتزعة إلا لمن كان مع التأييد الإلهي معاناً بحزم صائب وعزم ثاقب . ولئن كان مأموراً بما شرع فهي الحجة القاهرة . ولئن كان مجتهداً فيها فهي الآية الباهرة[1] وحسبك بما استقرت قواعده على الأبد . حتى انتقل عن سلف إلى خلف يزاد فيهم حلاوته . ويشتد فيهم جدته ، ويرونه نظاماً لإعصار تنقلب صروفها ويختلف مألوفها . أن يكون لمن قام به برهاناً . ولمن ارتاب به بياناً .

والخصلة الثانية : أنه جمع بين رغبة من استمال . ورهبة من استطاع حتى اجتمع الفريقان على نصرته . وقاموا بحقوق دعوته . رغباً في عاجل وآجل ورهباً من زائل ونازل . لاختلاف الشيم والطباع في الانقياد الذي لا ينتظم بأحدهما ولا يستديم إلا بهما فلذلك صار الدين بهما مستقراً . والصلاح بهما مستمراً .

والخصلة الثالثة أنه عدل فيما شرعه من الدين عن الغلو والتقصير إلى التوسط وخير الأمور أوساطها . وليس لما جاوز العدل حظ من رشد . ولا نصيب من سداد .

والخصلة الرابعة : إنه لم يمل بأصحابه إلى الدنيا ولا إلى رفضها، وأمرهم فيها بالاعتدال . وقال « خيركُم مَن لم يترك دُنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » . وهذا صحيح لأن الانقطاع إلى أحدهما اختلال والجمع بينهما اعتدال . وقال ﷺ « نِعْم المطيّة الدُّنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة » وإنما كان كذلك لأن منها يتزود لآخرته . ويستكثر فيها من طاعته ولأنه لا يخلو تاركها من أن يكون محروماً مضاعاً . أو مرحوماً مراعي وهو في الأول كل وفي الثاني مستذل .

والخصلة الخامسة : تصديه لمعالم الدين ونوازل الأحكام حتى أوضح

---

(١) يرحم الله الماوردي لقد ذكرنا بكلامه هذا في النبوة ما سبق لنا في الدليل ٢٥ من أدلة وجود الحق تعالى مما يحج به الخصم في جانب التوحيد أيضاً فجدد به عهداً .

للأمة ما كلفوه من العبادات . وبين لهم مـــا يحل ويحرم من مباحات ومحظورات . وفصل لهم ما يجوز ويمتنع من عقود ومناكح ومعاملات . حتى احتاج أهل الكتاب في كثير من معاملاتهم ومواريثهم لشرعه . ولم يحتج شرعه إلى شرع غيره . ثم مهد لشرعه أصولاً تدل على الحوادث المغفلة . ويستنبط لها الأحكام المعللة . فأغنى عن نص بعد ارتفاعه . وعن التباس بعد إغفاله ثم أمر الشاهدان يبلغ الغائب ليعلم بإنذاره . ويحتج بإظهاره : فقال ﷺ « بلغوا عني ولا تكذبوا علي فرب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فاحكم ما شرع من نص وتنبيه . وعلم بما أمر من حاضر وبعيد . حتى صار لما تحمله من الشرع مؤدياً . ولما تقلده من حقوق الأمة موفياً . لئلا يكون في حقوق الله زلل . وذلك في برهة من زمانه لم يستوف تطاول الاستيعاب حتى أوجز وأنجز . وما ذاك إلا بديع معجز .

والخصلة السادسة : انتصابه لجهاد الأعداء[1] ، وقد أحاطوا بجهاته

---

(١) قال الامام ابن القيم : لما بعث الله رسول الله (ص) استجاب له ولخلفائه بعده أكثر الأديان طوعاً واختياراً ولم يكره أحداً قط على الدين وإنما كان يقاتل من يحاربه وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكره على الدخول في دينه امتثالا لأمر ربه سبحانه حيث يقول « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وهذا نفي في معنى النهي أي لا تكرهوا أحداً على الدين) ثم قال (والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر . وهــذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار فلا يكرهون على الدخول في الدين بل إما أن يدخلوا في الدين وإما أن يعطوا الجزية كما يقول أهل العراق وأهل المدينة ومن تأمل سيرة النبي (ص) تبين له أنه لم يكره أحداً على دينه قط وإنما قاتل من قاتله . وأما من هادنه فلم يقاتله ما دام مقيماً على هدنته لم ينقض عهده بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له كما قال تعالى «فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤه بالقتال قاتلهم فمن على بعضهم وأجلى بعضهم وقتل بعضهم وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدءوا هم بقتاله ونقضوا عهده فعند ذلك غزاهم في ديارهم وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق ويوم بدر أيضاً هم جاءوا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم . والمقصود أنه (ص) لم يكره أحداً على الدخول في دينه البتة وإنما دخل الناس اختياراً وطوعاً فأكثر أهل الأرض دخلوا في دعوته لما تبين لهم الهدى وأنه رسول الله حقاً وللبحث هذا تتمة في أوائل كتابه (هداية الحيارى) وكذا في كتابه (زاد المعاد) فلتراجع .

وأحدقوا بجنبانه . وهو في قطب مهجور ، وعدد محقور ، فزاد به من قل ، وعز به من ذل وسار بأثخانه في الأعداء محذوراً ، وبالرعب منه منصوراً فجمع بين التصدي لشرع الدين حتى ظهـــر وانتشر ، وبين الانتصاب لجهاد العدو حتى قهر وانتصر . والجمع بينهما معوز إلا لمن أمده الله بمونته وأيده بلطفه والمعوز معجز .

والخصلة السابعة : ما خص به من الشجاعة في حروبه ، والنجدة في مصابرة عدوه ، فإنه لم يشهد حرباً في فزاع إلا صابر حتى انجلت عن ظفر أو دفاع ، وهو في موقفه لم يزل عنه هرباً ، ولا حاز فيه رغباً بل ثبت بقلب آمن وجأش ساكن قد ولى عنه أصحابه يوم حنين ، حتى بقي بإزاء جمع كثير . وجم غفير . في تسعة من أهل بيته وأصحابه . على بغلة مسبوقة إن طلبت غير مستعدة لهرب ولا طلب وهو ينادي أصحابه ويظهر نفسه ويقول إلى عباد الله « أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » فعادوا أشذاذاً وإرسالاً وهوازن تراه وتحجم عنه . فما هاب حرب من كاثره . ولا انكفأ عن مصاولة من صابره ،وقد عضده الله تعالى بأنجاد وأنجاد ، فانحازوا وصبر حتى أمده الله بنصره . وما لهذه الشجاعة من عديل ولقد طرق المدينة فزع ، فانطلق الناس نحو الصوت ، فوجدوا رسول الله ﷺ قد سبقهم إليه ، فتلقوه عائداً على فرس عرى لابي طلحة الأنصاري وعليه السيف فجعل يقول : « أيها الناس لم تراعوا لم تراعوا ؟ » ثم قال لأبي طلحة : أنا وجدناه بحراً وكان الفرس يبطئ فما سبقه فرس بعد ذلك وما ذاك إلا عن ثقة من أن الله تعالى سينصره . وأن دينه سيظهره تحقيقاً تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾(١) وتصديقاً لقول رسوله ﷺ زويت لي الأرض فرأيتَ مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها . وكفى بهذا قياماً بحقه وشاهداً على صدقه .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٣٣ قال ابن تيمية : قد أظهره الله علماً وحجة وبياناً على كل دين كما أظهره قوة ونصراً وتأييداً. وقد امتلأت الأرض منه ومن أمتـــه في مشارق الأرض ومغاربها وسلطانهم دائم لا يقدر أحد أن يزيله كما زال ملك اليهود وزال ملك من بعدهم عن خيار الأرض وأوسطها اه .

والخصلة الثامنة : ما منح من السخاء والجود . حتى جاد بكل موجود . وآثر بكل مطلوب ومحبوب . ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير لطعام أهله . وقد ملك جزيرة العرب وكان فيها ملوك وأقيال لهم خزائن وأموال يقتنونها ذخراً ، ويتباهون بها فخراً ، ويستمتعون بها أشراً وبطراً . وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى ديناراً ولا درهماً . لا يأكل إلا الخشب[1] ، ولا يلبس إلا الخشن ، ويعطي الجزل الخطير ، ويصل الجم الغفير ، ويتجرع مرارة الاقلال ويصبر على شغب الاختلال ، وكان يقول « أنا أوْلى بالمؤمنين مِن أنفسهم فَمَن ترك ديْناً أو ضياعاً[2] فعليَّ ومَن ترك مالاً فلورثته » فهل مثل هذا الكرم والجود كرم وجود أم هل لمثل هذا الاعراض والزهادة إعراض وزهد . هيهات . هل يدرك شأو من هذه شذور من فضائله ويسير من محاسنه التي لا يحصى لها عدد ولا يدرك لها أمد . لم تكمل في غيره فيساويه . ولا كذب بها ضد ينلويه . ولقد جهد كل منافق ومعاند . وكل زنديق وملحد أن يزري عليه في قول أو فعل أو يظفر بهفوة في جد أو هزل . فلم يجد إليه سبيلاً وقد جهد جهده . وجمع كيده . فأي فضل أعظم من فضل شاهده الحسدة والأعداء . فلم يجدوا فيه مغمزاً لثالب أو قادح ولا مطعنا لجارح أو فاضح . فهو كما قال الشاعر :

شَهِدَ الأنامُ بفضْلهِ حتى العِدا والفضلُ ما شهدَتْ به الأعداءُ

وحقيق لمن بلغ من الفضائل غايتها ، واستكمل لغايات الأمور آلتها أن يكون لزعامة العالم مؤهلاً ، وللقيام بمصالح الخلق موكلاً ، ولا غاية بعد النبوة أن يعم به صلاح أو ينحسم به فساد ، فاقتضى أن يكون لها أهلاً ، وللقيام بها مؤهلاً ، ولذلك استقرت به حين بعث رسولاً ، ونهض بحقوقها حين قام به كفيلاً ، فناسبها وناسبته ، ولم يذهل لها حين أتته ، وكل متناسبين متشاكلان ، وكل متشاكلين مؤتلفان ، وكل مؤتلفين متفقان ، والاتفاق وفاق هو أصل كل انتظام ، وقاعدة كل التئام ، فكان

(١) الخشب كالخشن لفظاً ومعنى واخشوشب في عيشه صبر على الجهد (قاموس) .
(٢) الضياع بالفتح العيال أو ضيعهم .

ذلك من أوضح الشواهد على صحة نبوته ، وأظهر الامارات في صدق رسالته ، فما ينكرها بعد الوضوح إلا مفضوح[1] .

وبالجملة فآية أخلاقه صلوات الله عليه آية كبرى ، وعلم من أعلام نبوته العظمى ، وقد أجملها الجاحظ بقوله : وآية أخرى لا يعرفها إلا الخاصة ، ومتى ذكرت[2] الخاصة ، فالعامة في ذلك مثل الخاصة ، وهي الأخلاق والأفعال التي لم تجتمع لبشر قط قبله ولا تجتمع لبشر بعده ، وذلك إنا لم نر ولم نسمع لأحد قط كصبره ولا كحلمه ، ولا كوفائه ، ولا كزهده ، ولا كجوده ، ولا كنجدته ، ولا كصدق لهجته ، وكرم عشرته ، ولا كتواضعه ، ولا كحفظه ، ولا كصمته إذا صمت . ولا كقوله إذا قال ولا كعجيب منشئه ، ولا كعفوه ولا كدوام طريقته ، وقلة امتنانه ، ولم نجد شجاعاً قط إلا وقد جال جولة وفر فرة وانحاز مرة ، ولا يستطيع منافق ولا زنديق ولا دهري أن يحدث أنه ﷺ جال جولة قط ، ولا فر فرة قط ، ولا حام عن غزوة ، ولا هاب حرباً من مكاثرة اهـ .

وذلك من أعجب ما آتاه الله نبياً قط مع سائر ما جاء به من الآيات ، ومن ضروب البرهانات إذ أعداؤه جمهم غفير ، وجمعهم كثير ، فخصمهم حين جادلوه وصابرهم حين عاندوه ، وكابد من الشدائد ما لم يثبت عليها إلا كل معصوم ، ولم يسلم منها إلا منصور إلى أن علت كلمته ، وظهرت دعوته ، وكل هذه آيات تنذر بالحق وتلائم الصدق لأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، ولا يصلح عمل المفسدين .

آية كمال الدين :

قال الامام ابن القيم وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم ، والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة ، كمالها ولا يدرك

---

(١) إلى هنا تم كلام الماوردي رحمه الله بتلخيص من كتابه إعلام النبوة .

(٢) أي ذكرتها ونشرتها .

الوصف حسنها ، ولا تقترح عقول العقلاء — ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم — فوقها ، وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسنها وشهدت بفضلها ، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها ، فهي نفسها الشاهد والمشهود له ، والحجة والمحتج له والدعوى والبرهان ، ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وآية وشاهداً على أنها من عند الله ، وكلها شاهدة له بكمال العلم ، وكمال الحكمة ، وسعة الرحمة ، والبر والاحسان ، والإحاطة بالغيب والشهادة ، والعلم بالمبادئ والعواقب ، وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عباده ، فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها وجعلهم من أهلها ، وممن ارتضاهم لها وارتضاها لهم ، فلهذا أمتن على عباده بأن هداهم لها . قال تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فيهِمْ رسولاً مِنْ أنْفُسِهِمْ يَتْلو عَلَيْهِم آياتِهِ ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمَهُم الكِتابَ والحِكْمَةَ وإن كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضَلالٍ مبينٍ ﴾[1] وقال معرفاً لعباده ومذكراً لهم عظيم نعمته عليهم مستدعياً منهم شكره على أن جعلهم من أهلها ﴿ اليومَ أكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُم ﴾[2] الآية .

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال . والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ، ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه ، بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام إيذاناً بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها ، بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار .

وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة ، وحسن اقتران الكمال بالدين ، وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له . وأضاف النعمة إليه سبحانه إذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم ، فهي نعمته وهم قابلوها . وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص ، وأنه شيء خصوا به دون الأمم ، وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة فجاء

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٤ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

أتممت في مقابلة أكملت وعليكم في مقابلة لكم ونعمتي في مقابلة دينكم وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله ﴿ ورَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً ﴾[1] وكان بعض السلف الصالح يقول : يا له من دين لو أن له رجالاً : اهـ . كلام ابن القيم عليه الرحمة في مفتاح دار السعادة .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٣ .

خاتمة في الفائدتين

الفائدة الأولى

في أن الحق كلما جحد أو عورض أقام تعالى من الآيات ما يؤيده

قال الامام تقي الدين رحمه الله : إن الحق إذا جحد وعورض بالشبهات أقام الله تعالى ما يحق به الحق ، ويبطل به الباطل من الآيات البينات بما يظهره من أدلة الحق وبراهينه الواضحة ، وفساد ما عرضه من الحجج الداحضة ، فالقرآن لما كذب به المشركون ، واجتهدوا على إبطاله بكل طريق مع أنه تحداهم بالإتيان بعشر سور ، ثم بالإتيان بسورة واحدة . كان ذلك مما دل ذوي الألباب على عجزهم عن المعارضة مع شدة الاجتهاد وقوة الأسباب ، ولو اتبعوه من غير معارضة وإصرار على التبطيل لم يظهر عجزهم عن معارضته التي بها يتم الدليل ، وكذلك السحرة لما عارضوا موسى عليه السلام ، وأبطل الله ما جاؤا به كان ذلك مما بين الله تبارك وتعالى به صدق ما جاء به موسى عليه السلام ، وهذا من الفروق بين آيات الأنبياء ، وبراهينهم التي تسمى بالمعجزات ، وبين ما قد يشتبه بها من خوارق السحرة وما للشياطين من التصرفات ، فإن بين هذين فروقاً متعددة منها ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾[1] ومنها ما بينه في آيات التحدي من أن آيات الأنبياء عليهم السلام لا يمكن أن تعارض بالمثل . فضلاً عن الأقوى ، ولا يمكن أحداً إبطالها بخلاف خوارق السحرة والشياطين ،

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢٢١ ، ٢٢٢ .

فإنه يمكن معارضتها بمثلها ، وأقوى منها ويمكن إبطالها . وكذلك سائر أعداء الأنبياء من المجرمين شياطين الأنس والجن الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذا أظهروا من حججهم ما يحتجون به على دينهم المخالف لدين الرسول ، ويموهون في ذلك بما يلفقونه كان ذلك من أسباب ظهور الإيمان الذي وعد الله تعالى بظهوره على الدين كله بالبيان والحجة والبرهان . قال الله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّنات وأنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ والمِيزانَ لِيقومَ النّاسُ بالقِسْطِ وأنْزَلْنا الحَديدَ فيه بأسٌ شَديدٌ ومَنافِعُ للنّاسِ ولِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُوهُ ورُسُلُهُ بالغَيْبِ إنَّ اللهَ قويٌّ عَزيزٌ ﴾[1] وذلك بما يقيمه الله تباركَ وتعالى من الآيات والدلائل التي يظهر بها الحق من الباطل . والحالي من العاطل . والهدى من الضلال . والصدق من المحال . ولغي من الرشاد والصلاح من الفساد . والخطأ من السداد . وهـذا كالمحنة للرجـال التي تميز بين الخبيث والطيب قال الله تعالى ﴿ ما كانَ اللهُ لِيَذَرَ المؤمنينَ على ما أنتُم عَلَيْهِ حتّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّب ﴾[2] وقال تعالى ﴿ ألم * أحَسِبَ النّاسُ أنْ يُتْرَكوا أنْ يَقولوا آمَنّا وهُمْ لا يُفتَنون * ولَقَدْ فَتَنّا الّذينَ مِن قَبْلِهِم فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الّذينَ صَدَقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبينَ ﴾[3] والفتنة هي الامتحان والاختبار كما قال موسى عليه السلام ﴿ إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بها مَنْ تَشاءُ وتَهْدِي مَنْ تَشاء ﴾[4] أي : امتحانك واختبارك تضل بها من خالف الرسل وتهدي بها من تبعهم والفتنة للانسان ، كفتنة الذهب إذا أدخل كـير الامتحان ، فإنها تميز جيده من رديئه ، فالحق كالذهب الخالص كلما امتحن ازداد جودة والباطل كالمغشوش المغشى إذا امتحن ظهر فساده ، فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر ، وناظر عنه المناظر ، ظهرت لـه البراهين ، وقوي به اليقين ، وازداد به إيمان المؤمنين ، وأشرق نوره في صدر العالمين ، والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل ، ورام أن يقيم عوده المائل ، أقام الله تبارك وتعالى من يقذف بالحق على الباطل ، فيدمغه

(١) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٧٩ .
(٣) سورة العنكبوت ، الآية : ٢ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٥ .

فإذا هو زاهق . ويبين أن صاحبه الأحمق كاذب مائق . وظهر فيه من الفساد والتناقض والإلحاد ، والضلال والجهل والمحال ، ما يظهر به لعموم الرجال . أن أهله من أضل الضلال ، حتى يظهر فيه من الفساد ، ما لم يكن يعرفه أكثر العباد ، ويتنبه بذلك من كان غافلاً من سنة الرقاد من كان لا يميز الغي من الرشاد ، ويحيي بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينْ ﴾[1] ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين .

وقال رحمه الله أيضاً : ومما ينبغي أن يعلم أن الله إذا أرسل نبياً وأتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة وظهرت بها المحجة ، فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب إجابتهم إلى ذلك ، بل وقد لا ينبغي ذلك لأنه إذا جاء بآية ثانية طولب بثالثة ، وإذا جاء بثالثة طولب برابعة « فإن طلب المتعنتين لا أمد له » ومعلوم أنه من قامت عليه حجة بينة في مسألة علم وحق من حقوق العباد التي يتخاصمون فيها . لو قال أنا لا أقبل حتى تقوم عليه حجة ثانية وثالثة . كان ظالماً متعدياً ، ولم يجب إجابته إلى ذلك ، ولا يمكن الحكام الخصوم من ذلك، بل إذا قامت البينة بحق المدعي حكم له بذلك ، ولو قال المطلوب أريد بينة ثانية وثالثة ورابعة لم يجب إلى ذلك . فحق الله الذي أوجبه على عباده من توحيده والإيمان به ورسله أولى إذا قامت بينة أوجبت على الخلق الإيمان برسله ألا يجب إجابة الطالب إلى ثانية وثالثة .

ثم قد يكون في تتابع الآيات حكمة فيتابع تعالى بين الآيات كما أرسل محمداً ﷺ بآيات متعددة لعموم دعوته وشمولها فإن الأدلة كلما كثرت وتواردت على مدلول واحد كان أوكد وأظهر وأيسر لمعرفة الحق فقد يعرف دلالة أحد الأدلة من لم يعرف دلالة الآخر وقد يبلغ هذا ما لم يبلغ هذا . وقد يرسل الأنبياء بآيات متتابعة ويقسي قلوب الكفار عن الإيمان لتتابع الآيات آية بعد آية لينتشر ذلك ويظهر ويبلغ ذلك قوماً آخرين فيكون ذلك سبباً لإيمانهم اهـ .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٦٩ .

الفائدة الثانية

في تأثير لسان البرهان في تبيان الحق وطرد وساوس الشيطان

قال بعض الحكماء : من الناس من يحسب أن الكلام مع المبطلين ضرب من العبث وإنما هو فضيحة لمذهبهم وتشهير لرأيهم على غير جدوى إذ أصبحوا بحيث لا ينفع فيهم القول .

وهذا رأي من لا خبرة له بالشرع ولا دراية عنده بتأثير القول ، فأما الفضيحة فلو كان في اتقائها خير بإطلاق لتعطل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأي شرع أم أي عقل يأمر باتقاء الفضيحة في درء المفاسد ، ومع ذلك فأي عورة مستورة منهم حتى تتقي الفضيحة من كشفها .

وأما عدم نفع القول فمن المكابرة في الواقع . وهل كان كون أو فساد في بداوة أو حضارة إلا بفعل القول من تأليف وتنفير ، وتحذير وتطمين ، ووعد ووعيد ، وتثبيط وتهييج ، وتسكين وتحريك ، إلى غير ذلك من أفانين اللسان وضروب البيان ، وهل الأنبياء صلوات الله عليهم دعوا الخلق إلى الأديان بأكثر من قوة اللسان . وهل الكتب السماوية تنزلت إلا بالبيان . وهل ثارت أحقاد أو سكنت . والتحمت ملاحم وانفصلت . وأريقت دماء أو حقنت ، بمثل القول وشبه اللفظ . ولم أقيمت المنابر ، وخطب الخطباء ، ووعظ الوعاظ ، وسعى المبشرون والدعاة ، وشرع الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ليس إلا لسر اللسان . وحكمة البيان . وفضل الكلام .

وبالجملة فهل في الدنيا شيء من عظائم الأمور إلا وهو غرس اللفظ وحصيد النطق ؟ وعلى كل حال فالأمر في ذلك أوضح من أن يحتاج إلى أطناب . وإنما ليس لثمرة القول إبان محدود فقد تسرع وقد تبطئ . ورب

رجل يتكلم بكلمة لا يؤبه لها في جيله ، فتثمر في جيل آخر ثمرة يتمتع بها أهل الأرض جميعاً ، فإدعاء أن المبطلين لا ينفع فيهم الكلام حماقة وجهالة .

كذلك من الناس يزعم أن داء المفسدين قد أزمن وتأصل بعد أن استفحل ، ونشأ في عروقهم وانبسط ، وسرى في دمهم وامتد ، وتشعب في أعصابهم وصار لا يرجى برؤه ، بل لا يؤمل تلطيفه حتى يداوى كما قطع بذلك بعض القانطين ، وإذاً فالانتداب لمقاومته لا يورثهم إلا التنغيص ومن الرحمة ترك تنغيص من لا يستطيع التدارك .

قنوطهم هذا منشؤه عدم صحة النية وصدق العزيمة . خاب ظنهم وكذب حدسهم وما الداعي حاسبهم الله لهذا اليأس ، وباب الخير مفتوح وداعي الرشاد ملح وخاطر العزم معترض . فما عليهم لو بذلوا جهدهم في ذلك السبيل عوض إفراغ وسعهم في القال والقيل ، فإن نجحوا كانوا مشكورين وإن لم ينجحوا كانوا مشكورين معذورين .

هذا وحيث أن لكل معلول علة ، ولا يمكن استئصال المعلولات إلا باستئصال عللها ، فعلى من يريد أن يضع نفسه موضع الطبيب أن يبحث عن علة المبطل وأصل خالله ، ثم يحاول استئصال الأصل بما يراه ناجحاً من عقاقير الإرشاد والاستدلال ، فإنه إن فعل يوشك أن ينجح إن شاء الله .

ومهما يكن للمبطل من قدرة على مقاومة الحقائق بالسفسطة ، فإن من أساليب البرهان ما لا ينفع معه سفسطة ولا يأتي عليه سحر ، ولا تدفعه حيلة . فالحق أكبر من أن يكافح ، ولئن ثبت الباطل أمامه مرة ، فقلما يثبت أخرى ومآله إلى الفرار على كل حال اه .

وما ألطف قول الأصفهاني عليه الرحمة : الحق يتضح بالأدلة . والشهور تشتهر بالأهلة . وشفاء الصدور بالبلة . والدين لولا شطب البيان أعزل . والقلم لولا سنان البرهان مغزل . لا يفك شبكة الشك . الاظبة تدور في قراب الفلك . وطالب الحق ضيف الله . والدليل القاطع سيف الله . به يفلك العلم وينشر . وبه يبقر الحق ويقشر . ومثل العلوم والبرهان .

كمثل المصباح والادهان . والحجة للأحكام. كالعماد للخيام . والعهاد للهيام . ومثل المقلد بين يدي المحقق . مثل الضرير بين يدي البصير المحدق ، ومثل الحكيم والحشوى كالميتة والمشوى[1] ما المقلد إلا جمل مخشوش . له عمل مغشوش . قصاراه لوح منقوش يقنع بظواهر الكلمات . ولا يعرف النور من الظلمات شغله نقل النقل عن نخبة العقل . فما أسعد من هدي إلى العلم ونزل رباعه . وأرى الحق ورزق اتباعه لزم اليقين . تكن من المتقين ، واعلم واعرض عن الجاهلين . واعمل فنعم أجر العاملين .

---

(١) نشر في التمثيل على غير ترتيب اللف فإن الميتة مثال للحشوى . والمشوى مثال للحكيم، والحشوى واحد الحشوية بسكون الشين . وفتحها غلط . نسبة للحشو بمعنى العامة والتباع وقيل غير ذلك . ولنا في التعريف بهم في شرح « لقطة العجلان » في آخر فصل منها كلام جدير بالمراجعة .

فهرست

كتاب دلائل التوحيد وتعليقاته

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة